

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص الرسالة

عنوان البحث : آثار البرامكة ، وبني سهل ، والموليين
على النشر الفني .

اسم الباحث : أحمد سعيد الزهراني . الدرجة العلمية : ماجستير

ليس من نافلة القول الإشارة هنا الى أن النشر الفني قد نال حظا أوفر في الدولة العباسية ولقى عناية كبيرة من الخلفاء العباسيين ايمانا منهم بدوره في تسيير دفة الأمور السياسية بين مركز الخلافة وأقطارها المتباعدة ، فهو لغة الحضارة والتطور العقلي ، لذا كانت هذه الأطروحة التي تبحث في مجال النشر الفني وجاء البحث مشتملا على ثلاثة أبواب عدا المدخل والخاتمة ، عالجت في المدخل شقاغة الكاتب من منظور النقاد والمهتمين بصناعة الكتابة ، وتلاه الباب الأول : عن البرامكة ، قسمته الى فصول ثلاثة ، تحدثت في الفصل الأول عن أرومتهم ومكانتهم قبل اسلامهم ، وفصلت شيئا من شخصية خالد بن برمك عميد هذه الأسرة ، وعقبت على ذلك بابرار مكانتهم سياسيا وأدبيا في الدولة العباسية ، ودورهم في توجيه أدباء عصرهم . أما الفصل الثاني : فكان عن البرامكة في مرآة معاصريهم الأدباء من شعراء وكتاب ، والفصل الثالث : أوردت فيه نشرهم الفني ، وأجلت فيه سماته الفنية وخصائصه الأسلوبية ، وختمت هذا الباب بأبرز ما توصلت اليه من نتائج .

الباب الثاني : عن السهليين ، قسمته الى ثلاثة فصول أيضا الأول : أشرت فيه الى العلائق والوشائج الأدبية بينهم وبين البرامكة ، وأعقبته بذكر أرومتهم واتصالهم بالخلفاء ، وتراجم أدبية للفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، ومن ثم ابراز مكانتهم الأدبية والسياسية ، وما قاموا به من تشجيع لأدباء عصرهم . أما الفصل الثاني : فكان عن آل سهل في مرآة أدباء العصر ، والفصل الثالث : يبحث في مآثورهم الفني ، سماته وخصائصه ، وختمته بما توصلت اليه من نتائج .

أما الباب الأخير : فقد تناول الموليين ، وقسمته الى فصول ثلاثة ، الأول : ألمحت فيه الى علائق آل مول بالأسرتين السابقتين مع الإشارة الى أرومتهم واتصالهم بالخلفاء ، ثم استطلعت آراء معاصريهم الأدباء في بلاغتهم وتمكنهم من ناصية البيان ، والفصل الثاني : جعلته لنشرهم الفني وسماته ، وعقدت فصلا جديدا لموازنة أدب الكتاب للصولي بكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة ، وهو الفصل الثالث .

المنهج : استعان الباحث في دراسته بثلاثة مناهج ، يأتي في طليعتها المنهج التاريخي ، وأفادني في تتبع تطور السمات وترتيب تسلسل المراحل ، والمنهج البياني في الدراسة التحليلية لكشف مناحي الجمال الفني ، والمنهج النفسي ، لما تحمله النصوص من سمات شخصية الكاتب وأسلوب تفكيره .

ومن نتائج البحث :

(١) كان من ثمرة دراسة العلائق بين كل أسرة وأخرى نتائج غاية في الأهمية فقد أثبتت الدراسة قوة الصلات أدبيا بين كل الأسر هذا الامتزاج بينهم ورث خصائص متحدة لأدبهم ، فهم يمثلون مدرسة واحدة .

(٢) بدأنا نرى ضربا من النشر غير مألوف امتزجت فيه رقة الألفاظ مع حلاوة المعاني ، وأبرز من مثل هذا التيار عمرو بن مسعدة من آل صول .

العميد

المشرف

الباحث

أحمد بن سعيد الزهراني د. محمود عبدربه فياض د. محمد بن مريسي الحارثي

المقدمة

المقدمة

الحمد لله الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ،
والصلاة والسلام على افضل الانبياء والمرسلين سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله ومحبيه ومن تبعه ، وبعد :
فقد رأيت اهتمام الباحثين والمؤلفين - على تباين
عمورهم - منصبا على دراسة الشعر وفنونه ، وتجليه قفاياه
وخفاياه المستسرة والظاهرة حتى اكتظت المكتبة العربية
بشئ كثير من جهود هؤلاء ، وكدت - فى غمرة ذلك - أنسى أن
النثر قسم الشعر ومنوه .

ولعلهم كانوا يأنصون الى الشعر لمكانته الرفيعة فى
وجدان العربى منذ العمر الجاهلى ، واستمرار هذه المكانة
فى ظل الدولة العربية ، لكن الاهتمام بالنثر عموما وبالنثر
الفنى خصوصا طفق يأخذ حظه من الاهتمام والحفاوة ، بعد أن
بزغت شمس الحضارة العربية ، واحتيج اليه فى تصريف
شئونها .

اذ ذاك أخذ النثر الفنى ينازل الشعر ويطاوله ، ويظهر
كتاب يسامقون كبار الشعراء ، بل ان من بين هؤلاء الكتاب من
كانوا يتولون الوزارة فزاد هذا من منزلة الكتاب ، بل صار
بعضهم مقصدا لكبار الشعراء ، ولهم أثرهم فى توجيه الحركة
الادبية العامة .

لكن مع ذلك لم يكد يظفر من اهتمام النقاد القدامى
بمثل ماظفر الشعر ، وعلى الرغم من وجود بعض الجهود
النقدية التى نشأت حول النثر قديما ، والجهود التى ظهرت

(ج)

فى العصر الحديث الا أن ميدانه مازال محتاجا لتضافر الجهود
تنقيبا عن النشر الفنى فى مناجم التراث ، ودراسة له
تبياناً لمكانته الحقيقية ، ولوظيفته فى خدمة الحضارة
العربية التى تفردت فى عصرها تنويراً لشعوب العالم .

ولما كان لبعض الأسر التى أسلمت من غير العرب أثر فى
هذا النشر الفنى كان ذلك جديراً بإفرادها بالبحث العلمى
تقويماً لأثرها ، وهو ما أغرائى باختيار ماسطرته أقلام
(البرامكة ، وآل سهل ، وآل صول) .

ولم يكن اختياري لهذه الأسر الأدبية مجتمعة ضرباً من
العشوائية ، فكان معيارى فى اختيارها هو التوافق العرقى
والأدبى بينهم ، وما نتج عنه من صلات أدبية بين كل أسرة
وأخرى ، فهم يمثلون مدرسة فنية متحدة السمات عدا ماتفرمه
الموهبة ، ويتيح الاستعداد لكاتب دون غيره .

وعدا هذه الأسر التى وقع عليها اختياري فشم أسر أخرى
كانت لها اسهامات بارزة فى رقى النشر الفنى فى هذه الحقبة
من التاريخ أمثال بنى وهب ، وبنى الفرات ، وبنى ثوابة .
وبعد فلا يمكن للباحث ولا يحق له إنكار أو تقلييل
مالباحثين المحدثين من جهود مشكورة فى تناول النشر الفنى
ودرسه ، وأعمالهم هذه تفاوتت فى معالجة النشر وقضاياها من
باحث لآخر .

يأتى فى طليعة هؤلاء (د. زكى مبارك) الذى حدد دراسته
بحقبة زمنية معينة كما فعل فى كتابه "النشر الفنى فى
القرن الرابع" أتى فيه المؤلف على كثير من فنون النشر
وأبان سماتها ، الا أنه لم يخص القرن الرابع بسمات معينة ،
بل كانت امتداداً لخصائص الكتابة قبل هذا القرن .

و (د. شوقي ضيف) في كتابه "الفن ومذاهبه في النثر العربي" فقد استعرض المؤلف المذاهب الفنية التي تطور فيها النثر العربي من العصر الجاهلي الى العصر الحديث .
ومن هؤلاء الباحثين من قام بدراسة النثر على ضوء المدارس الادبية كما فعل (د. نبيه حجاب) في كتابه "بلاغة الكتاب في العصر العباسي دراسة تحليلية نقدية لتطور الاساليب" .

و (د. حسنى ناعسة) في كتابه "الكتابة الفنية في مشرق الدولة الاسلامية في القرن الثالث الهجري" وجمع فيه المؤلف أبرز من اشتهر بمناعة الكتابة في القرن الثالث وما أثر عنهم من فنون القول المختلفة .

ومنهم من اهتم بالاساليب النثرية كما فعل (أنيس المقدسى) في كتابه "تطور الاساليب النثرية في الادب العربي" عرض المؤلف الاساليب النثرية ليبين تطورها منذ العصر الاسلامي الى العصر الحديث .

وكتاب "الاساليب الادبية في النثر العربي القديم" ل (د. كمال اليازجي) ، وكتاب "النثر الفني وأثر الجاحظ فيه" تأليف (د. عبد الحكيم بلبع) .

على أن بعض الذين عالجوا النثر الفني في هذه الحقبة وما قبلها لم يحيطوا بالنثر الفني احاطة كاملة ، فتناولوا فنا واحدا من فنون النثر الكثيرة مثل (غانم جواد رها) في كتابه "الرسائل الفنية في العصر الاسلامي حتى نهاية العصر الأموي" .

وقد اشتركت هذه الكتب في عدم العناية المفصلة الواقية بهذه الأسر ، وبأثرها الخاص على تطور النثر الفني

كما أن د. مصطفى الشكعة فى كتابه "معالم الحضارة الإسلامية" نوه بهذه الأسر دون أن تظفر منه بأية دراسة كافية .
ولقد رأيت من بين هؤلاء الباحثين من أدرك أهمية دراسة النثر الفنى فى ظل الأسر الأدبية ، وكانت كثيرا فى العمر العباسى ، كما فعل (د. يونس السامرائى) فى كتابه "آل وهب من الأسر الأدبية فى العمر العباسى" .

غير أن هذه الدراسة - رغم جهد المؤلف - يعثرها النقص ، ذلك أنه أهمل المنهج البيانى ، فلم يبد اهتماما يذكر لدراسة النصوص الأدبية ، وإبراز ما انطوت عليه من قيم جمالية وبيانية ، بيد أنه عول كثيرا على المنهج التاريخى وتحقيق النصوص ، ولعل لتخصمه التاريخى أثرا فى دراسته هذه فأتت أشبه بتحقيقات تاريخية ، كما أن البحث ارتعن بأسرة واحدة دون ماعداها .

خطة البحث :

أوجبت على طبيعة الموضوع تقسيمه الى ثلاثة أبواب ، استقلت كل أسرة بباب رغبة فى تحقيق الوحدة الموضوعية لكل أسرة على حدة .

الباب الأول : عن (البرامكة) .

قسمته الى فصول ثلاثة ، تحدثت فى الفصل الأول عن أرومتهم ، وألمحت فيه إلى دورهم السياسى ، ومكانتهم قبل أن يتصلوا بخدمة الدولة العباسية ، وفصلت شيئا من شخصية (خالد بن برمك) عميد هذه الأسرة، لما له من أثر فى تمهيد الطريق لبقية البرامكة لارتقاء المجد السياسى فى العمر

العباسى ، وتطرقت فيه لايضاح اتمالهم بالخلفاء، وعقبت على ذلك بابرار مكانتهم سياسيا ، وأدبيا ، وماقاموا به من توجيه أدباء عصرهم بما قدموه لهم من حوافز مادية ومعنوية ساعدهم فى ذلك وجاهتهم وموقعهم من الدولة .

أما الفصل الثانى : فكان عن البرامكة فى مرآة معاصريهم الأدباء ، قسمته الى شطرين : الاول : البرامكة على مقحقة شعر المعاصرين ، والثانى : البرامكة عند أرباب البيان ، وحملة الأقلام ، وهدفى من إقامة هذا الفصل رؤية آراء معاصريهم الأدباء فى سخائهم وبلاغتهم .. وجملة من سجاياهم .

والفصل الثالث : أوردت فيه نشرهم الفنى ، ومامتاز به من سمات أدبية ، وخصائص فنية .

قسمته على فنون النشر المعروفة ، بدأته برسائلهم ، والحقته بثوقيعاتهم ، فاقوالهم وماانطوت عليها من حكم . وختمته بذكر أبرز ما توصلتُ اليه من نتائج لاحت لى فى ثنايا الدرس .

الباب الثانى : عن (السهليين) .

وقسمته الى ثلاثة فصول أيضا . الاول : أشرت فيه الى العلائق والوشائج الأدبية بينهم وبين البرامكة ، وأثبتت الدراسة دور البرامكة فى رعاية (آل سهل) وتوجيههم ، بإيديهم ، وأعقبته بذكر أرومتهم واتصالهم بالخلفاء ، وتراجم أدبية مختصرة (للفضل بن سهل) و(الحسن بن سهل) ، ومن ثم ابرار مكانتهم الأدبية والسياسية ، وماقاموا به من تشجيع لأدباء عصرهم .

أما الفصل الثانى : فيندرج تحته مبحثان :

(أ) آل سهل والشعراء .

(ب) آل سهل والكتاب .

والفصل الثالث : يبحث فى مآثورهم الفنى ، صنفته حسب

فنون النثر المعروفة ، وأظهرت سماته وخصائصه ، وختمته بما

توصلت اليه من نتائج .

أما الباب الأخير : فقد اختلف شيئا ما عن سابقيه ،

قسمته الى فصول ثلاثة .

الأول : وينقسم الى قسمين :

(أ) تعريف بالأسرة ، وينقسم الى مبحثين :

(١) ذكرت فيه صلات (آل مول) بالأسرتين السابقتين .

(٢) أرومتهم وتمكنهم من الرياسة ، واتمالهم بالخلفاء .

(ب) استطلعت فيه آراء معاصريهم الأدباء فى بلاغتهم

وتمكنهم من ناصية البيان ، ولم أورد نظرة الشعراء فيهم

لندرة ما قيل فيهم شعرا ، ولعل مرد ذلك يعود الى عدم

توليهم للوزارات كما كان حال (البرامكة) و(آل سهل) .

أما الثانى : فجعلته لنثرهم الفنى وسماته .

وعقدت فصلا جديدا لموازنة أدب الكتاب (للمولى) بكتاب

أدب الكاتب (لابن قتيبة) باعتبارهما أهم كتابين ظهرا فى

عصر الأسر الثلاث عن الكتابة ، أصولها الفنية وقواعدها

المرعية ، وهو الفصل الثالث .

المنهج :

أولا : عد الباحث بعض الرسائل التى درسها (اخوانية)

رغم أنها صدرت بأمر الخلفاء أو ولاية العهد ، أو كانت على

السنتهم ، والسبب يعود الى أن مواضيعها اخوانية ، كما فى رسالة (يحيى بن خالد) التى كتبها بأمر (الرشيد) الى ابنه (الفضل) يرشده فيها الى مواطن الصواب ، وعدم اقتراف اللذات والمجاهرة بها .

وكما فى التهانى والتعازى عند (ابراهيم المولى) لأنها كتبت على السنة الخلفاء وولاة العهد .

فهى اخوانية الموضوع رسمية المراسم .

ثانيا : لم أركن الى منهج واحد فى الدرس ، بل عمدت الى الاستعانة بعدة مناهج ، يأتى فى طليعتها المنهج التاريخى ، استعنت به فى بعض مواطن البحث .

واتكأت كثيرا على المنهج البيانى فى استجلاء القيم الادبية والغنية لأعمال الاسر ، ولم أغفل المنهج النفسى فى تحليل بعض النصوص .

كلمة شكر

ختاماً لايسعنى الا أن أشكر (جامعة أم القرى) ممثلة فى
مديرها معالى الدكتور/راشد الراجح ، كما أشكر عميد كلية
اللغة العربية الدكتور/محمد بن مريسى الحارشى .
ولايفوتنى أن أقدم جميل الشكر وعظيم الامتنان لفضيلة
الدكتور/محمود عبد ربه فياض الذى اكتنفتنى بعلمه ، وتولانى
بخلقه ، واحتوانى بعطفه الأبوى ، فكان نعم الأب ونعم
الاستاذ .
كما أشكر كل من قدم لى يد العون من الأساتذة والزلاء
والشكر لله من قبل ومن بعد .
والله الهادى الى سواء الصراط .

التمهيد ثقافة الكاتب

كان قيام الدولة العباسية (١٣٢هـ) ايذانا بطور مهم وجديد من أطوار النشر عموما ، والنشر الفنى خصوصا ، وكانت الدوافع المستكنة والظاهرة وراء الطفرة الكبرى التى وصل اليها تتمثل فى اتساع رقعة الدولة اتساعا عظيما ، ورقى الحضارة العربية الاسلامية رقىا لاتنافسها فيه دولة أخرى من دول العالم آنذاك . (*)

من هذه الحاجة نشط النشر عموما ، والنشر الفنى خصوصا وتطلع الى تجويده والتنافس فيه كثيرون ، ووضعت له الحدود والقواعد ، وألف الأدباء والمشتغلون بالثقافة كتباً عدة ، تطرقت الى ثقافة الكاتب المتنوعة الواسعة ، والى اللغة الصحيحة التى يتوخاها ، والى خط الكاتب والاقلام والمداد ، وما الى ذلك مما يتصل بشئون الكتابة فنا وعلما ورسمًا .

وبينما كان الشاعر يوشك أن ينفرد بالساحة الأدبية الا قليلا ظهر الى جواره الكاتب يطاوله ، بل يحاول زحزحته عن مكانه لولا أن الشعر هو قطب البلاغة العربية ، وميراثها القديم .

(*) لاشك أن للبيئة أثرا جليا فى توجيه الحركة الأدبية والعلمية ، لاسيما فى العصر العباسى هذا العصر الذى اشتمل على ثقافات عدة ، وأجناس عديدة ، ويندر أن تجد مؤلفا يتحدث عن العصر العباسى الا ويورد صفحات عن البيئة العباسية ، مما حدا بها فى النهاية الى التشابه فى معظمها .

راجع : د. حسنى ناعسة ، الكتابة الفنية ص ٢٢ وما بعدها ، د. يوسف عوض ، فن المقامات ص ٢٣ وما بعدها وغيرها الكثير .

لذا فقد تفاوتت مطالب النقاد فى ثقافة الكاتب ، وان اتفقت على شمولية ثقافته ، لعظم موقعه من الدولة ، يقول ابن الاثير :

"ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل : كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه ، فيقال : فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولايسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقال : فلان الكاتب ، وذلك لما يفتقر اليه من الخوض فى كل فن" (١) .

أى أن الكاتب استقل بذاته ، ومار له وضعه المميز عن الشاعر ، فبينما قد يكتفى من الشاعر أن يلم بالثقافة العامة المام طائر يلقي من فوق نظرة على الأشياء لأنه يتحرك من وجدانه ، نرى الكاتب - كما يقول ابن الاثير - مطالباً بالخوض فى كل فن فلا يكتفى منه استلهام الوجدان وحده بل يحتم عليه أن يلبس الواقع ، وألا يترفع عنه حتى أنه يحتاج الى معرفة مايقوله المنادى على السلعة فى السوق ، وأخذ يدافع عن مذهبه ويعلل له ، يقول عقب ذلك :

"والسبب فى ذلك أنه مؤهل لأن يهيم فى كل واد ، فيحتاج أن يتعلق بكل فن ، لأن الحكمة فالة المؤمن ، وقد يستفيدها أهلها من غير أهلها" (٢) .

ويرى ابن الاثير أن الموهبة تأتى فى المقام الاول قبل شمولية الثقافة ، والطبع - عنده - لايمكن الاستغناء عنه ، حتى لو لم بجميع أنواع الثقافة (٣) .

-
- (١) المثل السائر ٤٠/١ .
 (٢) المثل السائر ٧/١ .
 (٣) المثل السائر ٤٠/١ .

مؤهلات الكاتب فى نظر القدامى :

ثم ان القدماء فملوا القول فى مؤهلات الكاتب تفميلا
يزيد من تبعاته ، ووضعوا من القيود والشروط ما لا يمكن
تجاوزها ، ولاتفقوا فيها الا فى من أوتى استعدادا عاليا ،
وقدرة فائقة ، وموهبة ظاهرة .

وهذا ما جعلنا نستنبط بداية أن شخصا ما ، أو أسرة ما
لا يمكن أن تصل الى المكانة المرموقة ، أو تحظى بهذه المنعة
الا بعد جهد جهيد ، واحاطة واسعة بأمول هذا الفن وقواعده ،
فضلا عن عامل الموهبة الذى لا يمكن التغاى عنه .

فصل القدماء القول فيما يجب أن يتوفر عليه الكاتب كي
يميز مؤهلا لاكتساب هذه الصفة وجعلوا منها :

(١) المعرفة باللغة ، والتمكن منها .

وذلك لا يتم الا بعد تمكن الكاتب من نحوها وصرفها ،
وفقه معانيها ودلالاتها المختلفة ، وغريبها ومستعملها
والفصيح منها وغير الفصيح ، وعلم المعانى والبديع ،
وكل ما يمت الى العربية بصلة .

(٢) حفظ القرآن الكريم ، وجملته من الأحاديث النبوية
المطهرة .

(٣) رواية كثير من أشعار العرب ، وخطبهم ، وأمثالهم ...
ليكون قادرا على حلها ، والاقتباس من معانيها ،
والاستشهاد بها ، والتضمين وقت الحاجة .

(٤) والقلقشندي يرى ضرورة معرفة الكاتب بلغة أجنبية ،
كالفارسية مثلا ، ليكون أقدر على قراءة الكتب التى

ترد على الخليفة من الملوك الاعاجم دون ان يطلع عليها
ترجمان ، ومن ثم أقدر على الرد عليها .

(هـ) وجوب المامه بثقافة تاريخية ، وتشمل معرفته :

(أ) أحوال الأمم والشعوب ، وأحوال العرب ووقائعهم ،
ومنها مناظراتهم ، ومنافراتهم ، ومنها أيضا
معرفة أوابد العرب وعاداتهم ، وأسواقهم .

(ب) تاريخ العلوم وممنفاتها ورجالاتها .

(ج) معرفة الوقائع والحوادث الجارية ، ليسهل عليه
ربطها بمعارفه كي تكون ثقافة الكاتب نظرية
وعملية في آن واحد .

(د) المعرفة بالاحكام السلطانية .

هذا مجمل ما ينبغي على الكاتب أن يلم به ، ويفيد منه
ودونه لا يمكن أن يكون له موقع بين الكتّاب، عليه إذن حمل هذه
التبعات الشقال التي تنوء الجبال بحملها ، وبها يصير مخولا
للوزارة وكفئا لها .

هذه الشروط يجب توافرها في كتاب الديوان ، وهي أولى
أن تتوافر فيمن تؤول اليه رياسته ، ويصير عدلا لما نسميه
في عمرنا "وزير الثقافة" بل ان مكانة رئيس الديوان ،
وماكان يناط به من مسئوليات تفوق مكانة وزير الثقافة في
عمرنا ومسئوليياته .

وسأتناول النقاط السابقة بشيء من التفصيل من منظور
مؤرخي هذا الفن ، والمهتمين به ، بادئا باللغة لبنة
الثقافة وأساسها .

(١) اللغة للكاتب كالزاد للإنسان ، وإذا جهل الكاتب لغته فلا يليق به أن يتصف بهذه المفة . يقول القلقشندي :

"ان اللغة رأس مال الكاتب ، وأمن كلامه ، فيحتاج الى طول الباع فيها ، وسعة الخطو ، ومعرفة بسائطها من الاسماء والافعال ، والحروف ، والتمريف في وجوه دلالاتها الظاهرة والخفية ليقتدر بذلك على استعمالها في محالها ...". (١)

فلا عجب اذا رأينا أن جل ماحواه "أدب الكاتب" لابن قتيبة كان يصب في هذا المجرى ، وهذا الكتاب من الاهمية بحيث أنه يمثل الشريان الرئيسي في تكوين ثقافة الكاتب اللغوية ، وقد أشاد به شيوخ ابن خلدون وأقره هو ، وعدوه (٢) من أعمدة الأدب .

وأول ما يفتقر اليه الكاتب من اللغة نحوها ، وهو كما قال ابن الأثير : "بمنزلة أبجد في تعليم الخط" . (٣)

وتعلمه ضرورة ، واتقائه أمر حتمي لا غنى عنه حتى لا يقع الكاتب في اللحن ، وإهماله قد يؤدي بمأخذه إلى الإشراف بالله من حيث لا يعلم كما لو قرأ قوله تعالى : {انما يخشى الله من عباده العلماء} ، فرفع لفظ الجلالة ، ونصب العلماء (٤) لحن فاحش .

ولا يفهم من ذلك اقتصار تعلمه على الكتاب دون غيرهم ، بل ان معرفته شاملة لأهل اللسان ، وذكر الكتاب لأنهم أولى الناس بضرورة اتقائه . (٥)

-
- (١) صبح الاعشى ١٨٥/١ .
 (٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٤، ٥٥٣ .
 (٣) المثل السائر ٤٤/١ .
 (*) سورة فاطر : ٢٨
 (٤) ابن الأثير ، المثل السائر ٤٥/١ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ٢٠٦/١ .
 (٥) ابن الأثير ، المثل السائر ٤٤/١ .

والخلفاء وأهل العلم يحثون على تعلمه ، قال الرشيد
يوما لبنييه : "ماض أحدكم لو تعلم من العربية ما يملح به
لسانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته " .^(١)

ومن كلام مالك بن أنس في الحث على تعلمه ، قوله :
"الاعراب حلى اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حليها " .^(٢)

وقال الحسن بن يسار البصري في ذلك شعرا :
النحو يبسط من لسان الألفن

والمرء تكرمه إذا لم يلحن

وإذا طلبت من العلوم أجلها

^(٣)
فأجلها عندي مقيم الألسن

واتقان النحو يستلزم الإلمام بمشاهير العربية كأبي
الأسود الدؤلي ، وسيبويه ، وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين
وكذلك أسماء كتبهم المشهورة في هذا الفن من المبسوطات
والمختصرات ، وسعرفة مصطلحاتهم .^(٤)

وعلى هذا كانت منزلة النحو من الكاتب ومن الكتابة ،
فهو كاللسان للإنسان من بين أعضاء الجسم .

وإذا ذكر (النحو) استدعت الذاكرة (الصرف) ، غير أن
أهمية الصرف للكاتب تقل شيئا عن أهمية النحو له ، يقول
ابن الأثير في ذلك :

"اعلم أنا لم نجعل معرفة التمرير كمعرفة النحو ، لأن
الكاتب أو الشاعر إذا كان عارفا بالمعاني ، مختارا لها ،

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ٢٠٥/١ .

(٢) المصدر السابق ٢٠٥/١ .

(٣) المصدر السابق ٢٠٦/١ .

(٤) المصدر السابق ٢١٢/١ .

قادرًا على اللفاظ ، مجيدا فيها ، ولم يكن عارفا بعلم النحو ، فانه يفسد ما يصوغه من الكلام ، ويختل عليه ما يقدمه من المعانى وأما التصريف فانه اذا لم يكن عارفا به لم تفسد عليه معانى كلامه ، وانما تفسد عليه الأوزاع ، وان كانت المعانى صحيحة ... " (١)

ومن شئون العربية (الغريب) فيلزم الكاتب معرفته ، وفائدة ذلك تجنب مواقع الحرج فى مجالس العلماء والخلفاء ، وبجهله يعرض نفسه للؤم ، اذ لايجدر بكاتب يفترض فيه اتقائه دقائق اللغة وأسرارها أن يجهل معنى كلمة وردت فى كتاب . يقول القلقشندى فى بيان أهميته ، ومواطن الافادة منه :

"وذلك أن مزار الكتابة على استخراج المعانى من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية والشعر ، والفاظها لاتخلو من الغريب ، بل ربما غلب الغريب منها فى الشعر على المألوف لاسيما الشعر الجاهلى" (٢)

وقبله ابن قتيبة يحث الكاتب على طلبه ، ومعرفته ، تجنباً للحرج ، يقول فى حال كاتب لم يتعب نفسه فى الأخذ بأسبابه :

"وأى موقف أخزى لمأخذه من موقف رجل من الكتاب ، اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتفاه لسره ، فقرأ عليه يوما كتابا ، وفى الكتاب "مطرنا مطرا كثر عنه الكلا" فقال له الخليفة وما الكلا ؟

فتردد فى الجواب ، وتعثرت لسانه ، ثم قال : لا أدري ،

(١) المثل السائر ١/٤٨، ٤٩ .

(٢) صبح الأعشى ١/١٨٦ .

(١)

فقال : سل عنه " .

فجهله الغريب أنقص من منزلته ، وعابه ، ولو أجهد نفسه فى تتبعه لما وقع فى الحرج ، ولكنه على رأى ابن قتيبة فى وصفه وفى وصف من هم على شاكلته "قد استطابوا الدعة ، واستوطنوا مركب العجز ، وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكير ، حين نالوا الدرك بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلة " ثم تزداد شائرة غمبه عليهم حتى تبلغ الذروة يقول : "ولعمري كان ذلك فئین همة النفس ؟^(٢) وأين الألفة من مجانسة البهائم ؟" .

وأخذ يسرد بعض المواقف لكتاب جهلوا الغريب فيلومهم أشد مايكون اللوم ، ويدفعهم الى النظر فيه دفعا .. ولعل مثل هذه المواقف هى التى رغبتة فى تأليف "أدب الكاتب" أو على أقل تقدير كانت دافعا قويا له فى انشائه . ولايفهم مما قدمته الحث على استعماله وزيادة التعلق به ، ولكنه دعوة الى معرفته ، ليجذب الكاتب مواطن الحرج الناتج عن جهله .

ويأتى فى مقابلة (الغريب) (المستعمل غير المبتذل) وهى من طرائق التعبير المحببة الى النفس ، تدل على فطنة صاحبه ، وتعايشه مع الواقع اذ يعاب الكاتب باستعماله ألفاظا حوشية ، يؤكد هذا قول ابن قتيبة :

(٣)

"ونستحب له أن يدع فى كلامه التعيير والتعقيب" .

(١) أدب الكاتب ص ٧،٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢ .

ولا يزال ابن قتيبة ينفّر من (الغريب) وتعقيد الكلام ،
 ويعيب على من يستعين بهذا النهج في كتاباته ، كنقده لمن
 كتب "غضب عارض ألم ألم فأنهيته عذرا" ، فيعيب أسلوب الرجل^(١)
 ويقول : "وكان لا يشاق في كتابته إلا بتركه سهل اللفاظ ،
 ومستعمل المعاني"^(٢) .

ونخلص من هذا كله الى ضرورة معرفة الكاتب بالغريب
 وتجنبه ، أو أن العبرة في ذلك ما أشار به البلاغيون من
 رعاية المقام وحال المخاطب ، فلا مخاطب عامة القراء بما
 يخاطب به خاصتهم ، أو العكس على أن البيئة والزمن هما
 اللذان يحددان غرابية الكلمة من عدمها ، فما كان مأنوسا
 مستعملا قبل قرن من الآن قد يتحول بفعل الزمن الى غريب في
 زمننا هذا .

وعلم (البيان ، والمعاني ، والبيديع) من علوم
 العربية التي يحتاجها الكاتب ، توصلا الى فهم الخطاب ،
 وانشاء الجواب ، ومن ثم تبرز قدرته في توظيفها ،
 والاستعانة بها ، وهذه العلوم من الاهمية بحيث جعل العسكري
 مرتبة معرفتها تأتي بعد معرفة الله سبحانه وتعالى^(٣)
 مباشرة .

ويقول العسكري في موطن آخر ، ليجلى أهمية هذه العلوم
 وغيرها من علوم العربية وفضل من امتلك أدواتها وأجادها ،

(*) ذكر الجواليقي ص ٣٥ أن اسم هذا الكاتب أحمد بن شريح
 من أهل مرو .

(١) أدب الكاتب ص ١٤ .

(٢) أدب الكاتب ص ١٤ .

(٣) المناعتين ص ٩ .

ونقص من أخل بها ، وأغفلها ، فهو ينحو منحى الترغيب تارة والترهيب أخرى .

"ان صاحب العربية اذا أخل بطلبه ، وفرط فى التماسه ففاته فضيلته ، وعلقت به رذيلة قوته ، عفى على جميع محاسنه ، وعمى عن سائر فضائله ، لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردى ، ولفظ حسن ، وآخر قبيح ، وشعر نادر ، وآخر بارد ، بان جهله وظهر نقصه ، وهو ايضا اذا أراد أن يمنع قصيدة ، أو ينشئ رسالة ، وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحش العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل" ^(١) .

ولأبرح هذه النقطة حتى أؤكد أن اللغة بكل فنونها ومشمولاتها هي عدة الكاتب ووسيلته ، يجب أن يلم بدقائقها ، ويعى أسرارها ، فكما لا أتصور مقاتلا دون سلاح فى ساحة المعركة ، كذلك لا أتصور كاتباً بمعزل عن اللغة .

(ب) الرافد الثانى فى بناء ثقافة الكاتب (حفظ القرآن الكريم ، وطائفة من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم) .

وحفظ (القرآن الكريم) البيئة الأولى فى تكوين ثقافة الكاتب المسلم ، ولاريب فى أن بحره الزاخر ملئ بآلىء الكلام ودرره .. يستطيع الكاتب البارع أن يفيد من أساليبه ، وتراكيبه ، وألفاظه ، وكل مناحيه الكثيرة ، وبه تزددان كتابة الكاتب ، وتعلو منزلتها ، ويتامل أسلوبه ، ويفخم ، لنسمع ابن الأثير شارحا فوائد الاعتماد على القرآن

"فان صاحب الصناعة ينبغي له أن يكون عارفاً بذلك ، لأن فيه فوائد كثيرة ، منها أنه يضمن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها ، ومواضيعها المناسبة لها ، ولاشبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق ، ومنها أنه اذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذ بحراً يستخرج منه الدرر والجواهر .. وكفى بالقرآن وحده آلة وأداة في استعمال أفانين الكلام" (١) .

(الاستكشاف من حفظ الأحاديث النبوية) .

وهي مرتبطة بحفظ القرآن الكريم ، وامتمة له ، على الكاتب مداومة النظر فيها ، والتشبع بأفانين كلامها ، وجزالة أساليبها وألفاظها ، وابن قتيبة في "أدب الكاتب" يحث على حفظ الأحاديث التي تتعلق بالفقه وأحكامه فحسب ، وضرب لذلك مثلاً بقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : "البيضة على المدعى ، واليمين على المدعى عليه ، والخراج بالضمان" (٢) .

وجرح العجماء جبار ... " .

ولعل نظرة ابن قتيبة كانت قاصرة ، لذا نجد القلقشندي ينتقده في ذلك ، لأنه يرى أن حاجة الكاتب لاتختص بأحاديث الأحكام ، ودلائل الفقه ، بل تتجاوزها الى ما هو أعم وأشمل خصوصاً الأحاديث التي اشتملت على الحكم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة ، والاقتباس من معانيه ، وما ذهب اليه الأخير أنفع للكاتب وأجدى .

(١) المثل السائر ١/٧١، ٧٢ .

(٢) أدب الكاتب ص ١١٠، ١١١ .

(٣) صبح الأعشى ١/٢٤٤-٢٤٦ .

وزيادة على ذلك يجب أن يلم الكاتب بأقسام الحديث كالصحيح والحسن والمرفوع ، وكذا معرفة الرجال ومشاهير المحدثين كالبخارى ومسلم وغيرهما .^(١)

(ج) اللبنة الثالثة هى (رواية كثير من أشعار العرب وخطبهم ، وأمثالهم بالإضافة الى الاطلاع على مكاتبات من سبقهم) .

وهذا الرافد فى تكوين ثقافة الكاتب من أهمها لميلته القوية بصنعة الكتابة .

واقادة الكاتب من حفظ الشعر أكثر من أن تحصى ، يقول القلقشندى فى وجه الافادة منه :

"واذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ الاشعار ، وتدبر معانيها ساقه الكلام الى ابراز ذخيرة ما حفظه منها فاستعملها فى محلها ، ووضعها فى أماكنها على حسب ما يقتضيه الحال فى ايرادها ، واقتباس معانيها" .^(٢)

ومن أوجه الافادة أيضا ، الاستشهاد به لتوكيد غرض الرسالة الرئيسى ، مما يزيد أسلوب الكاتب رونقا ، واقتناعا يقول الكلاعى فى "احكام صنعة الكلام" :

"وكان المجيد كثيرا ما يضمن فى رسائله أشعاره ، وأشعار غيره ، فكان اذا ضمن أشعاره يوافق بين قافيتها وبين السجع الذى قبلها ، ليعلم بذلك أن الشعر له ، وكان اذا ضمن أشعار غيره خالف بين السجع والقافية وهذا حسن يجب أن يمثله من أراد احكام صنعة الكلام" .^(٣)

(١) صبح الاعشى ١/٢٥٢، ٢٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ١/٣٢١ .

(٣) احكام صنعة الكلام ص ٧١، ٧٢ .

وكثير هذا المنحى فى كتابات (الاسر) ، وبالذات عند يحيى بن خالد من البرامكة ، وعند ابراهيم بن العباس من آل مولى ، وان لم يتقيدوا بقوانين الكلاعى فى توافق السجع مع القافية أو تخالفهما لاثبات الشعر للكاتب من عدمه .

أما حفظ نماذج من خطب البلغاء فان ذلك يقرب الكاتب من اجادة فن الكتابة واتقانها لتشابههما وتداخلهما يقول العسكرى فى ايضاح أوجه الشبه بين الرسائل والخطب :
 "والرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا من جهة اللفاظ والفواصل ، فالفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ... والفرق بينهما أن الخطبة يشافه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة ،
 (١)
 والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كلفة " .

وذكر القلقشندى ومن قبله الجاحظ فى "الببيان والتبيين" خطبا كثيرة لكثير من البلغاء ، وذلك ليغرف من بحرهما من أراد التوصل الى الغاية ونيل البغية من الكتاب .
 النظر فى الأمثال .

وهى من الاهمية بحيث لا يمكن للكاتب تجاهلها .. لأنها تمثل زبدة تجارب الأمم والشعوب ، وموقعها عظيم عند النقاد والأدباء ، يقول ابن عبد ربّه فى "عقده" عن موقعها بين الفنون الأدبية :

"والأمثال هى وشى الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلى المعانى والتسى تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها فى كل

زمان ، فهى أبقى من الشعر ، وأشرق من الخطابة لم يسر شئ
كسيرها ولاعم عمومها - حتى قالوا : أسير من مثل - وقد ضرب
الله تعالى الأمثال فى كتابه ، وضربها رسوله صلى الله عليه
(*) (١)
وسلم فى كلامه . قال عز وجل : { وضرب الله مثلا رجلين } " .

وقد أورد القلقشندي كثيرا من أمثال العرب القدامى
(٢)
والمحدثين من عصره ، بغية الاطلاع عليها .

ويضيف ابن الأثير الى ثقافة الكاتب ، ضرورة معرفة
أيام العرب ووقعاتهم ويقرنها بالأمثال لتشابههما فى
(٣)
الاستشهاد بهما .

ومن أولى مايجب على الكاتب الاطلاع عليه (حفظ جانب
جيد من مكاتبات الصدر الأول) وهى تشخذ القريحة ، وتذكى
الفطنة ، وتفتح أمام الكاتب آفاقا من الرؤية ، وتفيده فى
معرفة الأساليب التى كانت شائعة ، ويستكشف التباين بين
الأساليب فى عصورها المختلفة ، بإضافة الى مايتشبع به من
المعانى كما يقول ابن الأثير :

"واذا كان صاحب الصناعة عارفا بها تصير المعانى التى
ذكرت ، وتعب فى استخراجها كالشئ الملقى بين يديه ، يأخذ
(٤)
منه ماأراد ، ويترك ماأراد " .

يعنى يأخذ مايريد ، ويترك ما لايريد .

ومن أبرز الكتب التى جمعت بين دفتيها الكثير من
نماذج المكاتبات فى الصدر الأول كتاب "مجموعة الوثائق

(*) سورة النمل : ٧٦

(١) العقد ٣/٣ .

(٢) مبح الأعشى ٣٤٨/١ ومابعدها ، ابن الأثير ، المثل
السائر ٦٢/١ ومابعدها .

(٣) المصدر السابق ٦٣/١ .

(٤) المصدر السابق ٦٩/١ .

السياسية " لمحمد حميد الدين ، فقد أورد مكاتبات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومكاتبات الخلفاء من بعده .
(د) ومن الأمور المهمة فى بناء ثقافة الكاتب (معرفته بلغة أجنبية) .

وأول من حث الكتاب الى تعلم اللغات هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد حث كاتبه زيد بن ثابت رضى الله عنه على تعلم اللغة السريانية .^(١)

فهى اذا مطلب دينى قبل كل شئ ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى يقول : "من تعلم لغة قوم أمن مكرهم" .
وغير خاف أن التبعات الملقة على عاتق الكاتب تتزايد بحسب موقعه من الدولة ، والقلقشندى يرى ضرورة معرفة الكاتب بلغة أجنبية ، وهو ملمح ذكى يرمى الى المسؤوليات الجسيمة لكاتب الدولة بعد أن ترامت أطرافها ، وتعددت الاجناس فيها .

ولم أعهد أحدا من المهتمين بثقافة الكاتب ممن كان قبل القلقشندى كابن الاثير ، وابن قتيبة ، والمولى مثلاً قد أولاهما اهتماماً كما فعل صاحب "صبح الاعشى" .

وشمرة معرفة الكاتب للغة أخرى كثيرة منها ، تجنيب الخليفة الوقوع فى الحرج فقد ترد عليه كتب فى غاية السرية لاينبغى أن يطلع عليها ترجمان ، فان كان الكاتب محيطاً بلغة الكتاب كان أدعى الى حفظ السر وكتمانه ، ويكون بالتالى أقدر على انشاء كتاب الرد .

(١) انظر : السترمذى ، السنن (مطبوع مع تحفة الاحوذى) ٤٩٧/٧ ، أحمد بن حنبل ، المسند ١٨٦/٥ ، صبح الاعشى ٢٠٢/١ .

(هـ) الرافد الرابع (المام الكاتب بثقافة تاريخية)
وتشمل :

١ - أحوال الأمم والشعوب ، وأحوال العرب ووقائعهم ..
ومنهما مفاخراتهم ومنافراتهم ومنها أيضا معرفة
أوابد العرب ، وعاداتهم ، وأسواقهم .
٢ - تاريخ العلوم ، وممنفاتها ، ورجالها .
وأوجه افادة الكاتب من المفاخرات وماشاكلها كثيرة
منها ، زيادة معرفته بمن نبغ من العرب ، ومن تبوأ مكانة
سامية بينهم ، وذلك أن التفاخر لا يكون الا بين عليا القوم ،
ومن المشين جهل الكاتب بأولئك .

أما معرفة أوابد العرب ، وعاداتهم ، وأسواقهم ،
فتندرج تحت باب العلم بالشئ ، وشمولية الثقافة ، اذ يزيد
من مكانة الكاتب ويرفع من قيمته العلم بها ، ولا يخفى أن
الكاتب اذا ألم بأحوال المتقدمين وسيرهم وأخبارهم
وأسواقهم ومافى حكمها ، صار عنده علم بما لعله يسأل عنه
فيكون أقدر على الإجابة وأقدر على الاستشهاد بها ، وإيرادها
فى موضعها من رسالته حين تدعو اليها الحاجة ، وهى من تمام
ثقافة الكاتب .

ويدخل فى ثقافة الكاتب التاريخية ، معرفته بخزائن
الكتب ، وأنواع العلوم والكتب الممنفة فيها ، وأسماء
الرجال المبرزين .

(و) ومن أسس ثقافة الكاتب عند النقاد (معرفته بالأحكام
السلطانية) .

وهى من أولى مايجب على الكاتب الإحاطة به ، وذلك يعود

لقرب الكاتب من السلطان .. وقد حذر ابن الاثير من مغبة جهل
الكاتب بالاحكام السلطانية .

فما عساه أن يكتب عن شيء جهله ، يقول :

"واذا لم يكن الكاتب من ذلك عارفا بالحكم فى هذه
الحادثة ، واختلاف أقوال العلماء فيها ، وما هو رخصة فى ذلك
(١)
وماليس برخصة لا يكتب كتابا ينتفع به " .

يشير ماسبق الى القواعد التى يلتزم بها كتاب الديوان
بعمامة فى نظر النقاد ومن عنوا بصناعة الكتابة فى العصر
(*)
الذى نحن بصدد من تاريخ الاسر الثلاث .

وقد ظلت هذه القواعد مرعية منهم ما استمر ديوان
الإنشاء فى أداء وظيفته للدولة .

ولاريب أن هذه القواعد المتنوعة الشاملة لايتسنى
الاحاطة بها ، وهفمها وتمثلها الا لمن اجتمعت له قوة المبر
والمثابرة والاستعداد ، ومعها جميعا الموهبة ويتفاضل من
تتوافر لهم هذه المقومات بمقدار حظوظهم منها .

أما التاريخ فيقول : أن الاعاجم - لاسيما الفرس منهم -
الذين دخلوا فى خدمة الدولة العباسية من باب الثقافة
والكتابة قد حفظوا من القرآن ومن الحديث ، وألموا من
أشعار الجاهليين وأخبارهم ماوقفهم على أسرار العربية ،

(١) المثل السائر ٧٠/١ .

(*) ولك أن ترى نظرة الكتاب الكبار ومطالبهم تجاه ثقافة
الكاتب وخلقه ممثلة فى رسالة عبد الحميد الكاتب
ص ٣١٣، ٣١٢ من بحثنا ، ومايراه الحسن بن سهل فى ذات
الغرض ص ٢١٩-٥٢٠ من بحثنا أيضا ، وكلها تصب فى نفس
الناء ، وان اهتم بالنواحي الخلقية مع شمولية
الثقافة .

ودقائقها وجمالها .. فبرعوا فيها تأليفا وكتابة وإنشاء ..
فاذا أضفنا الى ذلك مزاجهم الخاص وثقافتهم الفارسية
توقعنا أن يكون لنا من المزاجين ، ومن مركب الثقافتين
- العربية والفارسية - مزاج جديد ، على الرغم من سيادة
المقومات والعناصر العربية ، ومن غلبة الثقافة العربية
الاسلامية .

ان هذا التوقع لايجعلنا فى أمانة من اصدار الحكم
الصحيح قبل الاحاطة بخبر الأسر الفارسية التى تولت امرة
الكتابة للدولة فى ديوان الانشاء وفى طليعتهم (البرامكة ،
وآل سهل ، وآل صول) .

الباب الاول

البرامكة (١٣٢ - ١٨٧هـ)

الفصل الاول : تعريف بالاسرة ويشمل :

- (أ) أرومتهم
- (ب) عميد الاسرة (خالد بن برمك)
- (ج) اتمالهم بالدولة العباسية
- (د) مكانتهم السياسية
- (هـ) مكاتبتهم الادبية
- (و) تأثيرهم على أدباء عصرهم

الفصل الثانى : البرامكة وأدباء الجيل ويشمل :

- (أ) البرامكة فى مرآة الشعر وما قيل فيهم
١ - مدحا ٢ - أو قدحا ٣ - أو رثاء
- (ب) آراء معاصريهم من الكتاب وغيرهم فى :
١ - بلاغتهم ٢ - تسامحهم ٣ - سخائهم

الفصل الثالث : نشرهم الفنى ، وسماته ويشمل :

- ١ - رسائلهم
- ٢ - توقيعاتهم
- ٣ - أقوالهم وحكمهم

خاتمة : أبرز ما توصلت اليه الدراسة من نتائج هذا الباب .

الفعل الأول

تعريف بالأسرة ويشمل :

(أ) أرومتهم

(ب) اضاءة شخصية عميد الأسرة (خالد بن برمك)

(ج) اتصالهم بالدولة العباسية

(د) مكانتهم السياسية

(هـ) مكانتهم الأدبية

(و) تأثيرهم على أدياء عصرهم

(١) أرومتهم .

قبل إبراز ما تمتعت به هذه الأسرة - فى ظل عزها ومجدها - فى الدولة العباسية ، يرى الباحث القاء الضوء على ماضيها لنستكشف حظها من الريادة والرياسة ، وإلى أى مدى بلغت فى ذلك .

هى أسرة تنتمى إلى الأهل الفارسي . عُرفت بمكانتها وقدرها قبل التحاقها بالدولة العباسية ، وتنسب إلى كبيرها (برمك) .

اشتهر برمك وبقيّة أسرته بسدانة (الزوبهار) ، وهى من الأعمال الجليلة عند الفرس ، لذا كان برمك عظيم المقدار (١) عندهم .

ومن هذا نفهم أن ديانتهم كانت المجوسية ، إلى أن فتح المسلمون فارس ، والسؤال هل أسلم برمك بعد ذلك أم لا ؟ ابن خلكان لا يعلم شيئاً عن حقيقة إسلامه . (٢)

غير أنى عثرت على نص قد يحسم هذا الأمر، ويقرر عدم إسلامه ، يقول الحموى فى معجمه : أن أم برمك هربت به صغيراً إلى بلاد القشمير من بلاد الهند ، فنشأ هناك وتعلم الطب والنجوم ، وأنواعاً من الحكمة وهو على دين آبائه ، ثم أن أهل بلده أصابهم طاعون ووباء فتشاءموا بمفارقة دينهم ودخولهم فى الإسلام ، فكتبوا إلى برمك حتى قدم عليهم ، فأجلسوه فى مكان آبائه وتولى (الزوبهار) . (٣)

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٢١٩/٦ .

(٢) المرجع السابق ٢١٩/٦ .

(٣) معجم البلدان ٣٠٧/٥ .

فالحموى بنصه هذا أكد عدم اسلامه ، ويذكر في موقع آخر
أن لفظة (برمك) ليست اسم شخص ، إنما هي صفة عامة تطلق على
كل من يقوم على سدانة (النوبهار) ^(١) .
وإن صح ماذهب اليه ياقوت ، فلايمنع من أن يكون هذا
النعت صار اسماً لبرمك رأس هذه الاسرة .

(١) معجم البلدان ٣٠٨،٣٠٧/٥ .

(ب) عميد أسرة البرامكة .

(خالد بن برمك) كان ذا شخصية قيادية ، فرض نفسه على الساحة الأدبية والسياسية فى بداية نشوء الدولة العباسية . وباعتباره رجل البرامكة الأول ، ومقام به من دور تاريخى فى تمهيد الطريق لآسرته ، وتسهيل الأمر عليهم فى خدمة الدولة العباسية حقبة من الزمن ليست بالقصيرة ، لهذه الاعتبارات كان لابد من اضاءة بعض جوانب شخصيته ، ورسم صورة مقربة له اعتمادا على أهم ملامح هذه الشخصية .

قبل البدء فى هذا ، ينبغى أن أشير الى أنه أول وزير من آل برمك ، هذا ما ذكره البغدادي فى كتابه ^(١) .

وان لم يكن أول وزير فى الدولة العباسية ، لانه ولى الوزارة بعد أبى أيوب سليمان بن مخلد المورىانى .

يؤيد ما ذهب اليه قول ابن حبيب الكوفى ، بعد مقتل المورىانى :

قد وجدنا الملوك تحسد من أمـ
طته طوعا أزما التدبير
فاذا مارأوا له النهى والامـ
سر أتوه من باسهم بنكير

(١) خزانة الادب ١/٥٤٢ ، ط/بلاق .

(*) شرب الكأس بعد حفص سليم
(**) مان ودارت عليه كف المدير

ونجا (خالد بن برمك) منها
اذ دعوه من بعدها بالامير

أسوأ العالمين حالا لديهم
(١) من تسمى بكاتب أو وزير

غير أن النص السابق يدل على أن خالد بن برمك كان
يعمل عمل الوزراء لكنه لا يسمى وزيرا ، وكان يدعى بالامير ..
"اذ دعوه من بعدها بالامير" .

ويزيد في تأكيد هذا النص ، قول ابن طباطبا :
"كان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرا
تطيرا مما حمل لأبي سلمة الخلال . قيل ان كل من استوزر بعد
أبي سلمة كان يتجنب أن يسمى وزيرا ، تطيرا منها لقول من
قال :

(٢)
ان الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشاك كان وزيرا
لقد طلق نجم خالد بن برمك يتالق بثبات واطراد بسبب
تكوينه وتنوع مواهبه .

قال المسعودي عنه :

(*) هو حفص بن سليمان الهمداني الخلال ، أبو سلمة ، أول
من لقب بالوزارة في الاسلام ، وهو أول وزير لأول خليفة
عباسي ، وكان يقال له وزير آل محمد . وقتل غيلة ،
قيل ان السفاح دبر قتله لميله لآل علي ، وقيل أبو
سلمة الخلال قتله لشحناء بينهم .

الاعلام ٢٦٤/٢ .
(**) سليمان بن مخلد المورياني الخوزي ، أبو أيوب ، من
وزراء الدولة العباسية في العراق ، ت ١٥٤هـ .

الاعلام ١٣٥/٣ .
(١) ابن طباطبا ، الفخرى في الاحكام السلطانية ص ١٧٦ .
(٢) الفخرى في الاحكام السلطانية ص ١٥٦ .

"لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده ، فى جودة رأيه ، وبأسه ، وجميع خلاله ، لايحى فى رأيه ووفرة عقله ، ولا الفل فى جوده وبراعته ، ولا جعفر فى كتابته وفصاحته ، ولا محمد بن يحيى فى سروره وبعد همته ، ولا موسى بن يحيى فى شجاعته وبأسه " .^(١)

بهذا الاستهلال أبدا فى رسم صورة لعميد أسرة البرامكة معتمدا فى ذلك على أهم معالم شخصيته وسماتها ، مستعرضا النقاط التالية :

- (١) بلاغته وفصاحته وأعجاب السفاح بها .
- (٢) صانعه عند الخلفاء من مكانة رفيعة لسداد رأيه ، وحسن مشورته ، ومدق نصحه .
- (٣) ذكائه وفطنته .. يمثلها قصته مع جيش قحطبة .
- (٤) تواضعه ، واحترامه للرجال ، وتحويله للمصطلح المتداول من السؤال الى الزوار .

(١) فصاحة خالد بن برمك كانت السبب المباشر فى إعجاب السفاح به ، والسبيل الى تعلق نجمه ، والمعود على مدارج الشهرة هو وسائر أسرته .

وكان هذا أول اتصال بين البرامكة والدولة العباسية . وتم ذلك بعد استخلاف السفاح اذ رأى خالدا وأعجبته فصاحته ، وظنه من العرب ، فقال : ممن أنت يرحمك الله ؟ قال : من العجم ، أنا خالد بن برمك ، وإنى وأهلى فى موالاتكم ، والجهاد لكم ، فأعجب به أبو العباس ، وأقره على ما كان يتقلده من الغنائم ، ثم جعل اليه بعد ذلك ديوان

(١) مروج الذهب ٣/٣٧٧ .

(١)

الخراج ، وديوان الجند ، فكش حامده ، وحسن تدبيره " .
 هذه هى السمة الاولى التى قربتهم من الخلفاء ، سمة
 الفصاحة وحماقة العقل ، ويغلب على الظن أنها لم تكن
 المبادرة الاولى أو الوحيدة التى استلقت الخليفة عبد الله
 السفاح فلعل أن تكون سبقتها بوادر لم يقيد بها المؤرخون ،
 فمع أن الخليفة - بطبيعته العربية حاضرا البديهة ، متقد
 الذكاء ، فإنه باعتباره أحد العمدة التى قامت عليها الدولة -
 لا يأتى بتقريب من لا يثق به ، ويضمن لكفايته بمثل هذه
 المبادرة التى سجلها نص المسعودى ، على أن البرمكى كان
 يتقلد أمر الغنائم كما يظهر من النص .

(٢) وقد نال حظوة رفيعة عند الخلفاء .

قيل ان السفاح قال له يوما : يا خالد ما رضىت حتى
 استخدمتنى . فزع خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا
 عبدك وخادمك ؟! فضحك ، وقال : ان ريطه ابنتى تنام مع
 ابنتك فى مكان واحد فأقوم بالليل فأجدهما قد سرح الغطاء
 عنهما فأرده عليهما .

فقبل خالد يده ، وقال : مولى يكتسب الاجر فى عبده

(٢)

وأمتة .

فهذه الواقعة مع وجازتها تنبئ بما آلت اليه مكانة
 خالد فى نفس الخليفة ، وهى المنزلة التى توارثها البرامكة
 من بعده ، فابنة البرمكى تنام مع ابنة الخليفة فى فراش

(١) محمد بن عبد الله القضاعى ، المعروف بابن الأبار ،
 أعتاب الكتاب ص ٦٥ ، ٦٦ ، الجهمشيارى ، الوزراء والكتاب
 ص ٨٩ ، ط/الاولى .

(٢) ابن طباطبا ، الفخرى فى الاحكام السلطانية ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

واحد ، ويتفقد هما الخليفة بنفسه فى بعض الوقت ، وأى مكانة
أعلى من هذه نالها غير البرامكة ؟
والخليفة يمازح خالدا ، ويكاشفه بما وقع ، ولولا
منزلة خالد عند الخليفة لما مازحه .

ويوحى الموقف - كما رواه الفخرى - بأن الثقة التى
كسبها خالد من الخليفة لم تحدث بغتة ، بل وصل اليها
بإظهار الاخلاص فيما يوكل اليه ، وبحسن التأقلى فى الخطاب ،
وبقدر كبير من الدهاء الذى يتقنه أصحاب العقول الراجعة .
وأيا ما يكون فالمنزلة الرفيعة التى اعتلى درجاتها
خالد بن برمك لم تأت من فراغ ، فالرجل قد تحلى بجملته من
محاسن الرجال الافذاذ ، ومنها على سبيل التمثيل سداد رأيه
ومصدق نمحه ، اللذان تنم عنهما مشورته للمنصور لما أقدم
على هدم إيوان كسرى .

يقول ابن طباطبا :

"لما بنى المنصور مدينة بغداد عظمت النفقة عليه ،
فأشار عليه أبو أيوب الموريانى بهدم إيوان كسرى ،
واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن برمك فى ذلك ،
فقال : لاتفعل ياأمير المؤمنين ، فانه آية الاسلام ، فاذا
رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لايزيله الا أمر سماوى ،
وهو مع ذلك مصلى على بن أبى طالب عليه السلام ، والمؤنة فى
نقضه أكثر من نفعه .

فقال له المنصور : أبيت ياخالد الا ميلا الى العجمية !
ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدمت منه ثلثة ، فبلغت النفقة
عليها أكثر مما حصل منها ، فأمسك المنصور عن هدمه . وقال
ياخالد قد مرنا الى رأيك وتركنا هدم الايوان .

قال : يا أمير المؤمنين أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث
الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك ، فأعرض عنه وأمسك عن
هدمه ^(١) .

لم يشر خالد الى عدم الهدم دون ابداء أسباب ، بل انه
أشار الى انعدام الجدوى لما يكلف الدولة من المئونة أكثر
مما سيعود عليها ، وفي ذلك خسران على خزانة الدولة ،
واستنزاف لما فيها من أموال ، بالإنفاذ الى ابراز عظمة
الاسلام وقوته في ابقاء هذا المعلم ، فيراه الناس ، فيعلموا
أن المسلمين بناسلامهم أقوى من أي بناء وان عظم .

هذه المشورة الموحية باخلاص النصح ما هي الا ملمح من
الملامح التي امتاز بها الرجل ، وقد كان محققا فيما ذهب
اليه والا لما كف الخليفة عن الهدم ، وعاد الى مشورة خالد
الأولى .. بهذه العقلية الناضجة أفلح ونال مكانة رفيعة في
نفوس الخلفاء .

(٣) أما عن ذكاء خالد ، وفطنته فهما من سماته البارزة
(*)
وتمثلهما قمته مع جيش قحطبة .

اذ كان واحدا من أفراد الجيش وكان الجيش في وقت راحة
يقول الجاحظ :

(١) ابن طباطبا ، الفخرى في الأحكام السلطانية ص ١٥٧ ،
وفي مروج الذهب ٢٥٩/١ تنسب القصة الى يحيى بن خالد ،
والرشيد ، وأن يحيى هو الذي أشار الى الرشيد بعدم
الهدم .
(*) قحطبة بن شبيب الطائي ، صاحب أبا مسلم الخراساني ،
وكان شريكه في اقامة الدعوة العباسية في خراسان ،
وقاد جيوش أبي مسلم ، وكان مظفرا ، غرق في الفرات
سنة ١٣٢هـ حين ابتدأت الخلافة العباسية .
الأعلام ١٩١/٥ .

"فنظر خالد الى المحراء ، فرأى أقاطيع الظباء قد
أقبلت من جهة المحارى ، حتى كادت تخالط العسكر ، فقال
لقحطبة أيها الأمير ، ناد فى الناس :

"ياخيل الله اركبى" فان العدو قد حث اليك السير ،
وغاية أصحابك أن يسرجوا ويلجموا قبل أن يروا سرعان الخيل
فقام قحطبة مذعورا ، فلم ير شيئا يروعه ، ولم ير غبارا
فقال لخالد : ماهذا الرأى ؟

قال : أيها الأمير لا تشاغل بى وبكلامى ، وناد فى الناس
أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت ، فارقت مواضعها حتى خالطت
الناس ؟ ان وراءها جمعا عظيما !

قال : فوالله ما أجموا ، وأسرجوا ، حتى رأوا ساطع
الغبار ، ولاتلبسوا وتسلاحوا حتى رأوا الظليعة ، فما
التأموا حتى استوى أصحاب قحطبة على ظهور خيولهم ولولا نظرة
خالد بن برمك وفراسته ، لقد كان الجيش اصطلم^(١) .

ونتمور ما كان قد حل بهذا الجيش ، لولا قدرة الله ثم
فطنة خالد وفراسته ، انها ملمح من الملامح التى تكون هذه
الشخصية الفذة ، لقد أنقذ بفراسته جيشا من هلاك ، وحسبه أن
تروى له هذه الواقعة ، فتشيع بين الناس ، وتؤكد منزلته
فى دار الخلافة .

(٤) ومن معالم هذه الشخصية التواضع ، واحترام الرجال ،
وتقدير الأدباء ، وأصحاب الحاجات ، وهى خلال تدنى
أصحابها من مواضع الرضى فى القلوب ، وتضمن لهم
انتشار الذكر ، والسمعة الحسنة ، لاسيما اذا صدرت عن

(١) الحيوان ٤/٤٢٣، ٤٢٤ .

طبيعة خيرة ، وقلب صادق .

لقد كان أصحاب الحاجات يعرفون آنذاك "بالسؤال" ،
وفيهم لاشك من أهل الفضل والعقل ، فاستبدل خالد بهذا
المصطلح الموحى بالهوان اصطلاح "الزوار" لأنه أليق وأكرم ،
قال خالد :

"انى أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء ، وفيهم الاشراف
والاكابر ، فسماهم الزوار ، وكان خالد أول من سماهم بذلك .
فقال له بعضهم : والله ماندرى أى أياديك عندنا أجل ،
أصلتنا أم تسميتنا ؟" (١)

وقيل ان أول من فعل ذلك المساور بن النعمان فى دولة
بنى أمية . (٢)

وقال البغدادى فى تاريخه : "ان الذى سماهم بالزوار
هو الفضل بن يحيى" . (٣)

والراجع أن الذى سماهم بذلك خالد بن برمك ، يؤكد
بشار فى قصيدته التى مدح بها خالدا وأشار فيها الى أنه
أول من سماهم بالزوار : (٤)

حذا خالد فى فعله حذو برمك

فمجد له مستطرف وأصيل

وكان ذوو الآمال يدعون قبله

بلفظ على الإعدام فيه دليل

يسمون بالسؤال فى كل موطن

وان كان فيهم نابه وجليل

فسماهم الزوار سترا عليهم

فأستاره فى المهتدين سُدُول

(١)، (٢) ابن طباطبا ، الفخرى فى الأحكام السلطانية ص ١٥٧ .

(٣) تاريخ بغداد ٣٣٦/١٢ .

(٤) الديوان ١٢٨، ١٢٧/٤ .

هذه بعض سمات شخصية عميد هذه الاسرة ، آثرت أن ألقى الضوء عليها لنعرف أن أسرة كان على رأسها مثل هذا الرجل خليفة أن يكون لها هذا الدور القيادي في ظل الخلافة العباسية على أن أبناء الرجل نشئوا على غرار أبيهم فتنافسوا في الفضل ، وبرعوا فيما تقلدوه من شئون عامة وخاصة .

وإذا كان أسلوب الرجل هو الرجل نفسه كما يقال فاني أتوقع أن يكون لهذه الخصائص التكوينية مع ماشرت اليه سلفا من مؤثرات وعوامل ثقافية مختلفة - أتوقع أن يكون لها أثر على توجيه النثر الفني في عصرهم ، وهو ما أحاول استكشافه في فصول لاحقة .

(ج) اتصالهم بالدولة العباسية .

والقصد هنا اظهار اول التقاء فعلى بينهما ، ويتضح من استقراء النصوص التاريخية ، اعراق هذه الاسرة فى خدمة الدولة العباسية ، لأن اول اتصال بينهما كان عن طريق رأس هذه الاسرة وعميدها خالد بن برمك ، وكان اتصاله بأول خليفة عباسى فى بداية قيام الدولة عام ١٣٢هـ .

(١) وسبقت الاشارة الى اعجاب السفاح بقماحة خالد ، وبقدراته الادارية ، لذلك أقره على ماكان يتقلده من امر الخنائم فى بداية نشأة الدولة العباسية ، وأضاف الى مسئولياته ديوان الخراج ، والجند ، فأثبت كفاءته ومقدرته الإدارية ، فمهد بذلك الطريق لأولاده من بعده ، والتفتت أنظار الخلفاء عقب عبد الله السفاح الى نبوغ أفراد هذه الاسرة ، وتفوقها ، فقربهم الخلفاء واستعانوا بخدماتهم فى شئونها السياسية والادارية والادبية لما خبرته من حذكتها ، وحذقها بفنون البيان والكتابة ، ودرايتها بالامور الادارية والسياسية .

فأخذت تنمو مع الدولة ، ويتراعى صيتها بين العامة والخاصة ، فكبرت فى كنف الرشيد وترعرعت فى زمنه ، فتولوا مقاليد الحكم الفعلية فى الدولة ، فأحسنوا السيرة وعرفهم الناس ، حتى كادوا أن ينسوا الخليفة نفسه ، يقول المسعودى محمداً زمنهم الذهبى :

(١) القضاى ، أعتاب الكتاب ص ٦٥ .

"كان مدة دولة البرامكة وسلطانهم ، وأيامهم النضرة
الحسنة ، من استخلاف هارون الرشيد الى أن قتل جعفر سبع
عشرة سنة ، وسبعة أشهر ، وخمسة عشر يوماً" .^(١)
وهى مدة فى عمر الأشخاص ليست طويلة ، فما بالك بها فى
عمر دولة ، لكنها مع ذلك كانت معلما بارزا فى تاريخها
تسركت آثاراً لاتمضى على مفحة الدولة العباسية ، لاتمضى
بسرائرها وضرائها ، لاسيما فى ميدان الأدب والثقافة .

(١) مروج الذهب ٣/٣٨٩ .

(د) مكانتهم السياسية .

مكانتهم الممتازة فى مجال الكتابة والادب ، الى جانب ماتحلوا به من صفات خلقية حميدة ، وسيرة حسنة بين الناس ودراية بالسياسة ودروبها ، والإدارة وفنونها . كل ذلك كان سلما لارتقاء أعلى المناصب السياسية ، فقد تقلدوا الوزارة (١) وبقيت فيهم إلى حين .

وكان عصرهم الذهبى فى عهد هارون الرشيد كما أسلفت . وإذا علمنا بأن الرشيد قلد يحيى بن خالد الوزارة وفوضه فى أمور دولته فى نص تاريخى مهم ، لأدركنا إلى أى مدى بلغت مكانتهم السياسية ، وهيمنتهم على شتى شئون الدولة .

قال الرشيد ليحيى :

"يا أبت ، أنت أجلسنى فى هذا المجلس ، ببركتك ويمكنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر ، ودفع خاتمه اليه " (٢) .

وفى ذلك يقول إبراهيم الموصلى :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة

فلما أتى هارون أشرق نورها

تلبست الدنيا جمالا بملكه

(٣)

فهارون واليها ويحيى وزيرها

-
- (١) أحمد الهاشمى ، جواهر الادب ص ٤٢٠ .
 (٢) المسعودى ، مروج الذهب ٣/٣٤٨ ، الجعشيارى ، الوزراء والكتاب ص ١٧٧ ، الاتابكى ، النجوم الزاهرة ٢/٦٥ ط/أولى ١٣٤٩هـ .
 (٣) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٢٩٤ ، عبد الملك بن حسين المكي ، سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائىل والتوالى ٣/٢٧٧ ، المكتبة السلفية .

هذه العبارات تنم على تفويض مطلق ليحيى ، وهو ما أغراه باطلاق يده تتصرف فى شئون كثيرة فى الدولة - اللهم الا فى بعض ما كان يرجع فيه إما إلى الخليفة ، وإما إلى أمه الخيزران وهو ما انتهى بيحيى وبسائر أسرته - على الأرجح - إلى المصير المعروف ، يقول بختشيوغ :

"دخلت يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقال جزى الله يحيى خيرا ، تمهدى للأمور وأراحنى من الكد ، ووفر أوقاتى على اللذة ، ثم دخل عليه بعد أوقات ، وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر ورأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى بالأمور من دونى ، فالخلافة على الحقيقة له ، وليس لى منها الا اسمها . قال : فعلمت أنه سينكبهم عقب ذلك" .^(٢)

فتولاهم لمقاليد الحكم الفعلية من دون الرشيد ، وتماداهم فى السيطرة على الدولة وشئونها ، كان العامل الأساسى فى الإطاحة بهم ، وهذا يبرز بجلاء مدى ما بلغت هذه

(١) تاريخ الطبرى ، حوادث سنة ١٧٠هـ ، ٢٣٤/٨ ، النجوم العوالى ٦٥/٢ ط/أولى ١٣٤٩هـ ، د. صلاح الدين المنجد ، بين الخلفاء والخلفاء ص ١١ ، ط/الثانية ، دار الكتب الجديدة ، لبنان .

(٢) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٠٨ .

الأسرة . مما أشار حفيظة الخليفة ، وقرر فى شأنهم ماقد (*)
كان .

(*) على أن بعض المؤرخين قد تخططوا فى تفسير نكبتهم ، وذهبوا فى ذلك مذاهب لا يقبلها العقل ، ولا يقرها المنطق السليم . . فمنهم من عزى السبب الى تزويج الرشيد ، جعفر بن يحيى من أخته العباسة ليأمن بوجودهما معه على شرط الا يقربها ، ثم كان من اخلال جعفر بهذا الشرط التغير عليهم والاطاحة بهم .
انظر : المسعودى ، مروج الذهب ٣/٣٨٤ ، ابن قتيبة ، الامامة والعباسية ١٧٢/٢-١٧٧ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٣٣٣/١ ، ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ص ١٧٥ بيروت ١٣٨٥هـ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ١/٣١١، ٣١٢ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الاثليدى ، اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس ص ١٤٠ وما بعدها ، ط/٣ ، ١٣٧٤هـ .
وفى نظرى أن هذا السبب الذى عده بعض المؤرخين لا يخلو من سذاجة واضحة ، لأن سيرة الرشيد وايمانه ، وعقليته أرقى بكثير من أن تنحط الى هذه الدرجة ، وشأنيا : أن محت هذه الواقعة فإن ذلك الشرط باطل شرعا . وشأنيا : القصة برمتها كما أوردها أقرب الى الاساطير الساذجة فكيف للعباسة أن تحمل ، ولا يحس بذلك الرشيد لاسيما وأنه لا يصبر عن رؤيتها .
بلى إن ابن خلدون ينكر وقوع هذا الامر لتفاوت المكانة والنسب بينهما ، فهو مجرد مولى من موالى الدولة ، واستبعد أن يقع الرشيد فى مثل هذا .
تاريخ ابن خلدون ١/٢٢، ٢٣ .
ويرى بعض المؤرخين أن السبب هو اطلاق جعفر سراح يحيى ابن عبد الله الطالبى على غير علم من الرشيد ومن غير اذنه .
الكامل فى التاريخ ص ١٧٥ .
وان صح فانه يدخل فمن سيطرة البرامكة على شئون الدولة ، وتصرفهم فى كافة شئونها .
ويضيف التنوخى الى استئثارهم بالسلطة الفعلية للبلاد وجود بعض الدسائسين - كما هو الحال فى أية دولة - أدى ذلك الى نكبتهم .
التنوخى ، الفرغ بعد الشدة ١٧٥/٣ بيروت ١٩٨١م . =

.....

= على أن مجموعة من الأسباب تداخلت من أبرزها سيطرتهم على مقاليد الحكم ، واحساس الرشيد بتزايد سلطان الفرس على حساب الدولة العربية ، مما أدى بالخليفة الحميف الى التخلص منهم ، مؤثرا لعروبة الدولة قبل أن يسيطروا سيطرة تامة على مقاليد الخلافة ويحولوها فارسية .

(هـ) مكانتهم الادبية .

تمثلت مكانتهم الادبية فى جانبين هامين :
 مكانتهم الادبية فى ذوات أنفسهم ، فقد كانت لهم حظوظ
 متفاوتة من الابداع الفنى اتاحت لهم بسبب مكانتهم السياسية
 الرواج والذيع ، برعوا فى الكتابة ، واعترف بفضلهم
 وموقعهم من المناعة كثير من ارباب البيان الذين عاصروهم ،
 وسيأتى تفصيل ذلك فى مكانه ان شاء الله تعالى .
 ولم يقمرا اهتمامهم على النشر الفنى ، بل ان منهم من
 جمع بين فنى القول (الشعر والكتابة) .

فهذا يحيى وابناه الفضل ، وجعفر قد عدهم ابن النديم
 من الشعراء المقلين^(١) .

والمرزبانى فى معجمه ، ذكر شيئاً من شعر يحيى بن
 خالد^(٢) .

وبالاضافة الى ما سبق ، كانت لهم آراء نقدية ، والموقف
 التالى يؤيد مقدرة بعضهم على الشعر ، وتذوقهم لكلمات النص
 حين ارتجل أبو النضر شعرا يهنئ به الفضل قال :

ويفرح بالمولد من آل برمك

بغاة الندى والسيف والرمح والنصل

وتنبسط الآمال فيه لفضله

.....

ثم ارتج عليه ، فلم يدر مايقوله ، فقال الفضل يلقنه :

(١) ابن النديم ، الفهرست ص ١٩٠ .

(٢) انظر : معجم الشعراء ص ٤٨٨ .

(١) ولا سيما إن كان من ولد الفضل

ولولا أنه عليه السلام ، خبير بأوزانه وقوافيه لما
استطاع إكمال ما بدأه الشاعر بداهة .

(*)
ومن آرائهم النقدية ما رواه يحيى بن زياد الفراء ،
قال : دخلت على جعفر بن يحيى فقال لي : يا أبا زكريا ،
ما تقول فيما أقول ؟ فقلت : وما تقول أصلحك الله ؟

قال : أزعج أن أبا العتاهية أشعر أهل هذا الزمان .
(٢)
فقلت : هو والله أشعرهم عندي .

وترجيحه لأبي العتاهية دون سواه ، دليل على تبحره في
الشعر ، ومعرفته بشعراء عصره ، ومن هنا كان الحكم ،
وموافقة الفراء دليل آخر على صدق الحس النقدي عند جعفر .

-
- (١) الأصمهاني ، الأغاني ٢٨٦/١١ .
(*) هو يحيى بن زياد بن منظور الديلمي ، إمام الكوفيين ،
وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، ولد بالكوفة ،
وانتقل إلى بغداد ، يميل إلى الاعتزال ، له كتب كثيرة
(١٤٤-٢٠٧هـ) .
الاعلام ١٤٥/٨ .
(٢) الأصمهاني ، الأغاني ١٢/٤ .

(و) تأثيرهم على أدباء عصرهم .

أفضت مكانتهم السياسية والأدبية السابقة الى تأثيرهم على أدباء عصرهم .

وقد استند هذا التأثير الى عاملين اثنين :

(أ) عامل معنوى .

(ب) وآخر مادى .

(١) تجلى الاول فى تقريبهم للأدباء ، والانس بهم ، ورفع مقدارهم واحلال من يستحق منهم فى خاصتهم ..

كل هذه الدفعات من البرامكة كانت بمثابة اغراء وحافز قوى حرك طموح الأدباء وخاصة الشعراء فامتلات بهم الساحة الأدبية ، وأشادوا بفضل البرامكة ولهجوا بالثناء عليهم ، وأفسحوا لهم مكانا فى ديوان الشعر لا يزال الى يومنا يلهج بذكرهم ، ويضفى عليهم من فضائل الخصال ، وجميل المحاسن ، ما يطمناه كل انسان ولقد اجتهد البرامكة فى الوصول الى هذه الغاية ما أمكنهم ذلك .

ومن بالغ رعايتهم للأدب والعلم ، أنهم كانوا يعتقدون بعض المجالس للمناظرة ، ويديرون الحوار فيها ، وسنذكر هنا بعض مجالسهم ولعل من أهمها ذلك المجلس الذى عقده يحيى بن خالد بين الكسائى وسيبويه ، ومن أهمية هذا المجلس ، شاع ذكره بين الخاصة والعامة ، لما أسفر عنه من نتيجة .

وبداية المجلس ، كانت فى قدوم سيبويه على البرامكة فعزم يحيى على الجمع بينه وبين الكسائى ، وحدد لذلك يوما .

وتتم انعقاد المجلس فى اليوم المحدد له ، بحضور يحيى
ابن خالد ، وجعفر ، والففل ، ومن حضر بحضورهم .
وبدا الكسائى بسؤال سيبويه عن قوله "قد كنت أظن أن
العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هـى ، أو فاذا هو
اياها" ؟

فقال سيبويه : فاذا هو هـى . ولايجوز النصب ، فرد عليه
الكسائى وقال : لحنت .

ثم أخذ الكسائى يسأله أسئلة من هذا النوع "خرجت فاذا
عبد الله القائمُ أو القائمُ" ؟ ، فيقول سيبويه فى كل ذلك
بالرفع دون النصب ، فاختلغا .

فقال يحيى بن خالد قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما
فمن يحكم بينكما ؟

فقال الكسائى : هذه العرب ببابك ، قد جمعتهم من كل
أوب ، ووفدت عليك من كل صقع ، وهم فصحاء الناس ، وقد قنع
بهم أهل الممرين ، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم ،
فيحضرون ويسألون ، فقال يحيى وجعفر : قد أنصفت ، فدخلوا ،
(١)
وتابعوا الكسائى فيما ذهب إليه .

وأسدل الستار على هذه القضية التى شغلت رأى العام
والخاص فى حينها ، ولايعنينا ما ان كانت النتيجة التى انتهى

(١) السيوطى ، الاشباه والنظائر ٢/٨٧، ٨٨ ، مجالس العلماء
ص ١٠، ٩ ، طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ومصباح
السيادة ١/١٤٧، ١٤٨ ، د. محمد آدم الزاكي ، النحو
والصرف فى مناظرات العلماء ومحاوراتهم ص ٦٦ ومابعدها
المقبرى ، نفح الطيب ٤/٧٩ ومابعدها ، دار صادر بيروت
١٣٨٨هـ .

وليحيى بن خالد مجالس أخرى ، انظر : المسعودى ، مروج
الذهب ٣/٣٧٩، ٣٨٠ ، الصولى ، أدب الكتاب ص ١٩٣ .

اليها المجلس قد تمت بتدبير سابق لاي من أطراف المجلس أم لا
فالمهم أن هذه المجالس كانت تعقد بإشراف أحد
البرامكة ، ولهم فضل لايجحد في اشراء الحياة الادبية
بأمثالها .

حتى المجالس التي كانت تعقد في قمور الخلفاء لا تخلو
من صوت برمكى توجيهها وارشادها كما حدث في مجلس الكسائي
بحضرة الرشيد مع اليزيدى .

والمجلس يبدأ بسؤال اليزيدى وقد أنشد شعرا ، وطلب من
صاحبه أن ينظر هل فيه عيب أم لا ؟

مارأينا خربا نـ قر عنه البيض مقر
لايكون العير مهرا لا يكون ، المهر مهر
فقال الكسائي : قد أقوى الشاعر . فقال اليزيدى :
انظر جيدا . فقال : أقوى ، لابد أن ينصب المهر الثانى على
أنه خير كان .

ف ضرب اليزيدى بقلنسوته الأرض ، وقال : أنا أبو محمد ،
الشعر صواب ، إنما ابتداء فقال : المهر مهر .
فقال يحيى بن خالد : أتتكنى بحضرة أمير المؤمنين ،
وتكشف رأسك ؟ والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب إلينا من
صوابك مع فعلك .

(١)
فقال اليزيدى : لذة الغلب أنستنى من هذا ما أحسن .
فالمجالس التي تعقد في دور الخلفاء كان لهم فيها أثر
واضح كما رأينا من توجيه يحيى لليزيدى ، وهذا الارشاد

ينبىء بالمام يحيى بآداب المناظرة ، وأصولها فى حضرة الخلفاء .

واستمر الحال على هذا المنوال فى رفع مكانة الأدباء ، ماوسعهم ذلك ، وقد عرف الفضل بن يحيى للناس مكانتهم وأنزلهم منازلهم ، وجعلهم فى طبقات أربع ، وأدخل فيهم الأدباء وهم :

- (١) ملوك قدمهم الاستحقاق .
 - (٢) وزراء فضلتهم الفطنة والرأى .
 - (٣) عليا أنهضهم اليسار .
 - (٤) أوساط ألحقهم بهم التأديب .
- ويذكر الفضل أن الناس بعدهم جفاء ، وسيل غشاء ، لكع ولكاع ، وربيطه اتفاع ، هم أحدهم طعمه ونومه .^(١)
- (٢) العامل الثانى مادى وهو المال .
- وكان للمال دوره فى تحريك الساحة الأدبية ، انتهجه البرامكة طريقا ، وعمدوا اليه فى جمع الشعراء والأدباء حولهم ، كلهم يلهبون بالثناء على دورهم فى الدولة ، ومحققوه من انجازات .
- والحق أن البرامكة كانوا أسخياء معهم الى درجة السرف فقد ينشد الشاعر قميدة واحدة لاتتجاوز أبياتها أصابع اليدين وينال فى مقابلها ثروة كاملة دون مبالغة ، وكتب^(*) الأدب مليئة بهذه النوادر .

(١) آدم متز ، الحضارة الاسلامية ٢٨٠/١ .
 (*) يقول مروان بن أبى حفصة أن أبان اللاحقى قد أخذ من البرامكة بقصيدة واحدة مثل ماأخذته من الرشيد فى دهرى كله . الأغانى ١٥٥/٢٣ .
 وهو : أبان بن عبد المجيد بن لاحق ، شاعر مكش من أهل البصرة ثم انتقل الى بغداد ، اتصل بالبرامكة ، وأكثر من مدحهم ، وخص بالفضل بن يحيى بن المعتز .
 طبقات الشعراء ص ٢٤٠ الطبعة الثانية ، دار المعارف المصرية ، الاعلام ٢٧/١ .

هذه الدفعات المادية ، جعلت الخامل من الناس يهتم
بالادب ، ويجهد نفسه للأخذ بأسبابه ، رغبة منه فى تلك
الاعطيات الخيالية ، فما بالناس بأصحاب المواهب الذين حرصوا
على التفوق فى ابداعهم .

يجسد هذه الحقيقة نصيب الأصغر ببیت من الشعر قاله فى
الفضل بن يحيى :

مالقينا من جود فضل بن يحيى

(١)

ترك الناس كلهم شعراء

وهذه حقيقة استطاع نصيب أن يثبتها بصدقته فى
التناول .

فللمال سحره وبريقه ، لا يستطيع مقاومته الا من وهبه
الله كنز القناعة ، فاغداق المال على الشعراء حرك الساحة
الادبية وأشراها ، فتنافس الشعراء على الابداع كى ينالوا من
جوائز البرامكة التى أحالت كثيرا من الناس الى شعراء كما
يقول نصيب ، وقد يجمعون بين الناحيتين .

يروى أبو الفرج أن أبان اللاحقى نقل للبرامكة كليله
ودمنة فجعله شعرا ، ليسهل حفظه عليهم ، فأعطاه يحيى بن
خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ، ولم
يعطه جعفر شيئا وقال : ألا يكفيك أن أحفظه فاكون راويك ؟
(٢)

(١) الكتبى ، فوات الوفيات ٥٠٥/٤ ، د. عمر فروخ ، تاريخ
الادب العربى ١١٨/٢ .

(٢) الاغانى ١٥٥/٢٣ .

وهكذا كان دأبهم فى تشجيعهم للادب والادباء ، ومما سهل لهم هذه المهمة :

(١) وضعهم السياسى ، ومكانتهم الاجتماعية فى الدولة .

(٢) وحبهم للادب ، وشفقتهم به ، لانهم أدباء فى الاصل .

على أن التزامهم بهذه السياسة نحو الادباء ، عن قصد أو غير قصد حقق هدفين كبيرين :

(١) ازدهار الادب ، ورواج الحركة الادبية بكثرة الشعر والشعراء .

(٢) ذيوع صيت البرامكة ، واعتبارهم مثابة العطاء ، وموئل

الجود ، وزيادة تعلق الآمال بهم حيناً بعد حين ، ولعل

هذا بعض ماأحنق الخليفة عليهم فيما بعد .

هذه المنزلة الرفيعة التى تبوأها البرامكة ، انعكس

أثرها على خاصتهم أيضا من غلمان وجواري ، فقد كان لهم باع

فى الادب ومنزلة ، وسأورد هنا قمتين تؤكد هذه الحقيقة .

الأولى : يروى الزجاج فى أماليه أنه دخل بعض الشعراء

على يحيى بن خالد البرمكى ، وبين يديه جارية يقال لها

خنساء ، وكانت شاعرة ظريفة فقال له اعبت بها ، فأنشأ

يقول :

خنساء ياخنساء حتى متى

يرتفع الناس وتنحسط

قد صرت نضوا فوق فرش الهوى

كأننى من دقتى خيسط

فقال خنساء :

وكيف منجأى وقد حَقَّ بى بحرُ هوى ليس له شط
يدركُك الومل فتنبجو به أو يقع العجرُ فتنحط^(١)

والثانية : ذكرها الوشاء فى "الظرف والظرفاء" ، يقول
دخل العتابة على يحيى بن خالد وكانت له جارية يقال لها
خلوب ، تجالس الأدباء وتناقض الشعراء ، فقال لها : عليه
لابطائه منا جائزة ، فقالت له : قل على هذه القافية :

إذا شئت أن تُقلَى فافزر مُتواتِرا
وإن شئت أن تزداد حُباً فزر غِباً

فأنشأ يقول :

بقيت بلا قلب لانى هائمٌ
فهل من معيرٍ يا خلوب بكم قلبا
حلفت لها بالله أنك مُنيتى
فكونى لعينى حيثُ ما نظرت نصبا
عسى الله يوما أن يورينيك خاليا
فأجنى بلحظى من محاسنكم عجا
يقولون لا تكثُر زيارةً صاحبٍ
فأنك إن أكثرته كرهه القُربا
وكيف يُطيقُ المَبُّ سلوان حُبِّه
إذا كان مشعوقا قد استشعرَ الكُربا

(١) الامام أبو القاسم عبد الرحمن الزجاج ، الامالى فى
المشكلات القرآنية والحكم والاحاديث النبوية ص ٦٢ .

وقد قال بيتاً ما سمعتُ بمثله
خَلَّى مِنْ الْأَحْزَانِ لَمْ يَذُقِ الْحُبَّ
إِذَا شئتَ أَنْ تُقْلَى، فزِرْ متواتراً
وإن شئتَ أَنْ تزدادَ حُبّاً فزِرْ غباً
فقال يحيى له : لله أبوك ، أحسنت ، خذ بيدها فهي لك
(١)
وأمر له بألف درهم .

(١) أبو الطيب محمد بن أحمد الوشاء ، الظرف والظرفاء
ص ٨٩، ٨٨ ،

الفصل الثاني

البرامكة وأدباء العصر

ويشمل :

(أ) البرامكة في مرآة الشعر ، ماقيل فيهم :

١ - مدحا

٢ - قدحا

٣ - رثاء

(ب) آراء معاصريهم من الكتاب وغيرهم في :

١ - بلاغتهم

٢ - تسامحهم

٣ - سخائهم

(أ) البرامكة فى نظر معاصريهم الشعراء .

بعد صيت البرامكة المترتب على مكانتهم سياسيا واداريا وأدبيا بالإضافة إلى فرط سخائهم الذى كان الصوت القوى الذى استحث الشعراء إلى ساحتهم .

فلاغرو ان كثرت فيهم مدائح الشعراء ، فقد كان البرامكة لأشهر الشعراء فى عصرهم كالزهر للنحل ، ولم يظفر بممثل هذه المدائح التى قيلت فى البرامكة ، إلا الأقلون من الأمراء والوزراء ، فلما هلكوا عمر ديوان الشعر بالمرأى المتفجعة ، التى تندب أيامهم وتتفجع مما نزل بهم .

أما الهجاء فنصيبه محدود جدا قياسا إلى ما قيل فيهم من المدائح والمرأى .

وقد يعين الباحث تأمل هذا الكم الفزير من الشعر على تقدير الباعث فى الإبداع الفنى ، فالشاعر قد يجيد إذا قلت الحوافز ، وعظمت الموهبة ، ولكن الحافز قد يبعث من شحت موهبته على الاجادة ، أما الموهوب فيأتى بالعجب العجيب مع الحافز .

وتاريخ الفن فى كل العصور ، لدى العرب وغيرهم حافل بالشواهد التى تؤيد ما ذهب اليه .. على أن ما قيل فيهم لا يعدو أن يكون :

(١) اما مدحا

(٢) واما هجاء

(٣) واما رشاء

(١) المدح .

تغلب هذا الغرض على غيره من الأغراض الأخرى وكان له المدارة في شعر المعاصرين ، تنافس فيه الشعراء فأكثرُوا منه فكثرت عطاياهم ، وزادت هداياهم ، واكتسبت به الحركة الشعرية بعامة حظاً أوفر من الخصوبة ومن الرقي الفني . ولانتوقع من شعر المديح أن يكون صورة مطابقة لمفاتيح الممدوح فليست مهمة الشاعر أن يكون اخبارياً ، ولا مهمة الشعر أن يكون سجلاً دقيقاً للحوادث والصفات ، ولذا سيكون تركيزي على جانب الإبداع ، وعلى الأداء الفني للشعر في هذا الميدان ، ولا يهمني بعد إن كان الشاعر غالي وتزيد وطابق صفات الممدوح أم لم يطابق ، إذ المهم هو وفاء الشاعر للحقيقة المستقرة في وجدانه .

فالشاعر يجود بأنفس مألديه من الصفات بقدر ما يحرص عليه من إشارة إعجاب الممدوح ورضاه ، فإذا كان الممدوح بصيراً بعيون الكلام ، كان ذلك أشد حقاً على إبداع الشاعر . وتدلنا النظرة العامة لهذه القمائد على أن :

(الندى) و(البأس) صفتان اشترك فيهما الكثير من قمائد المدح لأنهما العمود الفقري في أساس القميدة منذ العصر الجاهلي ، لأن الشجاعة والجود من أمهات الفضائل التي كان العربي يحرس عليهما ، ويهز أريحيته أن يمدح بهما ، ويحنقه أن يهجي بفدھما ، وعلى ذلك درج الشعراء حقبة طويلة في تاريخ الشعر العربي .

(*)

فى طليعة هؤلاء المادحين بشار بن برد ، وهو من أوائل
معاصرى البرامكة ، وله فيهم اشعار كثيرة اكتفى منها
بالقصيدة التالية . قال فى خالد بن برمك :

لعمري لقد أجدى على ابن برمك
وماكلُّ من كان الغنى عنده يُجدى
حلبت بشعري راحتيه فدرّتنا
سَمَاحاً كما درّ السحابُ مع الرعد
وشفر كافواه الاسودِ سدّتهُ
بِسُمرِّ القنا والبيض والقَرَحِ الجُرد
مقامك محمود ، وسَيِّبك واسع
وبيتك مرفوعُ الدعائمِ بالمجد
مُفيدٌ ومُتلافٌ سبيلُ تراثِهِ
إذا ماغدا أو راح بالجزر والمدّ
سُبقتَ بأيام المكارمِ والعلا
تراث أب نال المكارمُ عن جدّ
أخالدُ إن الحمدَ يبقى لأهلِهِ
جمالاً ولا تبقى الكنُوزُ على الكدِّ
فاطعم وكلّ من عارةٍ مُستردةٍ

(١)

ولا تبقىها إن العواري للردِّ

(*) هو بشار بن برد العقيلي ، أشعر المولدين على الإطلاق ،
ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل أنها اعتقلته من الرق
وكان هزيراً . أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم
بالزندقة ، فمات ضرباً بالسياط سنة ١٦٧هـ ، وله مدائح
كثيرة فى البرامكة .
انظر : ديوانه ١٢٧/٤ ، ١٢٨ ، الأعلام ٥٢/٢ ، الشعر
والشعراء ٧٥٧/٢ .
(١) ديوانه ١٢٥/٣ ، ١٢٦ شرح محمد الطاهر عاشور ، ط/محمد
شوقي ١٣٧٦هـ ، الأغاني ١٩٣/٣ .

طرق بشار حقيقة هامة فى مقدمة قصيدته ، وهى أنه ليس كل غنى كريما ، وهى توطئة ذكية للفت نظر الممدوح اليه .
فخالد قد جاد عليه من حيث كان غيره من الأغنياء لايوجد
وحيثما تنظر الى قاموس بشار اللغوى ، نجده قد تألق فى
اختيار الالفاظ الموحية التى تهتز لها النفس طربا ... ففى
مطلع القصيدة استخدم لفظة (أجدى) وهى قوية ، تحمل معناها
الى الممدوح بكل دقة ، وتعطى مدلولاً لسخاء خالد أقوى مما
لو استعان بلفظة .. أنفق .. أو .. أعطى .. أو .. وهب ، أو
غيرها من الالفاظ .

ومثلها فى قوة الأداء ، ودقة التعبير ، الفاظ أخرى
متناثرة فى ثنايا هذه القطعة الفنية من مثل قوله : ..
حلبت .. قدرتا .. سيبك واسع .. متلاف .. العوارى للرد .
وهكذا فلكل لفظة فى موقعها جمالها الإبداعى المؤثر
وايحائها بجود خالد، وفيها قدرة لاستدرار إعطية الممدوح وهى
كلها شيات تشير الى صدق الشاعر فى الأداء .
وحتى تؤدى هذه الأبيات أثرها المطلوب ، جند شاعرنا
بعض الصور البيانية كالاستعارة المكنية فى قوله "حلبت
بشعرى راحتيه .." ، والتشبيه فى قوله : " .. وشفر كأفواه
الأسود " ، والكناية فى قوله : "سيبك واسع" .
وهكذا لم يغفل الشاعر هذه الجزئيات ، فاستعان بها فى
تكوين الصورة الفنية العامة لقصيدته .

هذه هى المفة الأولى للبرامكة التى تحدث عنها بشار
وقد جند لها كما رأينا مقدراته الفنية فى حسن الأداء ، بغية
التأثير على ممدوحه .

وأما الفخيلة الثانية فهي :

(البأس) ولم يسهب الشاعر فى الحديث عنها كما أسهب فى الأولى ، لأن تركيزه على العطاء . يقول عن هذه المفة :

وشعر كافواه الأسود سدده

بسمر القنا والبيض والقرح الجرد
استخدم بشار لفظة "أفواه الأسود" دلالة على أن هذا
الشعر الذى سده ، ليس كغيره من الشغور ، ففيه من الأخطار
الجسام ملايتواجد فى غيره ، فهو شجاع بحيث أوكل اليه أخطر
الشغور وأشدّها عتوا .

ومن مزايا البرامكة التى يتغنى بها بشار أصالة
المكارم فيهم والعلا والرفعة ، فهي ممتدة الى جذورهم ،
توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ، يقول :

سبقت بأيام المكارم والعلا تراث أب نال المكارم عن جد
فأحسن الشاعر فى توظيف لفظة "تراث" ، بحيث أعطت
انطبعا جيدا عن البرامكة ، فهم على زعم الشاعر ذوو نسب
عريق ، وحسب تليد ، فما يتمف به البرامكة من السؤدد ،
والرفعة ، إنما هو مؤثل فيهم ، وليس طارئا عليهم ، وهذه
المفة قد أشار اليها غير واحد من الشعراء .

(١)
وهذا المنحى فى المدح محمود ، كما يقول العسكرى .
ولازال الشعراء يتبارون على ساحة البرامكة الأدبية ،
يستوهبون عطاياهم بعيون الشعر ، فتعتز لها أريحيهم طربا
ونشوة .

(*)

يقول نصيب الأصغر فى الفضل بن يحيى ، بعد مطلع من

النسب البارع :

(**)

طرقتك مية والمزار شطيب وتشيبك الهجران وهى قريب
له مية خلة لو أنها تجزى الوداد بודהا وتشيب

الى أن قال فى مدح الفضل :

والبرمكى اذا تقارب سنه أو باعدته السن فهو نجيب
خرق العطاء اذا استهل عطاؤه لامتبع منا ولا محسوب
يا آل برمك مارأينا مثلكم مامنكم الا أغر وهوب
واذا بدا الفضل بن يحيى هبته لجلاله ان الجليل مهيب (***)
قاد الجياد الى العدا وكأنها رجل الجراد تسوقهن جنوب
قبا تبارى فى الأعنة شربا تدع الحزون كأنهن شوب
من كل مفطرب العنان كأنه ذئب يبادره الفريسة ذيب
تهوى بكل مفاور عاداته صدق اللقاء فماله تكذيب
حتى صبحن الطالبى بعارضه فيه المنايا تفتدى وتثوب (****)

(*) هو نصيب مولى المهدي ، شاعر مجيد ، من الموالى السود
كنيته أبو الجحفاء ، له فى المهدي ، والهادي ،
والعباسيين مدائح ، ت ١٧٥ هـ .

انظر : الاعلام ٣٢/٨ ، الشعر والشعراء ٤١٠/١ ، معجم
الادباء ٢٣٤/١٩ ، وله فيهم تماديح كثيرة . انظر :
الآغانى ٢٠، ١٤، ٢٣/١٣ .

(**) فى معجم الادباء ٢٣٦/١٩ ، ٢٣٧ "ونسائك بالهجران وهى
قريب" .

(***) فى معجم الادباء ٢٣٦/١٩ ، ٢٣٧ "ان الجلال وهوب" .

(****) الطالبى هو يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن
على بن أبى طالب ، ظهر بالديلم واشتدت شوكته ، وقوى
أمره ، والتف حوله الناس ، قاغتم لذلك الرشيد فنذب
اليه الفضل بن يحيى فى خمسين ألف رجل ، فكاتب
الطالبى ، وواتر كتبه اليه ، ولم يزل الفضل يخالط
اليه ، حتى أجابه الى الملح على أن يكتب له الرشيد
أمانا بخطه ، ، فكاتب الرشيد الأمان ، وأشهد عليه
الفقهاء ، والقضاة وجلة بنى هاشم ، ومشايخهم . وعلى
هذا انتهت هذه الفتنة ، وقد امتدح الفضل كثير من
الشعراء بهذه المناسبة .

انظر : الطبرى ٢٤٢/٨ ، ٢٤٣ .

خاف ابن عبد الله ماخوفته فجفاك ثم أذاك وهو منيب
ولقد رآك الموت إلا أنه بالظن يخطى مرةً ويُمِيبُ
فرمى اليك بنفسه ونجا بها أجلُ اليه ينتهى مكتوبُ
فكسوته ثوب الأمان وأنه لاحبسه واهٍ ولا مقصوبُ
شما اليك مخيلة لأخبا

فى الشيم اذ بعض البروق حلوبُ
انا على ثقة وظن صادق مما تؤمله فليس تخيبُ (١)
البرامكة عند نصيب نجباء ، صفيرهم وكبيرهم ،
فالنجابة من الصفات التى تولد مع البرمكى ، وتظل تلازمه ،
فهى شاملة فى كافة أسرته .
والبرمكى اذا تقارب سنة أو باعدته السن فهو نجيب .
والنجابة مدخل يمهّد به الشاعر ليصل منه الى مدح
كرمهم وسخائهم يقول :

خرق العطاء اذا استهل عطاؤه لامتبّع منا ولا محسوب
وبالنظر فى قاموس الشاعر اللغوى ، نجده أبدع فى
اختيار ألفاظه ، وتأنق فى انتقائها .. فى البيت السابق
تستميله لفظة "خرق" لوصف بالغ عطائهم ، وتستهويه دون
غيرها ، لما لها من موقع ايحائى ودلالى ، فهى تشير الى
منتهى السخاء .

وهو مع سخائه لا يكدره بالمن ، ولا ينغمه بالاذى ، فيكمل
عطاؤه ، ويحسن أثره عند الناس ، وهذه اللفتة تحسب لشاعرنا
نصيب اذ التفت فيها الى الآية الكريمة : {يا أيها الذين
آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والاذى ...} . (*)

(١) الأمبهانى ، الاغانى ١٢، ١١/٢٣ .
(*) سورة البقرة : ٢٦٤

ثم يأخذ الشاعر في وصف شجاعة الفحل بن يحيى وفروسيته
ويصف جيشه ، حتى يصل بنا الى تغلبه على الطالبى .
فرمى اليك بنفسه ونجا بها أجل اليه ينتهى مكتوب
فكسوته ثوب الامان وانسه لاحبله واه ولامقشوب
حين لم يستطع الطالبى الممود أمام البرمكى لشجاعته
الفائقة وفروسيته المدربة ، آثر النجاة ، فرمى بنفسه على
البرمكى طلبا للنجاة .

أما البيت الثانى : "فكسوته ثوب الامان ... " فقد افتن
الشاعر فى صياغته ، وأجاد فى قوة السبك ، مع روعة التعبير
ودقته .. اذ يصوره الشاعر بعد أن فقد الامان بالعارى حتى
ستره الفحل ، وكساه ثوبا من الامان .
(*)
وكان لمسروان بن أبى حفصة نصيب فى مدح البرامكة ،
كغيره من المعاصرين ، يقول فى الفحل بن يحيى :

تخيرت للمدح ابن يحيى بن خالد

فحسبى ولم أظلم بأن أتخيروا

له عادة أن يبسط العدل والندى

لمن ساسى من قحطان أو من تنزرا

(**)

الى المذبر الشرقى سار ولم يزل

له والد يعلو سريرا ومثبرا

(*) مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة ، شاعر ، نشأ
فى العصر الأموى ، وأدرك زمنا من العهد العباسى .

الأعلام ٢٠٨/٧ .

(**) قالها فى الفحل ، بعد أن خرج الى خراسان سنة ١٧٨هـ ،
فأحسن السيرة وبنى بها المساجد والرباطات ، وغزا
ماوراء النهر ، فخرج اليه (خارخره) ملك (اشروسنة) ،
وكان ممتنعا .
الطبرى ٢٥٧/٨ .

يعدو يحيى البرمكى ولا يرى

(١)

لدى الدهر الا قائدا او مؤمرا

لم يكن مدح الشاعر للفعل عن طريق المصادفة ، ولكنه
أجهد نفسه فى اختياره من دون الناس .

ولاشك أن التخير لا يتم الا بعد لاي من التمهيس ،
والتدقيق ، والمقارنة ، حتى يأتى الاختيار صحيحا موقفا ،
فاختيار الفعل للمدح كان بعد أن استعرض الشاعر كل ذلك ..
هذا ماتوحى به لفظة "تخيرت" من دلالة ، وماتحملة من معان .
ومن أسس اختياره - التى عمد اليها الشاعر - عاداته فى

بسط "العدل" و"الندى" بين "قحطان" و"نزار" الذين يسوسهم
وفى البيت ايماء الى ماكان بين قحطان ونزار من فتن
العمبية وايحاء بأن الفعل استطاع بكياسته ، وحصافته أن
يعدل بينهما فيحل الوثام والسلام .

وفى هذا البيت يجلى الشاعر مكانتهم الرفيعة فى
الدولة العباسية ومدى مابلغته من رفعة وسؤدد ، لأن بسطه
للعدل والندى بين قحطان ونزار هو بسط لنفوذهم على العرب
قاطبة .. ولفظة "عادة" تحمل من المعانى أكثر مما تدل عليه
لظاهرها فذلك الأمر اعتاده وألفه ، وصار لايشكل له حرجا وهو
البرمكى .. فاعتاد أن يعدل بين العرب قاطبة !! هكذا يغلو
مروان ولايقيم لاعتدال الحكم وزنا ، لانه شاعر ، ولأن طمعه فى
جائزة سنية يهيم به فى وديان المجازفة .

(١) تاريخ الطبرى ٢٥٨/٨ .
ولمروان بن أبى حقة قصائد مدح فى الفعل كثيرة .
انظر : الطبرى ٢٥٧/٨ ومابعدها ، عصر المأمون ١٤٣/١ ،
زهر الاداب ٤٢١/٢ .

أما البيتان الثالث والرابع ، ففيهما إشارة الى مكانة البرامكة سياسيا واداريا ، والى انتهاء الأمر اليهم من دون الخليفة .

(*) ولم يقف سلم الخاسر ازاء معاصريه البرامكة ساكنا ، بل شارك الشعراء فى الاغتراف من بحر عطاياهم ، جزاء ماأنشده فيهم من شعر ، يقول فى مدح البرامكة :

وكيف نخاف من بؤس بدار تكنفها البرامكة البحور
وقوم معهم الفضل بن يحيى نغير ما يوازنه نغير
له يومان : يوم ندى وبأس كان الدهر بينهما أسير
إذا ما البرمكى غدا ابن عشر فهمته وزير أو أمير (١)

لكل شاعر طريقته فى الأداء ، وسلم يبدأ مقطوعته باستفهام رائع ، نشم منه رائحة التعجب ، واستبعاد الشعور بالبؤس ، وهو بين ظهرائى البرامكة .

يقول :

وكيف نخاف من بؤس بدار ... والبرامكة البحور تكنفها
من كل ناحية .

فالعجب أن نخاف فى ظل البرامكة الاسخياء ، ويجد الشاعر فى تكنف من الاحاطة والشمول مايمكن من الايحاء بعظيم

(*) سلم بن عمرو بن حماد شاعر خليع ماجن من أهل البصرة من الموالى ، وهو راوية بشار بن برد وتلميذه وكان منقطعا الى البرامكة ، والى القفل بشكل خاص ، سكن بغداد ، وله مدائح فى المهدي والرشيد ، وشعره رقيق رمين ، قيل سمى الخاسر لانه باع مصحفا ، واشترى بثمنه طنبورا ، ت ١٨٦هـ .

الاعلام ١١٠/٣ ، الاغانى ١٦١/١٩ .
وللشاعر تماديع فى البرامكة . انظر : البيان والتبيين ٣/٣٥٥ ، الاغانى ٢٨٢/١٩ وما بعدها .
(١) الطبرى ٢٥٨/٨ ، الرفاعى ، عمر المأمون ١٤٢/١ .

كرمهم ، وجزيل عطاياهم ، لأن التكنف يفيد الاحتواء ، فكان
البرامكة قد تكنفت دورهم من كل جانب ، فلامظنة للعوز مع
ذلك .

الندى والبأس صفتان فى البرامكة يقول فيهما سلم :
له يومان : يوم ندى وبأس كأن الدهر بينهما أسير
فأيامهم لاتخرج عن هذين اليومين ، أسيرة لهما ، وقد
طوع الشاعر لفظة أسير فجعل أيامهم كلها أسيرة لهذين
اليومين . أيام للندى وأيام للبأس ولامتسع فى العمر
لغيرهما .

والشاعر هنا مقيّد بالمثل الأعلى للعربى فى شعر
السابقين ، لكن المحافظة على عمود الشعر تعنى من جانب آخر
أن نظرة سلم الى البرامكة ، لاتميز بينهم وبين العرب
الاقحاح الذين يهز أريحيّتهم أن يمدحوا بهاتين الصفتين .

وأنشد مادح البرامكة أشجع السلمى فى الفضل قوله :
(*)
وماقدم الفضلُ بن يحيى مكانه على غيره ، بل قدمته المكارم
لقد أُرهب الأعداء حتى كأنما على كل شغلٍ بالمنية قائم
(١)
المكانة المرموقة وحدها لاتجعل الإنسان مقدما عند
الناس ، محبوبا لديهم ان لم تقترن بالمكارم ، فكان عطاياهم
قدمته على أقرانه .

(*) أشجع بن عمرو السلمى ، من بنى سليم ، كان معاصرا
لبشار ، مدح البرامكة ، وانقطع الى جعفر بن يحيى ،
توفى سنة ١٩٥ هـ .

انظر : الاعلام ٣٣١/١ ، ترجمته وأخباره فى الأغاني
٢١٢/١٨ ، الشعر والشعراء ٨٨١/١٢ .
وله مدائح فى الممدوح أيضا ، انظر : ابن قتيبة ،
الشعر والشعراء ٨٨١/٢ ، الأصبهاني ، الأغاني ٢١٦/١٨ ،
٢٢٩ ، ٢١٧ .

(١) الأصبهاني ، الأغاني ٢١٩/١٨ .

وهو الى جانب كرمه ، كان مرهباً للاعداء ، شديد البأس
عليهم ، واقفاً بالموت لكل عدو على ثغور المسلمين .
وقد تغنى بسخاء البرامكة أبو نواس شأنه شأن غيره من
الشعراء الذين الهب مواهبهم جزيل العطاء ، فلهجت ألسنتهم
بالثناء عليهم ، يقول في الفضل بن يحيى :
أربع البلى ! ان الخشوع لباد

عليك ، وائى لم أخذك ودادى

الى أن قال في الفضل :

رأيت لفضل في السماحة همة

أطالبت لعمري غيظ كل جواد

(**)

فتى لاتلوك الخمير شمة ماله

ولكن أباد عود وبسواد

ترى الناس أفواجا الى باب داره

كأنهم رجلا دبى وجراد

فيوم لالحاق الفقير بذى الغنى

ويوم رقاب بوكرت لحصاد

أظلت عطاياها نزارا ، وأشرققت

على حمير في دارها ومراد

(*) هو الحسن بن هانى أبو نواس ، شاعر العراق في عصره ،
ولد في الأهواز ، اتصل بالخلفاء من بنى العباس ،
ومدحهم ، ولد سنة ١٤٦هـ ، وتوفي سنة ١٩٨هـ .
انظر : الأعلام ٢/٢٢٥ ، الشعر والشعراء ٢/٧٩٦ .
(**) يروى الطبرى يقول : "كان الرشيد قد عتب على الفضل بن
يحيى وثقل مكانه لتركه الشرب معه ، فكان الفضل يقول
لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ما شربته " .
الطبرى ٨/٢٩٣ .

واسهب أبو نواس فى وصف كرمهم ، إلى أن انتقل إلى عنبر
آخر من عناصر المدح فقال :

بفضل بن يحيى أشرقت سُبُلُ الهدى

(١)
وأمن ربي خوفَ كلِّ بلاد

همة الفضل أحنقت الأجواد من الناس ، فلا سبيل إلى
اللاحاق به وقد تفرد بالعطاء ، ويسجل الشاعر صفة حميدة
للفضل ذكرها غير واحد من المؤرخين ، وهى تعففه عن شرب
الخم ، وهامو الشاعر يتغنى بها هنا .

يعمد أبو نواس فى مدحه إلى العنصرين السابقين
"الندى" و"البأس" على غرار غيره من الشعراء ، والذى يميز
بعضهم من بعض هو طريقة كل منهم فى قوة الأداء ، وصدق
العاطفة ، وابداع المورة وتفوق الموهبة .

يستعين الشاعر فى وصف كرم الفضل بأكثر من صورة
إبداعية فمرة يدل على سخائه بكثرة الأفواج الواقعة ببابه
وهى كناية عن بالغ جوده ، ووافر كرمه .. وأنه لم يبلغ
مبلغه أحد من الناس .. وبالتشبيه فى قوله : كأنهم رجلا دبی
وجراد .

أى أن هذه الأعداد العظيمة تشبه الجراد والنمل فى
كثرتها ، تقف على باب الفضل فيحيل فقراءها إلى أغنياء ...
فيوم للاحاق الفقير بذى الغنى ، ويوم للبطش بالامداء .

ويتدرج أبو نواس فى وصف كرمه إلى أن يصل به إلى
القمة حين قال :

أظلت عطاياه نزارا ، وأشرقت على حمير فى دارها ومراد

أى أنها عمت العدنانيين ، وبلغت القحطانيين .
وأبدع الشاعر فى لفظتيه "أظلت" و"أشرقت" ، فكان لها
فى البيت موقع حركى وتسموئيرى ، فلم تبق عطاياها على أحد من
عدنان إلا أظلتها ، فى حين أشرقت على القحطانيين ، فهذه
العطايا ، والهبات فى حركة دائمة لا تكل ولا تمل فتفيض على
قوم ، وتطلع على سواهم تقيهم الفقر والعوز وسوء الحال .
والبائس من أيام الممدوح ، وقد أوجز فيها الشاعر ،
قال ... ويوم رقاب بوكرت لحصاد .
ومن مزايا الفضل خدمة الإسلام بنشر العدل ، وإحلال
الشعور بالأمن فى جميع البلاد
بفعل بن يحيى أشرقت سبل الهدى

وأمن ربي خوف كل بلاد

وهذا العنصر لم نعتده عند غيره من الشعراء . ولا أدرى
بعد هذا ماذا أبقى أبو نواس لمدح الخليفة ، بعدما رفع
الفضل بن يحيى الى هذه المنزلة التى يحسده عليها الخلفاء ؟
أهى الموهبة الفنية وحدها هى التى مكنت للشاعر أم استكن
وراء الموهبة دافع محجوب ؟ أهى الشعبية التى أخذت تسفر
وتستخفى فى هذا العصر ؟

هذا الاسهاب فى المدح بالسخاء والكرم ، والشجاعة
والفروسية أشر من آثار البرامكة فى واقع حياتها ، انعكس
على مرآة الشعر فظهر لنا صورة حسنة لمزاياهم التى حلوا
بها ، ومكارمهم التى شهروا بها . كتبها الشعر فى ذاكرة
التاريخ ، لتبقى على مد الأجيال صفحة مهمة فى تاريخ الأدب
العربى .

كما ذكرت : الندى والبأس مفتان متلازمان فيما مضى من مقطوعات والفرق بين كل منها ، كان فى تفاوت قدرات الشعراء فى التأثير بما يستعينون به من جزئيات ، كالتأنق فى انتقاء اللفاظ ، والتشبيه ، والاستعارة ، والكناية .. التى تبت الصورة الأدبية فى البناء العام للقصيدة ، ويكون أثرها بحسب جودة الاستخدام واتقائه ، ولاريب فى أن الشاعر المجيد يلمس أثر أبياته باستحسان البرامكة لها ، لاسيما أنهم أدباء لديهم القدرة على الصياغة ، وتذوق النص ، فيجزلون له العطاء ، ويهبونه المال بسخاء إذا ما هتزت أريحيتهم وطربت ، لذا كان الشعراء فى سباق دائم لتكوين أحلى الصور البيانية ، وأبدعها ، بغية التأثير ومن ثم استتدارار العطاء .

فهل هذا كل ماسجله الشعراء ؟ أم أن هنالك مزايا أخرى غيرهما تغنى بها الشعراء ؟

سجل الشعراء بجوار الندى والبأس مزايا أخرى لهم منها :

(١) تأصل المكارم والعلا فيهم ، فما يأتية البرمكى من كرم وما يتمتع به من مكانة رفيعة ، هى أصل فى جذورهم ، ارث فى فروعهم ، أى أنها لم تكن طارئة عليهم . يقول بشار :

سبقت بأيام المكارم والعلا

تراث أب نال المكارم عن جد

(٢) كما نجد فى قصيدة نميب الأصغر بعض ملامح المدح الجديدة

منها نجابة البرامكة مغارا وكبارا .

والبرمكى إذا تقارب سنه أو باعدته السن فهو نجيب

ومنها : العفو مع القدرة :
فكسوته ثوب الأمان وأنه
وأيفا منها : نفى المن عن العطاء :
خرق العطاء اذا استهل عطاؤه
لامتبع منا ولامحسوب

(٣) العدل من سماتهم . يقول مروان بن أبى حفصة من
القميدة الثالثة :

له عادة أن يمسط العدل والندى
لمن ساس من قحطان أو من تنزرا
وفيها يصفهم بعظم همهم :
يعد ويحيى البرمكى ولايرى

لدى الدهر الا قائدا أو مؤمرا
ويكرر سلم الخاسر المعنى نفسه فى القميدة الرابعة :
اذا ما البرمكى غدا ابن عشر قهمته وزير أو أمير
(٤) ومن العناصر الجديدة عند أبى نواس : تأكيده لصفة
الفضل التى ذكرتها كتب التاريخ ، وهى تنزهه عن شرب
الخمير .

فتى لاتلوك الخمر شحمة ماله ولكن أياد عود وبواد
واثبات دور البرامكة فى اشاعة العدل والسلام بين
الناس :

بفضل بن يحيى أشرقت سبل الهدى
وأمن ربي خوف كل بلاد
ونجد هذا المعنى عند مروان بن أبى حفصة فى الفحل
أيضا يقول :

ليحيا بك الاسلام انك عزه وانك من قوم صغيرهم كهل

ومن العناصر الجديدة التي لم نعتدها في شعر معاصري
البرامية قول أشجع السلمي في جعفر بن يحيى من جملة قصيدة
يبدأها بمطلع من النسيب البارع :

بديهته مثل تدبيره متى هجته فهو مستجمع (*)
إذا هم بالأمر لم يشنه هجوع ولاشادن أفرع
ففي كفه للفتى مطلب وللسر في صدره موضع (١)

(٥) سرعة بديهة البرمكي في حسن تصرفه ، ازاء الأحداث
المفاجئة ، وهو عنصر جديد ، ونجد هذا المعنى عند سلم
الخاسر .

بديهته وفكرته سواء إذا ما ناباه الخطب الكبير
أي أنه إذا ناباه خطب كبير ، تجده صحيح التقدير ،
صائب الحكم في كلا حاله ، في البداة وفي اعمال الفكر
سواء .

(٦) ومن مزاياهم حفظ السر ، وهذه الصفة لم أجدها عند
غيره من الشعراء . يقول :

.....
وللسر في صدره موضع
(٧) وقال مسلم :

أجذك لاتدريين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
أرقت لها حتى تجلت بفرة كفرة يحيى حين يذكر جعفر
ففي هذين البيتين اجتمع التخلص وحسن الانتقال ، فتخلص
الى صبح يحيى مستطردا الى ذكر جعفر كما ذكر القرطاجنى . (٢)

(*) في الاغانى ٢٢٥/١٨ متى رمته .
(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١٨٣/٢ ، د . عمر فروخ ،
تاريخ الادب العربى ١٤٥/٢ .
(٢) حازم القرطاجنى ، منهاج البلغاء وسراج الادباء ص ٣١٧ .

وعلى هذا النحو كانت صورة البرامكة على صفحة شعر
المعاصرين ، ألبسوهم أحلى حلة ، وأبهى ثوب .
فهم كرام أسخياء ، لاحدود لكرمهم وسخائهم ، حتى لكأن
الكرم قرب من ابتداعهم لايحلو العطاء الا من أيديهم .
وهم - فى المقابل - فرسان لايشق لهم غبار ، شهدت لهم
المعارك بصلابتهم ، ودرايتهم بشئون الحرب ، وبالإضافة الى
ذيتك العنصرين كان لهم مزايا أخرى .. وكان طبيعيا أن
تتفاوت قدرات الشعراء فى الإقناع عن طرق التأثير فى تناول
تلك المزايا أو بعضها ، ووضعها فى قالب فنى بديع مؤثر ،
تهتز لها أريحية البرمكى طربا ، فيجودون بالعطاء دون حساب
وبلا تفتير .

على أن ما قيل فيهم من مديح واطراء جد كثير يساوى
- دون مبالغة - ديوانا فخما من الشعر ، وماذكرته لايمثل الا
بعض نماذج ، أثبتتها هنا لأرى صورة البرامكة عند جيلهم من
الشعراء .

وان كان للباحث مايعقب به ، فهو غياب الحس الاجتماعى
عند الشعراء الذين مدحوا البرامكة ، لقد مدحوا البرامكة
ببعض الصفات الشخصية كالكرم والبأس والعدل فى سياسة
الرعية .

الم يكن هؤلاء البرامكة آشار أخرى على نظام الدولة
وعمرانها وسائر شئونها ؟

أقمروا جهدهم كله قياما على خزائن المال ، وقتالا
للخارجين على الدولة ، وتأمين الشغور ؟
الشاعر الجاهلى بحكم ظروفه البيئية معذور حين قصر

المثل الاعلى فى مدائحه على الندى والبأس لكن بعد الاسلام وبعد اتساع رقعة القيم والفضائل فى التمرور الاسلامى ، وبعد أن رعى الاسلام الحس الاجتماعى من خلال جميع شرائعه وآدابه كان اخلق بهؤلاء الشعراء وهم فى ظل حضارة عربية إسلامية مزهرة أن تتسع رقعة رؤيتهم الفنية ، فيتجاوزوا الندى والبأس إلى مافوقهما من صفات الرؤساء وقواد الدولة ، الذين يضعون سياسة الدولة ، ويشرفون على تنفيذها فى كافة المرافق والنواحى .

إن المدائح السابقة - على الرغم من روعتها الفنية ، ومن تفوقها فى الاداء الجميل ، ومن أنها أبرزت الصفات الخاصة للبرامكة فى أبهى رونق - ان صدقا أو ادعاء ، إلا أنها توقظ فى نفس المتلقى شاعر ما ، بأن الشعراء مشوا على درب الشعر الجاهلى دون أن يملكوا حرية الرؤية ، ودون أن ينتفعوا بالرؤية الإسلامية الواسعة للحياة الاجتماعية ، ودون أن يفرقوا بين المثل الاعلى فى الحياة لوزير أو مسئول وبينه لرجل آخر لم يتكلف مسئولية اجتماعية ، وبأن هؤلاء البرامكة أرهقوا خزانة الدولة طلبا لمجد شخصى ، وستارا لمآرب أخرى .

(ب) ما قيل فيهم من هجاء .

ليس غريباً أن نجد كم الهجاء فى البرامكة نذرا ،
إذا ما قيل بالمدح والرشاء .

فالظاهر لنا من سيرتهم بين الناس ، ومن سلوكهم ، أنه
كان حسنا فقربوا القاصى والدانى ، وفرقوا فيهم الاموال ،
وأجزلوا لهم العطاء ، ونصروا المظلوم ، ... الى آخر
مناقبهم التى استلهمها الشعراء وتغنوا بها ان صدقا أو
ادعاء فأحبهم الناس لذلك ، وتقربوا اليهم .

فعلام الهجاء اذا ؟ وما أسبابه ودوافعه ؟ وما عناصر
هجائهم ؟

أما الهجاء فى ذاته فلم نعهد عمرا من العصور خلا منه
وهو يمثل عدم الرضا عند الشاعر ، ويصور نفسيته الحائقة
على هذا أو ذاك .

وهجاء البرامكة من نوع آخر لم نعهدده ، لأن الأوضاع فى
زمنهم كانت ممتازة ، وخاصة فيما يخص الناس ، وفى جملتهم
الادباء !! بل ان التواصل بين البرامكة والناس ، بلغ
الذروة فى حسن المعاملة والتواضع واحترام الرجال ، وكتب
الادب والتاريخ تروى من نوادرهم فى اجتذاب قلوب الناس شيئا
كثيرا .

وأرجع سبب الهجاء عند هؤلاء ، ودوافعه الى التملق ،
ولاشك أنه دافع قوى جدا عند هؤلاء المتكسبين بالشعر ، فبحر
البرامكة تبخر بنكستهم ، والخليفة الرشيد حرم على الشعراء
رشاءهم ، والفضل بن الربيع حائق عليهم ، كاره لهم . فكان

طبيعيا عند مثل هؤلاء تملق مرضاة الخليفة بهجاء البرامكة عند الرشيد تارة ، وعند ابن الربيع تارة أخرى ، لكى يجدوا لهم موردا عوضا عما كان لهم فى عهد البرامكة . ومن يطالب الشعراء بالتزام المبادئ الاخلاقية كمتطلب فى الماء جذوة نار .

ساعدهم فى هذا التملق المناخ الذى تغير عليهم وأفعم بالكراهية لهم فوجدوا لهجائهم منبئا خصبيا ، وأذاंना صاغية .

أما عناصر الهجاء ، فيمكن ردها الى نقيصتين اثنتين :
(١) تعييرهم بديانتهن السابقة ، عبادة النار ، والاشراك بالله .

(٢) وسمهم بالبخل .

(١) لم يجد الهاجون بدا من الرجوع الى أصل ديانتهم لتعييرهم بها ، وهذا قد ينم عن خلوساحتهم من المثالب ، لأن المؤرخين يروون أنهم أسلموا ، وحسن إسلامهم .

(١)
صحيح أنهم رموا بالزندقة ، لكن ربما يكون هذا من باب

الحقد على ماكانوا بلغوه من منزلة لدى الخليفة .

(*)
قال بعضهم ، معيرا اياهم بالنوبهار ، والسحر :

(١) ابن قتيبة ، المعارف ص ٣٨٢ .
(*) لم تنسب هذه الابيات لشاعر معين ، ولعل هذا الامر يعد طبيعيا ، كعادة بعض الهجائيين فى اخفاء أسمائهم ، اما خوفا ، أو استحياء ... والمظنون أن هذه المقطوعة قيلت بعد قتل جعفر بن يحيى ، فى وقت ايداع يحيى بن خالد ، والفضل ، وبقيّة البرامكة السجن ، هذا ماتشير اليه أبياتها .

(*)

أوحش النوبهار من بعد جعفر

ولقد كان بالبرامك يعمر

قل ليحيى أين الكهانة والسحر

— وأين النجوم عن قتل جعفر

أنسيت المقدار أم زاغت الشمـ

(١)

ش عن الوقت حين قمت تقسدر

يصور الشاعر وحشة النوبهار بعد قتل جعفر ، وكأنه
يسخر منهم مع بقية البرامكة ، ومن طقوس العبادة المجوسية .
ويبالغ الشاعر في وصف تعلقهم بالنوبهار ، وحبهم له ،
وذلك باستعانته بلفظتى أوحش ، ويعمر . فتعطيان من الدلالة
والإيحاء مالاتعطيه غيرهما من اللفاظ ، فصور وحشة النوبهار
بفقدهم ، بعد أن كان مأنوسا بهم سعيدا بوجودهم .. وفى هذه
الصورة تقبيح لهم ، لأن المرء لا يعاب بشئ كما يتهم فى
عقيدته .

ويتساءل الهاجى فى سخرية ، واستهزاء واضحين عن عجز
الكهانة والسحر والنجوم عن انقاذ جعفر من القدر ، فيقذفهم
بهذه الأمور ، ويتهمهم بالإيمان بها .

(*) النوبهار بالضم ثم السكون ، وهو ببلخ بناء للبرامكة
قال عمر بن الأزرقي الكرمانى : "كانت البرامكة أهل شرف
على وجه الدهر ببلخ ، قبل ملوك الطوائف ، وكان دينهم
عبادة الأوثان فوصفت لهم مكة ، وحال الكعبة بها ،
وما كانت قريش ومن والاهما من العرب ، يأتون إليها
ويعظمونها فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله
الحرام ، ونصبوا حوله الأصنام ، وزينوه بالديباج ،
والحرير ، وعلقوا عليه الجواهر النفيسة ... وكانت
القرى تعظمه ، وتحج إليه .

معجم البلدان ٣٠٧/٥ .

(١) الحموى ، معجم البلدان ٣٠٨/٥ .

وفى ذات الموضوع ، يقول أبو الهول مادحا الفضل بن الربيع ، ذاما الفضل بن يحيى :

وشتت الاخبارُ	فضلان ضمهما اسمُ
مساجد ومنارُ	آثار فضل بن الربيع
أشاره النوبهارُ	وفضل بن يحيى ببلخ
أثيرت الآثار	وماسواه اذا ما

ويُعبدُ الجبار	بيت يوحى فيه
(١) به تعظم نار	وبيت شرك وكفر

هكذا عقد أبو الهول الموازنة بين الفغلين ، ينتصر فيها لابن الربيع دائما ، وهو نوع من أنواع التملق الذى أشرت اليه سابقا .

والقميدة فى مجملها استجداء بهجاء البرامكة ، ومن العجيب أن أشر البرامكة لم يزل موصولا ، فيكفى الشاعر أن يهجوهم فيدر العطاء .

وقال آخر فى ذمهم ، والتشنيع بهم :

إلى ابتناء المساجد	أن الفراغ دعائى
(٢) كرأى يحيى بن خالد	وان رأى فيها

يحاول الشاعر ايهام السامع ، أن بناء يحيى بن خالد للمساجد لم يكن عن اقتناع بدورها ، وإيمان بقداستها ، ومكانتها فى الاسلام ولكن الفراغ ، والتستر دعياه الى فعل ذلك .

(١) الحموى ، معجم البلدان ٣٠٨/٥ .
وواضح أن هذه الأبيات قيلت بعد نكبة البرامكة إبان تولي ابن الربيع الوزارة خلفا لهم ، وله أبيات فى ذم جعفر بن يحيى .
انظر : العمدة ٦٩/١ ، ط/الرابعة ١٩٧٢ م .
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ٣٥١/٣ ، ابن قتيبة ، عيون الاخبار ١١٣/١ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٩٧/٣ .

ولم يزل الهاجون يهاجمونهم فى أصل ديانتهم السابقة ،
ويقدفونهم باشنع مايقذف به انسان ، قال الأصمعى :

إذا ذكر الشرك فى مجلس أنارت وجوه بنى برمك
وان تُلِيْتُ عندهم آية أتوا بالاحاديث عن مزدك (*) (١)

نلاحظ أن الأصمعى يتماذى فى النيل منهم ، والتشنيع بهم
فيسمهم بالنفاق ، واخفاء حقيقتهم ، ويلجأ الأصمعى الى
استخدام لفظة أنارت لابرار ماتخفيه قلوب البرامكة من شرك ،
ولاشك أن الأصمعى أبدع فى توظيف لفظة "أنارت" ، لأنها بعثت
فى نفسى الشك فى حقيقة إسلامهم ، لولا ماوجدته من خلال
الاستقراء ، ومن خلال أخلاقياتهم التى تكذب ماجاء فى كلام
الأصمعى .

وهذه النماذج التى أوردتها تمثل المسار الاول الذى
انطلق منه هؤلاء فى النيل من هذه الاسرة ، صحيح انها
ديانتهم السابقة ولاباس عليهم لان الاسلام يجب ماقبله .

(٢) البخل من مقومات الهجاء ، اعتمد عليه الهاجون .

والبخل خلق ذميم ، قديما وحديثا ، لايشتهى أحد أن
يذمت به ، والله سبحانه وتعالى ذمه فى آيات كثيرة من
(**) القرآن .

(١) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ١١٣/١ ، الجهشيارى ،
الوزراء والكتاب ص ٢٠٦ ، البيان والتبيين ٣/٣٥٠ ،
غير منسوبة لشاعر .

(*) يذكر المسعودى فى مروج الذهب ١/٢٦٣، ٢٦٤ أن مزدك ظهر
أيام قباز بن فيروز واليه تواف المزدكية ، وله أخبار
مع قباز ، وماأحدثه فى العامة من النواميس والحيل
الى أن قتله أنو شروان فى ملكه .

(**) من مثل قوله تعالى : {فأما من أعطى واتقى ، وصدق
بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ،
وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى} . الليل : ٨
وغيرها الكثير من الآيات والاحاديث التى تذم البخل .

ويقابله المدح بالجود ، وهو ما تهتز له أريحية العربى
غير أن ما قدمت من قطوف كثيرة فى الإشارة لسخائهم يدحض
القول ببخلهم ، وهو ما يفتح باب السؤال عن دوافع هؤلاء
الهجائين .

ولعل الأمر فى رأى لا يعدو أن يكون مجازاة لواحد من
أخلاف البرامكة الذين يكرهونهم - كالفضل بن الربيع مثلا -
ومن ثم فالشاعر يتسلق الى مدح أحدهم بدم البرامكة .
أو يكون للتقية ، فالجو العام انقلب عليهم بعد
نكستهم ، أو يكون لعلل خاصة ، فربما لم يظفر أحدهم ببغيته
من البرامكة ، الذين سخوا على القاصى والدانى ، طلبا
للصيت للصيت ، وبعد الذكر .

فالهجاء فى جملته يرجع الى واحد من هذه الاسباب ،
ويبقى بعد ذلك السبب الخاص الكامن وراء كل شاعر على حدة .
يأتى فى مقدمة من نعتهم بالبخل أبو نواس ، قال
فيهم :

عجبت لهارون الامام ، وما الذى

يود ويرجو فيك يا خلقه السلق

قفا خلف وجه قد أطيب كانه

قفا مالك يفضى الهموم على شبق

أرى جعفرا يزداد بخلا ودقة

إذا زاده الرحمن فى سعة الرزق

ولو جاء غير البخل من عند جعفر

(١)
لما حسبته الناس الا من الحمق

والراجع عندي أن الهجاء هنا للتقية ، والمبالغة في التستر ، فهو يمت إلى القرس بنسب ، واتهامه بمشايعتهم أدنى إليه من سواه ، وحرمة على مكانته في قصر الخلافة ، وحظوته لدى الخليفة .

وفى النص ذاته ما يشير إلى كذب أبي نواس في هجائه .. فقولته : "عجبت لهارون الامام ... " ليس فيه الا اظهار بغض البرامكة واخفاء حبهم .. وربما نجد في البيت الثاني ما يقطع بنفاقه ، فجعفر كمالك الحزين الذي يلوى وجهه خلف عنقه ، وليس هذا هو أسلوب أبي نواس الذي جرت عليه عادته الفنية اذا هجا واقذع .

ويكرر أبو نواس هجاء البرامكة من هذه الناحية ، يقول :

إذا مامدحت فتى من خرى

(١)
أليس جزائي أن أعطى الخرا ؟

والحق أن هذا الهجاء ليس فيه من هجاء أبي نواس شيء ، فقد كان الرجل غلابا في مدحه ، غلابا في هجائه ، وهو ما يغلب على ظني أن الهجاء هنا من باب التقية - كما رجحت ذلك أيضا في النص السابق .

(١) الجاحظ ، الحيوان ٢٣٩/١ .

(ج) أصداء النكبة (المراثى) .

الرشاء من أجمل أغراض الشعر وأكثرها اشارة للمشاعر
يتجلى فيه صدق العاطفة ونبل المشاعر ، وحفظ الجميل ، وكل
مايمت الى المثالية من مشاعر وأحاسيس .
ورشاء معاصرى البرامكة لهم ، ماهو الا لمسة وفاء ازاء
ماقدموه من خير للناس .

واختفاء مثل هذه الشخصيات - المؤثرة فى من حولها -
من مسرح الحياة كان له رد فعل قوى ، على من اتصل بهم ،
وخبرهم ، وناله من خيرهم وبالذات على أدباء العصر . فكان
أمرا مألوفاً أن نرى هذا الكم الكبير ، والسيل الباقي ،
عليهم وعلى أيامهم الحسان .

ومن هنا نستنتج أن أثر هذه الاسرة على أدباء جيلهم لم
يزل موصولاً بعد النكبة ، حركت هذه الحادثة مشاعر الشعراء
تجاه البرامكة ، فأثرت الساحة الادبية بعميoun الشعر ،
فسبحان من جعل لهم هذه القوة التأثيرية فى نفوس معاصريهم
أحياء وأمواتا .

وحرى بى أن أنوه بأن نكبة البرامكة أمست عبرة من عبر
الزمان ، يتناولها الشعراء لاختذ العظة منها .
يقول عبد المجيد بن عبدون الفهرى فى رشائه ملوك بنى
الاقطس ، وذكر فيها من أباده الحدشان من ملوك كل زمان ،
أولها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر

فما البكاء على الأشباح والصور

الى أن قال فى البرامكة :

واشرقت جعفرًا والفضل ينظره

(١)
والشيخ يحيى بريق المارم الذكر

بدأت النكبة بجعفر البرمكى ثم تلاحت أحداثها بايداع
يحيى وابنه الفضل وأتباعهم السجن ، وقد أبكت الواقعة
كثيرا من الشعراء الذين تفجعوا عليهم فى مرأى ، تذيب
القلب حسرة ، وتذهب بالصواب من هول المصاب .
ولعل أبرز من بكاهم الرقاشى ، فله فيهم مراث دامية ،
وكان من أخلص معاصرى البرامكة ، وأوفاهم ، يقول صاحب
"الأنانى" فيه :

"كان الرقاشى حافظا لجميل البرامكة فيه ، فلما نكبوا
صار فى حبسهم فأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم ،
حتى ماتوا ، ثم رشاهم فأكثر ونشر محاسنهم ، وجودهم ،
ومآثرهم فأفرط ، حتى نشر منها ماكان مطويا وأذاع منها
ماكان مستورا ، وأوقف مديحه عليهم صغيرهم وكبيرهم " .
(٢)

وقال فيه أيضا :

(٣)

"أنه فنى فى حبهم حتى وافته المنية " .

كان هذا موقف رجل أشمرت فيه عطايا البرامكة ، وأثر
فيه معروفيهم ، أدخروه لمثل يومهم هذا ، يمجدهم ، وينشر
محاسنهم ، فلبس ثوب الوفاء لا يكاد يخلعه إلى أن مات .
ولعمري فهو مكسب لا يعدله ما أغدقوه عليه من مال ، فقد
ذهب المال وبقي أثره عند من يحسن حفظ الجميل .

(١) الكتبى ، فوات الوفيات ٢/ ٨٩٠٨٨ .

(٢) الأنانى ، الأنانى ١٦/ ٢٤٥، ٢٤٦ .

(٣) الأنانى ، الأنانى ١٦/ ٢٤٨ .

يقول الرقاشى فى أول ضحايا البرامكة :
لعمري ما بالموت عار على الفتى
إذا لم تصبه فى الحياة المعايير

الى أن قال :

وكل شباب أو جديد الى البلى
وكل امرئ، يوما الى الله سائر
فلا يبعدنك الله عنى جعفر
بروحى ولو دارت على الدوائر
فأليت لأئفك أبكيك مادامت

(١)

على فنن ورقاء أو طار طائر
تطرق الرقاشى الى حقيقة القضاء والقدر لينفذ منها
الى تعزية نفسه ، وتهوين أمر الدنيا ، فما نحن فى الحياة
الا ضيوف عليها ، والضيف لابد أن يعود الى مقره الطبيعى ،
ومثواه الاخير .

والرقاشى هذا الانسان الموفى ، سيظل على وفائه ، مهما
دارت به الدوائر وحلت عليه المحن ، وسيبكيه كلما عنت له
ذكراه ، يقول :

أيا سبت ياشر السبوت صبيحة

(*)

ويامفر المشثوم ماجئت أشاما

(١) الاصبهاني ، الاغانى ٢٤٨/١٦ .
(*) كانت وفاته فى ليلة السبت ، أول ليلة من صفر ، سنة
سبع وثمانين ومائة .
الطبرى ٣٠٠/٨ .

أتى السبتُ بالامر الذى همَّ ركننا

(١)
وفى مفر جاء البلاء مُمِمًّا

فهو كاره ليوم السبت ، من شهر مفر ، متشائم منهما ،
فهما من الرموز التى تتبع فى نفسه الجريحة ذكرى مقتل جعفر
الذى كان يلتجئ اليه مع معامريه .

هذا التشاؤم المشوب بالحسرة والالتم أحال الشاعر إلى
مقهور لايعى ، على من يلقي بتبعات هذه النكسة ، فلم يجد
أمامه إلا هذا اليوم من ذلك الشهر .

وقال متفجعا من هول النازلة ، من مقطوعة جد باكية .:
الآن استرحنا واستراحت ركابنا

وأمسك من يُجدى ومن كان يجتدى
وقل للمطايا : قد أمنت من السرى

وطى الفياقى فدقدا بعد فدقد
وقل للمنايا : قد ظفرت بجعفر

ولن تظفرى من بعده بمسود
وقل للعطايا : بعد فضل تعطلى

وقل للرزايا : كلَّ يوم تجددى
ودونك سيفنا برمكيا مهندا

(٢)
أصيب بسيف هاشمى مهند

فى حسرة وألم شديدين ، تعتمر الشاعر من شدتها
اعتمارا ، يبكيهم بكاء الشكى ، فراه يخاطب (المطايا ،
والمنايا ، والعطايا ، والرزايا) يخاطب هذه الرموز ،

(١) الطبرى ٣٠٠/٨ .

(٢) وفيات الأعيان ٣٤٦/١ ، الطبرى ٣٠١،٣٠٠/٨ ، وفى مروج
الذهب ٣٩٠/٣ نسبت لأشجع السلمى .

وكانها تحس به ، كاحساسه بهم .
فهو فى الاولى يزف البشرى للمطايا بالراحة والسكون ،
لوفاة الكرم بوفاة من كانت ترحل إليه عبر القياى . لين
هذا فحسب بل إن طالبي المعروف استراحوا أيضا :
الآن استرحنا واستراحت ركابنا

.....

فقل للمطايا: قد أمنت من السرى
وطى القياى فدفا بعد فدفا
وفى الثانية يخاطب "المنايا" ويذكر أنها ظفرت بمسود
وأمر ، ولن تظفر بعده بأى انسان له قيمة جعفر ، ومكانته
وتبعاً لذلك يطلب تجدد لها فمن عساها أن تصيب .
وأخيراً يطلب تعطل "العطايا" لأنه لا يراها من غيره
أعطية جديدة بهذا المسمى .
ففى هذه الابيات تألم الشاعر من هول النازلة ، ففاقت
مشاعره بصدق العاطفة ، ودفع المشاعر ، وبكاهم فأبكى غيره
عليهم .
ومقتل جعفر أثر على الرقاشى فلم يزل يبكيه بحرارة ،
ويندب حظه العاثر بالم ، لأن وفاته وفاة للعطاء معه ،
يقول :

كم هاتف بك من باك وباكية
ياطيب للضيف اذ تدعى وللجار
ان يُعَدَم القطر كنت المزن بارقة
(١)
لمعُ الدنانير لاماخيل السارى

فان كانت السماء تمطر ماء ، وفى الماء حياة ، فجعفر
سما تمطر دنائير ، وهى خصب الحياة .. بل هى الحياة عندما
تشح السماء بمائها . فلاغرو أن يكثر باكوك من رجال ونساء
ممن كان يصيبهم سيبك .

فهو كريم حين ينذر الكرام ، كريم اذا ماشحت السماء
بالخير ، واحتاج الناس للعطاء .

وهذه أبيات أخرى من روائع مراثيه ، جمعت إلى صدق
الشعور ، جمال الأداء :

هذا الخالون من شجوى فناموا

وعينى لا يلائمها منام

وماسهرت لانى مستهام

اذا أرق المحبُّ المستهام

ولكن الحوادث أرقتنى

فلى سهر اذا هجد النيام

أصبتُ بسادة كانوا نجومًا

بهم تُسقى اذا انقطع الغمام

على المعروف والدنيا جميعا

لدولة (آل برمك) السلام

فلم أر قبل قتلك يا ابن يحيى

حساماً فله السيف الحسام

أما والله لولا خوف واشٍ

وعين للخليفة لاتنام

لطفنا حول جذعك واستلمنا

(١)

كما للناس بالحجر استلام

الرقاشى كان من الوفاء كظله ، بكاهم بهذه الرائحة
فأبكى الناس من حوله ، طفت مشاعره وأحاسيسه على المقطوعة
وذابت نفسه بين أحرفها وكلماتها ، فهى تنبض بجراحه ،
وتفيض بأحاسيسه الحزينة .

يقول هنا ، حق للخالين من مثل شجوى أن تهدأ نفوسهم ،
وتقر أعينهم ، فيناموا ، أما أنا فقد حاق بى الأسى ، وطال
الليل ، ونفر النوم من عيني، وإن كان شجو غيرى مما يكابد
من وجد تيمم ، وحبيب تمبناه ، فوجدى مما يمدع الكبد ،
ويذيب الفؤاد . أنه من حوادث الدهر التى تهدد الرجال ،
وتشفق منها الجبال ، وأية حوادث أعتى وأشق من فقد الرجال
السادة .

لقد أصبت بفقد سادة ، كانوا نجوم عصرهم رفعة وسؤددا
وسقيا المجدب وعطاء المحتاج ... فعلى دولتهم التى ذهبت ،
وعزهم الذى انكسر السلام .

وفى شوق له ، ولهفة عليه يقول : لولا أن عيون الخليفة
لاتنام عمن يبدى العطف عليهم ، لطفنا حول جذعه المصلوب ،
واستلمته وقبلته ، كما نقبل الحجر فى البيت . قلغة الشاعر
فى هذه الأبيات واضحة الدلالة على لوعته ، وعلى فجيعة مما
نزل بالبرامكة .. فشجوه ، وأرقه من ريب الحوادث التى

(١) وفيات الأعيان ٣٤٠/١ ، فى العقد ٣٢٩/٥ نصبت الى
سليمان الأعمى فى تسعة وعشرين بيتا .

فزعمته ، وكل فقد صغير يعوض ، أو يذهب على الزمان أثره ،
الا فقد الرجال النجوم ، السذين لايجود الزمان بمثلهم الا
نورا .

ثم تأمل الصورة الأخيرة فى الأبيات - فهى مع تداول بعض
شعراء العصر لها ، بكثرة من صلب من مشاهير الدولة الا انها
هنا حسنة السبك ، قوية التأثير .

أما أبو العتاهية فينظر الى الحدث نظر المعبر ،
الذى يوقظ الحس الى مواضع العبر فيما يخط قلم الزمان على
صفحة الحياة ، وينبه الى من يغترون بالندنيا .

بعد مقتل يحيى وجعفر ، وقد كانا من بعد الصيت ،
ورفعه المنزلة بحيث لا يظن أن يكون مصيرهما هذا المصير ،
قال :

قولا لمن يرتجى الحياة أما	فى جعفر عبرة ويحيىاه
كانا وزيرى خليفة الله ها	رون هما ماهما خليلاه
فذاكم جعفر برمته	فى حالىق رأسه ونمفاه
والشيخ يحيى الوزير أصبح قد	نحاه عن نفسه وأقصاه
شئت بعد التجمع شملهم	فأصبحوا فى البلاد قد تاهوا
كذلك من يسخط الله بما	يرضى به العبيد يجزه الله
طوبى لمن تاب بعد غرته	فتاب قبل الممات طوباه (١)
والقميدة سهلة ، قريبة المأتى ، لا ترقى من حيث الجمال	
الفنى الى أبيات الرقاشى السابقة .	

لكن بها بعض الرموز فى البيتين الأخيرين .. فهل أراد
أبو العتاهية أن يقول أن البرامكة بما كانوا يصنعون لم

(١) ديوانه ص ٢٨٤ ، ت : د . شكرى فيصل ، ط / ١٣٨٤هـ .

يكونوا يبتغون وجه الله ، وإنما يتملقون الخليفة ،
ويسترضون الناس ، ناسين الله فحق عليهم العذاب ؟ هذا
احتمال لا استبعده ، ومن ثم فالآيات تومئ الى أخذ العبرة
منهم وارضاء الله .

ومن أجمل ما قرأته فى مراثى هذه الأسرة ، ما كان يردده
المنذر بن المغيرة من رثاء البرامكة فى دورهم وخرابهم .
حتى وصل خبره الى المأمون ، فأمر باحضاره ، واستطلاع أمره
فحضر المنذر وأخبر الخليفة بما كان منهم من منن كثيرة
عليه ، واستأذن فى أن يقص عليه قصة من معاريفهم عليه ،
فأذن له المأمون فأخذ فى سرد تلك القصة ، حتى أبكى
الخليفة ، ومن كان معه فى مجلسه .
(١)

يقول باكيأ اياهم بالآيات التالية :

ولما رأيت السيفَ قد قد جعفرأ

ونادى مُنادٍ للخليفة فى يحيى

بكيت على الدنيا وأيقنتُ أنه

قمارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا

أجعفر إن تهلك فَرَّبَ عَظِيمَةً

كشفت ونُعمى قد وصلت بها نعمى

فقل للذى أبدى ليحيى وجعفر

شماتتهُ أبشر لتأمتيهم العقبى

لئن زال غمى الملك عن آل برمك

فما زال حتى أشمر الغمى واستعلى

(١) القصة ، انظر : المحاسن والمساوىء ص ١١٦، ١١٧ .

وما الدهرُ إلا دولةٌ بعد دولةٍ
تبدّلُ ذا مُلكٍ وتُعقبُ ذا بلوى
على أنها ليست تدوم لأهلها

ولو أنها دامت لكنتُم بها أولى
بنى برمك كنتُم نجومًا مضيئة
بها تهتدى فى ظلمة الليل من أسرى
لأيكُم أبكى الفضل ذى الندى

أم الشيخ يحيى أم لمحبوسه موسى؟
أم الملك المملوب من بعد عزّة

أم أبكى بكاء المعولات أم الشكلى
لكلّكم أبكى بعين غزيرة

(١)
وقلب قريح لايموت ولايحيا
أبياتها تعكس حالة الشاعر ، وألمه لفراقهم ، يبكيهم
بكاء الشكلى ، ويتفجع عند دورهم التى أضحت خرابا ، فالحدث
صعقه ، وأذهله فجاشت مشاعره بذكر محاسنهم ، غير عابىء بما
قد يلحقه من ضرر لذكرهم .

يستعرض فى رائعته هذه ، حقيقة "البقاء والفناء"
ليعزى نفسه ويسليها ، ويبكى البرامكة ومجدهم وأيامهم ،
وينشر محاسنهم ومروءاتهم ، كل ذلك بئالم بالغ ، ونفس
جريحة .

أبداع الشاعر وأجاد فى قوله :

(١) المحاسن والمساوىء ص ١١٦ ، فى وفيات الاعيان
٣٤٠/١ ، ٣٤١/١ نسب بعض أبياتها الى دعبل بن على الخزاعى.

لئن زال غصن الملك عن آل برمك

فما زال حتى أشمر الغصن واستعلى

فلاضير اذا من زوال ملكهم ، بعد أن أعطى أكله ،
وتحققت منافعه .

ولفظة الشاعر جيدة ، فشبه وجودهم بالغصن ، وأعمالهم
بالشمر .

وفى البيت الأخير يقتبس معنى قرآنيا بالغ الجمال ، إذ
يبكى الشاعر بقلوب مفرح لايموت من هول مائزل به ، ولايحيا
برجاء ، مثل الكافر فى النار لايموت ولايحيا ، وهو أفزع
العذاب وأقساه .. "وقلب قريح لايموت ولايحيا" . وهكذا
تستحيل الأحداث الكبار حينما بعد حين من خطب قارع الى ذكرى
شجية يتعظ بها ويعتبر .

ومن جملة من رشاهم أشجع السلمى ، قال فى وصف أيامهم :

ولى الدنيا بنو برمك فلو توالى الناس ما زادا

كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا (١)

وقد كانت كذلك ، أيامهم للناس أعيادا لما فيها من
الفرح والسرور وأفراحا لما فيها من العطايا والهبات ، فحق
للشاعر ومعاصريه البكاء والعويل .

وقال أيضا :

قد سار دهر بنى برمك ولم يدع فيها لنا بقيا

كانوا أولى الخير وهم أهله فارتفع الخير عن الدنيا (٢)

(١) المسعودى ، مروج الذهب ٣/٣٩١ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ٣/٣٩٢ .

يذكر أن البرامكة قد ذهبوا بخير الزمن معهم ، ولم
يبق من بعدهم غير الامحال والعدم ... وهو تصوير حسن .
ولعل هذا الاحساس خامر الشاعر بعد أن نضبت موارده ،
وقلت عطايا ممدوحيه .
وقال أشجع أيضا ، من جملة أبيات يتحسر فيها على
أيامهم :

كان أيامهم من حسن بهجتها مواسم الحج والأعياد والجمع (١)

كانت أيامهم تشير شجن الشعراء ، يذكرونها بشيء من
الآلم فيبكونها ، ويبكون معها الخير الذي انقطع معها .
حتى المكان كان له أثره ، بما يثيره من ذكرى سابقة ،
فهذا مسلم بن الوليد قد أشاره قمر جعفر وأحيا ذكرياته ..
فيقول :

ياقصر جعفر مالى عنك اقصارُ

لى فيك الفء وأشجان ، وأوطار

مازلت أبكى الى سكان داركم

حتى بكى لى جنٌ فيه عمارُ

والدار تملكنى ويحى وساكنها

فلى مليكان ربُّ الدار والدارُ

ماكنت أحسبنى أحيا وتملكنى

من بعد حُريرة لبسٍ وأحجار (٢)

هذه المقطوعة لها أشباه فى الأدب العربى ، فهى تذكر
بالاطلال فى الأدب الجاهلى ، وهى أقرب الى رشاء المدن فى

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٣٣٦/١ ، وفى مروج الذهب
٣٩١/٣ لم تنسب لشاعر .

(٢) ديوانه ص ٢٧٦ رقم ٥٤ .

العصر الأندلسي . وكان ارتباط الشاعر بالمكان - مع فرط حساسيته ، وفيض مشاعره - تعنى له الذكرى الجميلة ، والأيام الخوالي الحسان المرتبطة بالمكان ، فحين يمر به بعد طول الهجر تلتاع النفس لرؤيته ، وتبكي لذكره ، تسترجع ما اندثر معه من أيام ، فلا يكون بيديه سوى البكاء . ومسلم ابن الوليد في أبياته هذه ، يبت أحزانه ، وتتسابق دموعه لرؤية القصر فقد تملكه ، وجعله أسيراً بعد حرية ، بكاه ، وبكت لبكاه الجن وما عمر به لطول الهجر .

وأبدع سلم الخاسر حين قال :

خوت أنجم الجدوى ، وثلث يد الندى

وغاضت بحار الجود بعد البرامك

هوت أنجم كانت لابناء برمك

(١)

بها يعرف الهادي قويم المسالك

* * *

على هذا النحو كان الشعراء مع البرامكة ، يستلهمون الأيام بعطائها والذكرى بأحزانها ، فيبكونهم دما ، ويشيعون الندى معهم ، نعتوهم بمحاسن الصفات ، وألبسوهم أشواقاً جذابة رائعة ، وكل ذلك الحب والوفاء لم يأت من فراغ ، ولكنه جاء من أثر اهتمام البرامكة بالناس كل الناس . فتملكوا أعينهم ، فلاعجب إذا أن نرى هذا الوفاء ، رغم ما فيه من مخاطرة جسيمة ، لأن الرشيد قد حرم على الشعراء (٢) رشاءهم .

(١) المسعودي ، مروج الذهب ٣/٣٩١ ، وفي الطبري ٨/٣٠١

نسبت إلى سيف بن إبراهيم .

(٢) تاريخ البيهقي ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

فى نهاية هذا المبحث تجدر الإشارة الى أن ما أوردته
ماهو الا غيض من فيض وقطوف كثر فى ديوان الشعر ، غير أنى
توخيت أن يكون هذا الذى تخيرته ممثلا لما وراءه لشعراء
آخرين ، والا فما اطلعت عليه فى رشاء البرامكة يكاد يؤلف
ديوانا مستقلا من أجود شعر المراثى فى الادب العربى .

الفصل الثاني

البرامكة وأدباء العصر

(ب) آراء معاصريهم من الكتاب وغيرهم في :

١ - بلاغتهم

٢ - تسامحهم

٣ - سخائهم

استطلعت فيما سبق صورة "البرامكة" فى مرآة الشعر ،
 قرأيتهم مثالا يحتذى فى البذل والعطاء ، فرسانا لا يشق لهم
 غبار فى ساحات النزال ، مع جمع من المزايا الحميدة ،
 والصفات الفاضلة ، أشار اليها الشعراء فى ثنايا قصائدهم .
 ولتحقيق الصورة السابقة ، سنفث عنها عند فريق آخر
 هم الكتاب أرباب البيان ، وحملة الأقلام ، فهل كانوا بلغاء
 فى كتاباتهم ، أسخياء فى بذلهم ، متسامحين مع قدرة ؟ هذا
 ما أحاول أن أفتش عنه فى الصفحات التالية .

نستهل هذا المبحث بحديث (ابن طباطبا) عنهم يقول :
 "اعلم أن هذه الدولة كانت غرة فى جبهة الدهر ، وتاجا
 على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشدت اليها
 الرجال ، ونيطت بها الآمال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ
 أكبادها ، ومنحتها أوفر اسعادها ، فكان يحيى وبنوه
 كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والفيوض
 ماطرة ، أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات
 عندهم عالية ، والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبّهة الملك
 ظاهرة ، وهم ملجأ اللهف ، ومعتمد الطريد" (١) .

(١) الفخرى ص ١٩٧ .

(١) بلاغتهم .

كانت المقدرة البيانية فى ذلك العصر سبيلا الى علو المنزلة ، وبعد الميث ، والرقى الى أسنى المناصب ، لأن قيادة الدولة مازالت عربية أصيلة ، وثيقة الصلة بالبيان ، فلاغرو أن يفحى أمر الثقافة العربية موضوعا ذا خطر عظيم ، وأن تنتشر بين الاعاجم انتشارا واسعا ، وأن يتنافس فيها المتنافسون .

وكان المصدر الأول لهذه الثقافة : كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وفى مطلع هذا العصر طفق احتكاك الثقافة الأجنبية الوافدة يزداد تدريجا بالثقافة العربية ، فتأخذ العربية منها أخذ القادر على الهضم والتمثل ، لاأخذ الضعيف المقلد .

ومن هنا كان الاعاجم الذين تشبعوا بالثقافة العربية طرازا ممتازا فى فن الكتابة العربية ، أبدعوا فيه إبداعا ظفر بحسن تقدير قيادة الدولة .

ومن ناحية أخرى فالعصر مازال عصر توسع وتأسيس للدولة واعتمادها فى تدبير شئونها على الكتابة عموما ، وعلى الكتابة الأدبية خصوصا .

اجتمعت هذه الاسباب لتجعل من الطموح الى التمكن من البيان وسيلة أكثر جدوى للوصول الى أبعد الآمال .

وقد مر بنا كيف أن (عبد الله السفاح) لمح فى (خالد البرمكى) حمافة وذكاء ، وحسن تدبير ، ومقدرة بيانية ظاهرة فاستدناه .

وما أن لمع نجم البرامكة حتى صاروا في بلاغتهم موضع
فخار معاصريهم واعجابهم .

يقول (ابن خلدون) في مقدمته ، واصفا مكانة هذه الاسرة
وتمكنهم من البيان ، وخص جعفرا به ، عماد هذه الاسرة في
البيان :

"وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد
ويرمى بالقصة الى صاحبها ، فكانت توقعياته يتنافس البلغاء
في تحصيلها ، للوقوف على اساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل
انها كانت تباع كل قصة منها بدينار" (١) .

وللمأمون - صاحب الشهرة والميت في العلم والبيان -
رأى فيهم ، يروى يحيى بن أكثم عنه ، قال : سمعت المأمون
يقول :

"لم يكن كـيحيى بن خالد وكولده في الكتابة ، والبلاغة
والجود ، والشجاعة ، ولقد صدق القائل حيث قال :

أولاد يحيى أربع كالاربع الطبايع
فهم اذا اختبرتهم طبائع المنائع

قال يحيى بن أكثم : "فقلت ياأمير المؤمنين : أما
الكتابة ، والبلاغة ، والسماحة فنعرفها ، فغيمن الشجاعة ؟
فقال : في موسى بن يحيى ، وقد رايت أن أوليه شجر السند" (٢) .

(١) المقدمة ص ٢٤٧ ، أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب
٣٨٧/٤ .

(٢) تاريخ بغداد ١٣٠/١٤ .

(*) يحيى بن أكثم بن محمد التميمي ، قاضي ، رفيع القدر ،
عالي الشهرة ، من نبلأ الفقهاء ، يتصل نسبه بأكثم بن
صيفي حكيم العرب ، ولد بمرو ، واتصل بالمأمون أيام
مقامه بها ، فولاه قضاء البصرة ، ثم قضاء بغداد ،
واضاف اليه تدبير مملكته ، فكان وزراء الدولة
لا يقدمون ولا يؤخرون في شيء الا بعد عرضه عليه ، وغلب
على المأمون حتى لم يتقدمه عنده أحد . ت ٢٤٢هـ .
الاعلام ١٣٨/٨ .

فلم يمتدحهم المأمون فى مقدرتهم البيانية ، وعلو
كعبهم فيها وحسب ، بل تناول معها مزايا أخرى ، لغتت اليها
الانظار ، وتناقلها الناس بشئ من الإعجاب والإكبار .
وخليق أن يكون رأى المأمون هذا من الاهمية ، ودقة
التقييم السليم بمكان ، فهو أبعد عن المجاملة ، أقرب إلى
الإعجاب ، وتأكيد ابن أكتثم على ما جاء فى كلام المأمون دليل
آخر على تمكنهم ، ورفعة شأنهم .

وقال مؤنيس بن عمران : "مارأيت رجلا أبلغ من يحيى بن
خالد ، وأيوب بن جعفر" ^(١) .

أبرز رجالات هذه الأسرة من الناحية البيانية جعفر بن
يحيى ، فلاعجب أن نرى له النصيب الأوفر من آراء معاصريه فيه
يقول شامة بن أشرم فى بلاغته :

"مارأيت أحدا من خلق الله أبسط لسانا ، ولا ألحن بحجة
ولا أقدر على كلام بنظم حسن ، والفاظ عذبة ، ومنطق فصيح ، من
جعفر بن يحيى ، كان لا يتوقف ، ولا يتحبس ، ولا يمل كلامه بحشو
من الكلام ، ولا يعيد لفظا ولا معنى ، ولا يخرج من فن الى غيره ،
حتى يبلغ آخر ما فيه ، وكان لا يرى شيئا إلا حكاه ، ولا يحكى
شيئا إلا كان أكثر منه ، ولا يمر بشئ إلا حفظه . وكان إذا
شاء أضحك الثكلى ، وأذهل الزاهد ، وخشن قلب العابد" ^(٢) .

وقريب منه قوله أيضا فى وصف فصاحة جعفر وحسن بيانه
مع ما وهبه الله من قدرات :

(١) الكامل للمبرد ٣٩٢/١ .
(٢) الحمصى ، زهر الآداب ٤٢٠/٢ .

"مارأيت أحدا إذا تكلم لا يتحبس ، ولا يتوقف ، ولا يتلف ، ولا يتلجج ، ولا يتنحج ، ولا يتقرب لفظا استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد اعتاص بعد طلبه إلا جعفر بن يحيى" (١) .

وقال أيضا فيه :

"كان من أعلم الناس بالخبر الباهر ، والشعر النادر ، والمثل السائر ، والفصاحة التامة ، واللسان البسيط" (٢) .

ومن شدة إعجاب شماسة بن أشرس ببلاغة جعفر وبيانه ، قرئه من هذه الناحية بالمأمون ، وغنى عن القول ما بلغه المأمون في الإبداع ، ومجرد اقتران اسم جعفر بالمأمون شرف له لم يحظ به إلا النادر من الرجال ، يقول :

"مارأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون" (٣) .

وتحوالى أموات معاصريهم ، إعجابا ببيانهم وبلاغتهم ، وأخص جعفر بن يحيى ، فهذا اسحاق الموصلى يحلف بالله الذى لا اله الا هو .. أنه لم ير أذكى من جعفر بن يحيى قط ، ولا أظن ، ولا أعلم بكل شيء ، ولا أفصح لسانا ، ولا أبلغ فى مكاتبة" (٤) .

فجعفر بن يحيى نال من المنزلة عند معاصريه ما لم ينله غيره من الأنداد ، تحدثوا عن مزاياه بشيء من الفخار والإعجاب ، كل ذلك كان بفضل من الله مع ما وهبه من قدرة على الامتياز .

-
- (١) العسكرى ، المناعتين ص ٥٤ .
 (٢) الحميرى ، زهر الآداب ٤٢٠/٢ .
 (٣) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٤٢٦ ، سير أعلام النبلاء ٦٢/٩ .
 (٤) الأصبهاني ، الأغاني ٣٢٥/٤ .

(*)

وفى مقارنة بسيطة عقدها سهل بن هارون بين البرامكة وبلغاء عصرهم من ناحية ، وبين البرامكة والرشيد من ناحية أخرى ، نجده انتمصر للبرامكة فى الأولى ، وللرشيد فى الثانية ، لنستمع الى قوله فى ذلك :

"والله ان كانوا سجعوا الخطب ، وقرضوا القريض ، لعيال على يحيى بن خالد ، وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلام يتصور درا ، أو يحيله المنطق النرى جوهرا ، لكان كلامهما ، والمنطقى من لفظهما ، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد وبديهته ، وتوقيعاته فى كتبه قدمين عيين ، وجاهلين أميين ولقد عصرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل الا فيهم ، ولم تكن مقمورة إلا عليهم ، ولا نقاد إلا لهم .

وانهم محض الانام ، ولباب الكرام ، وملح الانام ، عتق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاعة أنفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل كلامهم ، والمأثور من خصالهم ، كثير أيام سواهم من لدن آدم أبيهم الى النفخ فى الصور ، وانبعاث أهل القبور - حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين - لما باهت الا بهم ، ولا عولت الا اليهم .

(*) سهل بن هارون بن راهبون ، كاتب بليغ حكيم ، من واضعى القصص ، قارسى الأصل ، اتصل بخدمة هارون الرشيد وارتفعت مكانته عنده ، حتى أحل محله يحيى بن خالد ، ثم خدم المأمون فولاه رياسة (خزانة الحكمة) ، وكان شعوبيا يتعصب للعجم على العرب ، ت ٢١٥هـ .
الاعلام ١٤٣/٣ .

ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعراقهم ، وسعة
آفاقهم ، ورونق سياقمهم ، ومعسول مذاقمهم ، وبهاء أشراقهم ،
وتهذيب أغراضهم ، واكتمال الخير فيهم - في جنب محاسن
الرشيد كالنقطة في البحر ، والخردلة في المممة القفر" .
(١)

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٣١٧/٥ .

(٢) تسامحهم .

التسامح ، وسعة الصدر ، والعفو مع المقدرة ، من سمات
البرامكة ومحاسنهم ، لم تعرف هذه الأسرة الكبير والزهو ،
ولم تستعن بسطوتها على الانتقام ، بل لقد بلغت من الحلم
مبلغا أطمع خُصاس الأخلاق في تجاوز حدود الأدب واللباقة .

يسروى التنبؤ في "نشوار المحاضرة" عن تسامح يحيى بن
خالد مع أبي سماعة الشاعر ، يقول :

"هجا أبو سماعة المعيطى ، خالد بن برمك ، وكان إليه
محسنا ، فلما ولى يحيى الوزارة ، دخل إليه أبو سماعة فيمن
دخل من المهنئين . فقال : أنشدنى الأبيات التى قلتها ،
فقال أبو سماعة ماهى ؟ قال يحيى : قولك :

زرت يحيى وخالدا مخلصا للـ ه فاستصغرا بعض شائى
ولو أنى أحدث فى الله يوما أو لو أنى عبت مايعبدان
ماستخفا فيما أظن بشائى ولاصبحت منهما بمكان
ان شكلى وشكل من جحد اللـ ه ، وآياته لمختلفان
فأنكره أبو سماعة ، فقال يحيى : ماتملك صدقة ان كنت
تعرف من قالها ؟ فحلف ، فقال يحيى : وامراتك طالق ؟ فحلف
فأقبل يحيى على من كان حاضرا مجلسه ، وقال : ماأحسبنا إلا
وقد احتجنا أن نجدد لأبى سماعة منزلا ، وآلة ، وحرما ،
ومتاعا ، ياغلام : ادفع له عشرة آلاف درهم وتختا فيه عشرة
أشواب ، فدفع إليه .

فلما خرج تلقاه أصحابه ، يهنئونه ، ويسألونه عن أمره
فقال : ماعسيت أن أقول إلا أنه ابن زانية ، أبى إلا كرما .

فبلغت يحيى كلمته من ساعته ، فأمر به ، فضرب ، فقال له : يا أبا سماعة لم تشرق في هجاننا ، وتفرق في شتمتنا ؟ فقال له أبو سماعة ما عرفته أيها الوزير ، افتراء وكذب عليّ ، فنظر إليه مليا ثم قال :

إذا ما المرء لم يخدش بظفر ولم يوجد له أن عثر ناب^١ رمى فيه الغميمة من بغاها وذلت من قرائنه المعاب فقال أبو سماعة : كلا أيها الوزير ، ولكنه كما قال :

لم يبلغ المجد أقوام وان شرفوا
حتى يذلّوا ، وان غروا لأقوام
وشتموا فنرى الألوان مسفرة

لاصفح ذل ، ولكن صفح أحلام
فتبسم يحيى ، وقال : انا عذرناك ، وعلمنا أنك لن تدع مساوىء شيمك ، ولؤم طبعك ، فلا أعدمك الله ما جبلك عليه من مذموم أخلاقك ، ثم تمثل قائلا :

متى لم تتسع أخلاق قوم تضيق بها فسيحات البلاد
إذا ما المرء لم يخلق لبيبا فليس اللب عن قدم الولاد
ثم قال : "هو والله كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، المؤمن لا يشفى غيظه " (١) .

ويروى الأبي صاحب "نثر الدر" قصة أخرى من قصص التسامح البرمكى يتجلى فيها مسلك هذه الأسرة فى الحلم والتسامح والعطاء ، هجا أبو الهول الحميرى الفضل بن يحيى ، ثم أتاه راغبيا ، فقال له الفضل : ويحك باى وجه تلقانى ؟ فقال :

بالوجه الذى ألقى به ربى جل جلاله ، وذنوبى اليه أكثر ،
(١)
ففحك ووصله .

وهكذا كانت هذه المزية العظيمة فيهم ، تزهو مع غيرها
من مליح صفاتهم ، وأسوق موقفا آخر من مواقف حلمهم
وعطائهم .

طالب الرشيد منصور بن زياد بعشرة آلاف ألف درهم ،
لتلاعبه فى أموال الدولة .

فأمر الرشيد صالح صاحب المملى ، أن يأتيه بالمال من
منصور هذا ، أو يأتيه برأسه ، ان لم يستطع جمع المال ،
وأمله الى المغرب .

فذهب صالح الى منصور بن زياد وأعلمه خبر الرشيد
ومقرر ، فأيقن من الموت ، ودخل الى أهله ، فودعهم ، ثم
قال : يا أبا مقاتل ، لو أذنت لى فى المصير الى أبى على
(يحيى بن خالد) فكنت أوميه بولدى وأهلى ، فقال : امض .

فدخل منصور وصالح الى دار يحيى ، وجعل منصور يبكى ،
حتى علم يحيى الخبر من صالح .

واستطاع يحيى بعد لاي أن يستوفى كل المال ، فقبضه
صالح ، ووافى به الرشيد قبل انقضاء الأجل المحدد ، وأخبره
خبر البرامكة وما صنعوه ، فقال الرشيد : قد ظننت أنه
لاينجيه غيرهم ، فقال له الرشيد : أحمل هذا المال الى أبى
على ، وارده عليه ، وأعلمه أنى قد قبلت ذلك عن منصور بن
زياد ، ... ، وكان منصور قد تمثّل فى وقت خروجه من دار
يحيى بهذا البيت :

(١) الآبى ، نشر الدر ١٧٤/٢ .

فما بُقيا على تركتمانى ولكن خفتما صردَ النبال
فأخبر صالح يحيى بما تمثله منصور ، فأكب يحيى على
الأرض ساعة ، ثم قال : أعذره فقد كان عقله عزب عنه فى ذلك
الوقت ! قال : وكان عذره له ، أحسن من أحيائه اياه .
(١)
بهذا الخلق العظيم سامقت هذه الاسرة عنان السماء ،
وامتلكت بفعله أزمة الناس ، فذاع صيتها بين الخامة والعامّة .
ففى القصة السابقة لم يحاول يحيى بن خالد استخدام
سلطته فى الاقتصاص من ابن زياد مع قدرته على ذلك ، غير أنه
آثر الصّبح عنه ، فكان حليما ليس ذلك فحسب ، بل أخذ يسوغ
لمنصور سوء تصرفه .
ولم يزل هذا التسامح مضرب المثل على مر السنين ،
يروى الصابى فى كتابه أن أبا الحسن على بن عيسى مدح
القاسم بن عبيد الله بن سليمان الوزير فى تسامحه مع أحد
عماله ، فقال :
"قد فعلت أيها الوزير فى أمره ما لم تفعله البرامكة
(٢)
من قبل" .

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوىء ص ٥١١ ، قصص العرب
٢٧٩/١-٢٨١ .
(٢) أبو الحسن الهلالى المابى ، الوزراء ، ص ٣٨٥ ، دار
أحياء الكتب العربية ١٩٥٨ م .

(٣) سَخَاؤُهُمْ .

(البرامكة) و(السقاء) قريشان لايفترقان .

إذا ذكر (السقاء) تداعى الى الذهن (البرامكة) ،
والعكس صحيح ، تلك كانت نظرة الناس المعاصرين . لهم فيه
شاو يعجز غيرهم عن اللحاق بهم ، يقول البيهقى فى الاشادة
بسخاؤهم :

"وكان للبرامكة فى هذا الشأن مالم يكن لأحد من الناس
منها أنهم كانوا يخرجون بالليل سرا ومعهم الاموال يتمدقون
بها ، وربما دقوا على الناس ابوابهم فيدفعون إليهم الصرة
فيها بين الثلاثة الآلاف الى الخمسة الآلاف ، والاكثر من ذلك
والاقل ، وربما طرحوا مامعهم فى عتب الابواب . فكان الناس
لاعتيادهم ذلك يعدون الى العتب اذا أصبحوا يطلبون مالقى
(١)
فيها" .

(٢)
وأخذ البيهقى يذكر أسخياء البرامكة واحدا ثلث الآخر .
وعلى هذا النحو كان دأبهم مع الناس ، وعشقهم لمساعدة
الآخرين ، يتلذذون بالعطاء ، ويسعدون بفك الكربات ، يقول
أبو حيان التوحيدي فى "أخلاق الوزيرين" فى اطراء البرامكة
رغم أن أبا حيان هذا ، كان كثير الغرام بثلب الكرام ، إذ
(٣)
لم يترك أحدا من رؤساء زمانه الا وشتمه .

قال فى مدح البرامكة :

"أين أولئك البرامكة ؟ وأين نحن منهم اليوم ؟ كان
معروفهم يسع الصغير والكبير ، ويعم الفنى والفقر ، مرة

(١) المحاسن والمساوىء ص ١٩٣ .

(٢) انظر : المحاسن والمساوىء ص ١٩٣ وما بعدها .

(٣) التنوخى ، الفرع بعد الشدة ١٧٤/٣ .

(١)

يغرف ، ومرة ينزف ، مالهم هم الا تثميره " .

وفى مقارنة بسيطة عقدها محمد بن الجراح بين أسرة
البرامكة ، وأسرة آل وهب ، أوردها التوحيدى فى كتابه
"أخلاق الوزيرين" أيضا .. يقول فى الثناء على البرامكة ،
وذم آل وهب :

"كان آل برمك أندى من السحاب ، وآل وهب أخص من
(٢)
الكلاب" .

فلم يكن بمقدور غيرهم مجاراتهم فى الكرم والبذل
والعطاء ، قال محمد بن جميل الكاتب :

"كان البرامكة شفاء سقام دهرهم ، وغياث جذب عمرهم ،
(٣)
ومازالوا كهفا لاجئين ، ومفزعا للملهوفين" .

وكان البرامكة يقيمون من آفاق الأرض ، قال أعرابى
قصدهم من اليمن :

(٤)
"قصدت هؤلاء الأمجاد ، الذين انتشر صيتهم فى البلاد .."
وأصبح جود البرامكة على مر السنين ، مضرب المثال ،
قال الجواز :

"جاءنا فلان بمائدة ، كأنها زمن البرامكة على
(٥)
العفاة ..."

وعمت شهرة البرامكة فى السخاء ، جميع أنحاء الدولة ،
بحيث أن المقرئ فى "نفح الطيب" امتدح أحد أفراد الموحديين

(١) التوحيدى ، أخلاق الوزيرين ص ٤٨٩ ، ت : محمد الطبخى ،
ط/دمشق المجمع العلمى .

(٢) أخلاق الوزيرين ص ٣٨٠ .

(٣) التلوخى ، الفرغ بعد الشدة ١٧٣/٣ نقلا عن قطب السورر .

(٤) التلوخى ، الفرغ بعد الشدة ١٧٤/٣ نقلا عن تحفة
المجالس .

(٥) الحصرى ، زهر الآداب ٣٤١/٢ .

(١)

بالاندلس ، فوصفه ، بأن له حكايات فى الجود برمكية .
ويقول الرفاعى صاحب "عصر المأمون" مخاطباً القارئ فى
حديثه عن سخاء البرامكة :

"ربما تطلب إلى مثالا على جودهم ، وتعلق الناس بهم
فأبلغك ، أرشدك الله ، أن كتب الادب مليئة بالمئات من ذلك
بلامبالغة ولا تهويل ، ولا اغراق" .
(٢)

ولعل من المفيد إيراد بعض أعمالهم مع الناس ، فى شكل
قصة أو اثنتين ، تنجلي صورتهم فى الكرم وحب البذل ،
وسعادتهم فى ذلك .

رفع محمد بن عبد الله قصة الى المأمون يشكو فيها سوء
حاله ، بعد أن زالت نعمته بنكية البرامكة .
فدفعها المأمون الى أحمد بن أبى خالد ، وأمره أن
يحسن إليه ، وفعل حتى أصبح محمد هذا ، نديما لابن أبى خالد
لا يكاد يفارقه .

فحمل أن بعث اليه أحمد بن أبى خالد فاحتجب عنه
لمولود ولد له ، فغضب عليه ابن أبى خالد ، وحبسه وألبسه
جبة صوف ، ومكث فى سجنه مدة فسأل عنه المأمون ، فقص عليه
القصة ، وعظم جرمه ، وشكا إليه افتخاره بالبرامكة وتعظيم
شأنهم .

فأمر المأمون باحضاره ، فأقبل عليه مصفرا لقدره ،
وللبرامكة ، فقال محمد : ياأمير المؤمنين ، لقد صغرت من
البرامكة غير مصفر ، وذهمت منهم غير مذموم ، ولقد كانوا

(١) نفح الطيب ١٠٩/٣ .

(٢) عصر المأمون ١٤٨/١ ، الطبعة الثالثة ، دار الكتب
المصرية ١٣٤٦هـ .

شفاء أسقام دهرهم ، وغيث أجادب عصرهم ، وكانوا مفرعا
للملحوفين وملجأ للمظلومين ، وإن أذن لى أمير المؤمنين
حدثته ببعض أخبارهم ليستدل بذلك على صدق قولى فيهم ، ويقف
على جميل أخلاقهم ، ومحمود مذاهبهم فى عصرهم ، والأفعال
الشريفة ، والأيادى النفيسة .

فقال المأمون : هات ، فطلب محمد بن عبد الله أن يزال
قيده وجبته ، فزينا .. فبدأ فى رواية قصته ، قال : كنت
منقطعا إلى البرامكة وإلى الففل بالذات ، فطلب منى الففل
أن أدعوه إلى منزلى ، كما يدعو الصديق صديقه . فحاولت أن
أتهرب من تلك الدعوة - لصغر شائى ، وتواضع منزلى - غير
أنه أمر عليها ، فطلبت منه مهلة ليست بالقصيرة ، لانتهاية
لهذه الدعوة وأخذت فى فرش منزلى حتى أوشك الأجل الذى بيننا
على الانتهاء ، وبعد حلول الأجل ، حضر ومعه أبوه ، وجعفر .
فطلب الففل أن يقف على نعمتى صغيرها وكبيرها ،
وسألنى عن جيرانى ، فأخبرته بهم ، إلا كبيرا ، داره خلف
دارى لم أعرفه ، لايفتر فى بنائه ولايقصر .

فدعى الففل ببنا^٣ ، وأمره أن يفتح فى السور بابا ،
واقبل عليه يحيى وجعفر ، وطلبنا منه ألايتهمج على قوم
لايعرفهم ، وأمر على ذلك ، ففتح الباب ، ودخلنا بدار لم أر
مثلهما ، إلا عند الخلفاء والوزراء ، فأخذنا نطوف فى تلك
الدار العجيبة ، حتى وصلنا إلى الاسطبل ، فكان أحسن من
دارى ، وفى الدار مائة مملوك ، ومائة وميفة ، وفيها من
البغال أربعمائة .

فقال الففل : يامحمد ، هذه الدار بما فيها من الدواب
والرقيق والفرش والأوانى لك ، فقلت فى نفسى : يهب لك ملك

غيره !؟ فعلم ما فى نفسى فقال : يا محمد ، انى لما طلبت منك الدعوة قمت بشراء هذه الارض واقمت عليها هذه الدار فمبارك لك هى ، وذهب الى ابيه واخيه فأخبرهما بالخبر ، فرأيت أخاه جعفر قد معض من ذلك ، وتغير وجهه تغيرا عرفته ، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضل ، ويقول : يتفرد بمثل هذه المكرمة من دونى ، فلو شاركنى فيها لكانت يدا أشكرها منه !

فقال : يا أخى ، بقى لك قطبها ! قال : وما هو ؟ قال : ان مولانا هذا لا يتهىء له ضبط هذه الدار بما فيها إلا بدخل جليل ، فاعطه ذلك ، فقال : فرجت عنى يا أخى ! فرج الله عنك فدعا من وقته بمكناك ، لخمى قريات وقال : احتمل عنى خراجها ...

قال : فخرجوا عنى ، وأنا أيسر أهل زمانى .. فهل تلومنى يا أمير المؤمنين على ذكرهم والاشادة بفضلهم ؟ فقال المامون : ذهب القوم والله بالمكارم ! ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم وتقدم الى ابن أبى خالد فرد له مرتبته ، وميره فى جملة خواصه .^(١)

من الملفت للنظر فى هذه القصة وشبهاتها من القصص التى تحكى السخاء البرمكى ، ذلك التسابق بين أفراد هذه الأسرة إلى عمل الخير ، فهذا جعفر قد اغتاز من صنيع الفضل لأنه لم يشركه فيه ، وهذا كله ناتج من أصول التربية الحميدة ، فيحى بن خالد قد غرس هذه الخصلة فى بنيه ، ونشأهم عليها ، فمارت طبعاً فيهم .

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوىء ص ٢٠٤-٢٠٨ ، قصص العرب ٢٩١/١-٢٩٥ .

والقصة الأخرى التى اخترتها للتمثيل هنا ، يرويها أحد معاصريهم من أولئك الذين تنعموا بخيرات البرامكة وهباتهم وكان فى المقابل وفيما لهم ، لم تنهه نكبتهم أن يذكرهم بالخير ، بعد مماتهم ، وهذا لعمري قمة الوفاء .

عوتب اسحاق الموصلى لولائه وحبه للبرامكة ، وكان فى مجلس الفضل بن الربيع وزير الرشيد بعد البرامكة ، وكان ابن الربيع حانقا عليهم ، كارها لهم ، فاقبل اسحاق على الفضل ، فقال : اسمع منى شيئا أخبرك به ، مما فعلوه ، ليس هو بكبير صنائعهم عندى ، ولا عند أبى قبلى ، فان وجدت عذرا والا فلم .

وأخذ اسحاق يقص على الفضل بن الربيع سكنه مع والده فى دار واحدة ، وما كان يحصل بين جواريه وجوارى أبيه ، وغلمانه وغلمان أبيه ، من مشادات كما هى العادة بين هذه الطبقة ، حتى ضاق بها اسحاق ذرعا ، فاخذ يفكر فى استئجار دار أخرى ، فأسرج دابته وامتطأها وسار بغير هدى ، إلا أن دابته اتجهت به نحو دار يحيى ، وما أن رآه غلمان يحيى حتى رحبوا به فوق اسحاق فى حيرة من أمره ، هل يدخل الى الوزير فى زيه غير المناسب ، فان دخل بملابسه تلك كان سوء أدب منه ، أو يذكر بأنه جعله طريقا فيكون ذلك أشد قبحا ؟ ثم عزم ودخل ، واستغرب يحيى ذلك الزى ، فقال له : قد علمنا أنك جعلتنا طريقا .

فقال له : لا والله ياسيدى ، ولكنى أصدقك القول ، ولنكمل القصة مع اسحاق بالحديث عن نفسه : قال : فأخبرته القصة من أولها الى آخرها ، فقال يحيى : هذا حق مستو ،

أفهدا شغل قلبك ؟ قلت : أى والله ، وزاد فقال : لا تشغل قلبك بهذا . فأمر يحيى بخلعة له قلبها ، ودعا بدواة ، ورقعة ، وكتب أربع رقاع ظننت بعضها توقيعا لى بجائزة ، فإذا هو قد دعا بعض وكلائه ، فدفع إليه الرقاع ، وسارّه بشيء ، فزاد طمعى فى الجائزة ، ومضى الرجل ، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ، ثم اتكأ ونام ، فقامت وأنا منكسر خائب ، فخرجت وقدم لى حمارى .

فلما تجاوزت الدار قال لى غلامى : إلى أين تمضى ؟ قلت إلى البيت ، قال : قد والله بيعت دارك ، وأشهد على صاحبها وابتيع الدرب كله ووزن ثمنه ، والمشتري جالس على بابك ينتظرك ليعرفك ، وأظنه اشترى ذلك للسلطان ، لانى رأيت الأمر فى استعجاله أمرا سلطانيا ، فوقع من ذلك فيما لم يكن فى حسابى ، وجئت وأنا لا أدري ما أعمل ، فلما نزلت على باب دارى اذا أنا بالوكيل الذى سارّه يحيى قد قام إلى ، فقال لى : ادخل - أيدك الله - دارك حتى أدخل لمخاطبتك فى أمر احتاج اليك فيه ، قطابت نفسى بذلك ، ودخلت ، ودخل إلى فأقرانى توقيع يحيى : "يطلق لآبى محمد اسحاق مائة ألف درهم يبتاع له بها داره ، وجميع ما يجاورها ويلاحقها" .

والتوقيع الثانى الى الفضل : "قد أمرت لآبى محمد اسحاق بمائة ألف درهم يبتاع له بها داره ، فأطلق اليه مثلها ، لينفقها فى اصلاح الدار كما يريد ، وبنائها على ما يشتهى" .

والتوقيع الثالث إلى جعفر : "قد أمرت لآبى محمد اسحاق بمائة ألف درهم يبتاع له بها منزل يسكنه ، وأمر له أخوك

بدفع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها وممرتها على ما يريد
فأطلق له أنت مائة ألف درهم يبيع بها فرشاً له .

والتوقيع الرابع الى محمد : "قد أمرت لأبى محمد اسحاق
أنسا وأخواك بثلاثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ، ونفقة
ينفقها عليه ، وفرش يبتذله ، فمر له أنت بمائة ألف درهم
يمرفها فى سائر نفقته " .

وقال الوكيل قد حملت المال ، واشتريت كل شيء جاورك
بسبعين ألف درهم ، وهذه كتب الأبتياعات باسمى ، والاقرار لك
وهذا المال بسورك لك فيه ، فاقبضه . قال اسحاق مواصلاً
حديثه :

"فقبضته وأصبحت أحسن حالا من أبى فى منزلى وفرشى ،
وآلتى ، ولوالله ما هذا بأكبر شيء فعلوه لى ، أفألام على
شكر هؤلاء ؟

فبكى الفضل بن الربيع وكل من حضر وقالوا : "لوالله
(١)
لاتلام على شكر هؤلاء " .

أوردت هاتين القمتين دون غيرهما ، لاستخلص الشبه
بينهما فى :

- (١) اشتراك البرامكة فى البذل والعطاء ، وتسابقهم فى ذلك
وسعادتهم الغامرة فى اقالة عثرات الرجال .
- (٢) الاسراع فى الاعطية ، وغالباً مايجعلونها مفاجآت سارة ،
كما حدث فى القمتين السابقتين .
- (٣) حفظ الجميل ، واشماره فى الرجلين السابقين .

- (٤) اعجاب المأمون وتأثره فى القصة الاولى بالبرامكة ، وبكاء ابن الربيع واعذاره لاسحاق فى القصة الثانية ، واجلالهم لأعمال البرامكة ، واكبارهم لسخائهم ومذيعهم .
- (٥) ولو افترضنا أن خيال القصاصين قد أدخل على هذه القصص وأشباهاها شيئاً من التزويد والمبالغة ، فلاشك أن لها أصولاً بنى عليها ، وهى على كل حال تثبت ماكانت عليه هذه الأسرة من السخاء والبذل ، اما تشبها بالعرب فى الجود والعطاء ، واما تمكيننا لأنفسهم باستمالة الناس الذى أرجحه على ضوء تصرف الرشيد معهم هو التخريج الثانى . ولذلك عصف بهم قبل أن يمل إلى حال يصير فيه كالأسير فى قمره بلا حول ولا طول .
- (٦) قام يحيى بغرس هذه الخصلة فى بنيه ، قال فى وصيته لجعفر : "يابنى ، مادام قلمك يرعد ، فامطر معروفا" .^(١) وكان لسخاء البرامكة أصداء رائعة عند بعض معاصريهم من الأوفياء الذين لم تنسهم نكبة البرامكة أن يذكروهم بالخير ، ويعددوا مناقبهم ، معربين أنفسهم للهلاك - كما رأينا فى القميتين السابقتين - وكما فى تأبى محمد بن ابراهيم الامام اتيان الفضل بن الربيع بعد نكبة البرامكة ، فقد عوتب فى ذلك ، فحلف بالله العظيم أنه لو عمر ألف عام ثم مـص الثماد لما وقف بباب أحد بعد الفضل بن يحيى ، ولم يزل على ذلك حتى مات .^(٢)

(١) نبيه حجاب ، بلاغة الكتاب ص ٨٧ نقلا عن ظلال الخلفاء .
 (٢) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، قصص العرب ٢٧٠ ، ٢٦٩/١ .

وهذا ابن الزيات وهو فى التنوير يقول له خادمه قادحا
له فى سيرته مع الناس وبخله عليهم - قد صرت الى مامرت
وليس لك حامد ، قال : وما نفع البرامكة منيعهم ، قال
الخادم : ذكرك لهم الساعة ، فقال : صدقت .^(١)

وفى كثير من كتب الادب القديمة كثير من القصص التى
لا تخرج فى دلالتها عما ذكرت ، فهى مليئة بمشيلاتها .^(٢)
وقد صدق لحظة البرمكى حين قال يفتخر بجود آبائه
وكرمهم :

أنا ابن أناس مَوَّلَ الناسُ جُودَهُم

فأضحوا حديثا بالنوال المشهر

فلم يخل من احسانهم لفظ مخبر

ولم يخل من تقريظهم بطن دفتر^(٣)

وبعد أن قدمنا هذه القطوف التى تحكى لنا سيرة آل
برمك مع الناس وحبهم للانفاق والعطاء ، وشجرة ذلك من وفاء
الشعراء والكتاب وغيرهم . آن لنا أن نناقش بعض الامور التى
تلح على الباحث .

من أين كان مصدر ما بذلوه من مال ؟ أهو ملك لهم أم من
خزانة الدولة ؟ وهل هذا الكرم كان بدافع غريزى فى حب
الانفاق ؟ أم أنه كان وسيلة لامتلاك الناس بمعروفهم ؟ أم أن
هدفهم ارتفاع شأنهم بين الخاصة والعامة ؟

(١) الاصبهانى ، محاضرات الادباء ص ١٥١ .
(٢) انظر : المحاسن والمساوىء ص ١٩٣-٢١٠ ، الاثنائى ١٧٨/٥
قصص العرب ٢٧٤/١ ، نواح متفرقة ، المستطرف لابشيهى .
(٣) ذيل الامالى ص ٩٩ .

أما فيما يخص مصدر المال ، فأنه ولا شك من أموال الدولة ، وقد اعترف بذلك يحيى بن خالد من رسالة بعثها الى الرشيد من سجنه ، قال : "... لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا فى يدي عارية ، والعارية مردودة .." (١) .
ولأفكير فى ذلك ما دامت منافعها تعود الى الناس .

أما دافعهم وراء البذل ، فالقرايين ترجح أنهم كانوا يتشبهون بالعرب فى الجود ، وما أوردته من شواهد سابقة دليل على ذلك ، ولأنكر أن حب امتلاك الناس بمعروفهم ، وحب انتشار صيتهم من أهدافهم أيضا ، وذلك أمر غريزى ليس الإنسان يحب أن يكون حسن السمعة ، ذائع الصيت فى الخير .
وفى توصية يحيى بن خالد لمؤدبى ابنه إبراهيم ما يشير الى ذلك :

سألهم يحيى عن حال ابنه ... "ما حال ابنى هذا ؟ قالوا قد بلغ من الأدب كذا وكذا ، ونظر فى كذا وكذا قال : ليس عن هذا سألت ، قالوا : قد اتخذنا له من الضياع كذا وغلته كذا قال : ولا عن هذا سألت إنما سألت عن بعد همته ، وهل اتخذتم له فى أعناق الرجال مئنا ، وحببتموه الى الناس ؟ قالوا : لا ، قال : فبئس العشاء أنتم والأصحاب ، هو والله الى هذا أحوج منه الى ما قلتم ! ثم أمر بحمل خمسمائة ألف درهم اليه ففرقت على قوم لا يدري من هم" (٢) .

(١) ابن عبد ربّه ، العقد ٣٢٧/٥ .

(٢) البيهقى ، المحاسن ص ١٧٠ .

الفصل الثالث

نشرهم ، وسماته الفنية

(أ) توجيهات البرامكة وارشاداتهم لمعاصريهم من الكتاب .

(ب) نشرهم وفنونه ، وسماته .

(١) الرسائل

(٢) التوقيعات

(٣) الحكم والاقوال

(ج) نتائج الباب .

ساعد المناخ العام فى العصر العباسى على تطور أساليب الكتابة عموماً والنثر الفنى خصوصاً وعلى سرعة انتشاره ، ولعل من أبرز العوامل التى كانت وراء رواجه ورقيه .

(١) مع اتساع رقعة الدولة ، وتراعى أطرافها ، كانت الحاجة ماسة الى وسيلة أسرع وأجدى لتسيير دفة الأمور فيها ، وانجاز مهامها ، بين مركز الخلافة ، وأقطارها الكثيرة المتباعدة ، فكان النثر بمقامه المختلفة المتعددة قائماً بهذه الوسيلة الإعلامية خير قيام .

(٢) أضحت النثر الفنى فى زمن الأسر لغة الحضارة ، والتطور العقلى . وبما أن العباسيين قد بلغوا من التحضر مبلغاً جعلهم فى نظر العالم آنذاك محط الأنظار ومكان القدوة ، فكان لزاماً عليهم الاعتماد على النثر ، وإبراز قدراتهم فيه ، وهذا ماكان .

(٣) أصبحت الكتابة طريقاً إلى العمل فى دواوين الدولة ، ومجالاً للتنافس على أبواب المجد والشهرة ، ومنها أطلت الأسر التى نحن بمدها ، فذاع صيتها ، وتولت أسنى مراكز الدولة ، وهذا دافع قوى للأخذ بأسباب الكتابة عموماً ، والكتابة الفنية خصوصاً .

لهذه الأسباب اتجه كثير من أهل القدرات والمواهب إلى تجويد الكتابة ، فمال فيها رجال كثير من الكتاب ، ومجموعة من الأسر ، لاسيما الفرس وهم الجار الأدنى للعرب وبينهما ملات وعلاقات قديمة ، فلما ظهر الإسلام ودخلت فيه أمم كثيرة ، وتكونت الدولة العربية ، كان الفرس أسرع من سواهم إلى الدخول فى خدمتها .

يقول ابراهيم الصولي في مناظرته أحد الشعراء الذين يرون أن زمن الشعر كان في العصر الأموي :

"... إن كانت دولة بنى أمية حلبة الشعراء ، فدولة بنى هاشم حلبة الكتاب..." (١)

ولقد كانت كذلك حقا ، حتى أوشك بعض كتاب هذه الأسر بفضل صناعتهم يسمقون الخليفة في مجده .

والبرامكة من أوائل الأسر التي اشتغلت بالادب ، في العصر العباسي وتفوقت بفضل اتقانها لمناعة الكتابة ، مع شائليها الأخرى ، فتسمنت ذروة المجد ، ونالت به أسنى مراكز الدولة العليا في العصر العباسي ، حتى لقد غلبوا على أمر الرشيد في نهاية المطاف .

مر بنا في أولى صفحات هذا الباب ، إعجاب عبد الله السفاح بخالد البرمكي لبلاغته ، وحسن بيانه ، فقد ظنه لذلك من العرب الأقحاح ، فقربه ، وأحسن مكافأته ، وفتح باب المجد لبنى برمك ، فعرفهم الخلفاء ، ورأوا حنكتهم وحسن تدبيرهم ، وجملته من محاسنهم ، مع فضلهم في الصناعة ، كل ذلك قربهم من العباسيين ، فوضع الرشيد شقته فيهم حينما من الدهر ، خدموا فيها الدولة في مجالات عدة ، يهمننا هنا النواحي الفنية ، وهو موضوع هذا الفصل .

قبل أن نخوض في مآثرهم الفني ، ونتأجهم الأدبي ، حري بى أن أشير إلى بعض آرائهم ، وتوجيهاتهم لمعاصريهم من الكتاب ، وإلى اهتمامهم بأدوات الكتابة .

(١) أبو بكر الصولي ، أخبار أبي تمام ص ١٠٩ ، د. السامرائي ، أسرة آل وهب ص ٧ .

وذلك لإبراز ناحيتين هامتين ، أولاهما : معرفة نهج هذه الأسرة فى الكتابة من خلال توجيهاتهم لكتاب عصرهم اذ لا يُعقل أن يوجهوا غيرهم بخلاف نهجهم ، أو يوجهوهم وهم دونهم . ثانيهما : رفعة شأنهم أدبيا وسياسيا حول لهم اسداء النصح والتوجيه والإرشاد إلى كتاب عصرهم ، ساعدهم نظرة كتاب عصرهم اليهم ، فقد كانوا لغيرهم فى محل القدوة ، ومن المؤكد أن دعواتهم كانت تجد صدى طيبا فى نفوس المعاصرين .

نظر البرامكة للكتابة من زاويتين :

الأولى : أن الكتابة موهبة وصنعة ، يتدرج فيها الكاتب رقيا بقدر حظه من الموهبة ، وتمكنه من الصنعة .

الثانية : أن الكتابة حرفة يمارسها عمال الكتابة فى الدواوين ، يقابلهم الموظفون الإداريون فى أيام الناس هذه .

وكلا الضربين يتضمنان مؤشرا حضاريا لما بلغته الدولة من تنظيم مرافقها ومؤسساتها ، وضبط شئونها .

ومامن شك فى أن تعايشهم مع الكتابة وأدواتها التى فرضتها طبيعة الصنعة ، جعلتهم يصفون القلم والخط ، فيحیی ابن خالد يشبه الخط بجوارح الانسان ، لما له من أهمية فى إيضاح المضمون ، واظهار الفكرة ، يقول :

"الخط صورة روحها البيان ، ويدها السرعة ، وقدمها التسوية ، وجوارحها معرفة القمُول" (١) .

وهى دعوة ظاهرة إلى الاهتمام به ، واتقائه ، فالخط الجيد ترتاح إليه النفس ، وتقبل عليه ، وترفع من أسمه كاتبه .

(١) الحموى ، معجم الأدباء ، ٧/٢٠ .

ومن هذا الاهتمام والتوجيه ، توقيع جعفر بن يحيى فى كتاب أعجبه خطه :

قال : "الخط ضبط الحكمة ، ينظم فيه منشورها ، ويفمل فيه شذورها" .^(١)

وعلى النحو الذى رأينا توالت دعواتهم ظاهرة وخفية إلى الاهتمام بأدوات الكتابة وعدم اغفال أية ناحية من نواحيها ، فهى فى النهاية تمثل وحدة فنية لإبراز العمل الأدبى بالشكل المطلوب .

ومن أبرز أدوات الكتابة القلم ، يقول يحيى بن خالد فى وصف حركى تمويرى رائع :

"مارأيت باكيا أحسن ضحكا من القلم" .^(٢)

يعنى ببكائه نقط المداد من سنه ، وبضحكه مايسر به القارئ من الكلام المكتوب .

يلاحظ من توجيهات البرامكة السابقة ، ذلك الإيجاز البليغ . ولاعجب فقد كانوا كلفين بالإيجاز غاية الكلف ، شغوفين به ، يتخذونه ديدنا فى كتاباتهم ، ويدعون غيرهم من المعاصرين اليه ، ويحثونهم على تجميل كتاباتهم به .

ومامن شك فى أن دعواتهم تلك ، كانت تجد لها صدى طيبا ونفسا مستجيبة طائعة ، وليس أدل على ذلك من توقيع عمرو بن مسعدة فى رقعة رفعت إلى جعفر بن يحيى من حشمه ، يستزيدونه فى أرزاقهم فأثر عمرو الإيجاز على منهج جعفر ، فكتب :

(١) الحميرى ، زهر الآداب ٤٢١/٢ ، طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة ٧٩/١ ، روى فى الطبرى ١٨٦/٦ قوله : "الخط سمة الحكمة ، به يفمل شذورها ، وينظم منشورها" .

(٢) الثعالبى ، خاص الخاص ص ٣ .

(١)

"قليل دائم ، خير من كثير منقطع" .

فأوجز غاية ما أمكنه دون خلل أو نقص ، ودمج الحكمة

فيه .

ومن شدة إعجاب جعفر بهذا الإيجاز - البليغ الذى لامس

نفسه ، ووافق مذهبه - ضرب على ظهره ، وقال :

(٢)

"أى وزير فى جلدك" .

ونجد جعفر بن يحيى فى موطن آخر يدعو كتابه إلى

الإيجاز صراحة ، قال :

(٣)

"أن قدرتم أن تكون كتبكم كلها توقيعات فافعلوا" .

وإن كان جعفر مغرما بالإيجاز إلا أنه لا يدعو إليه فى كل

الأحوال ، فالمقام هو الذى يحدد الطريقة فى التعبير إيجازا

أو اسهابا ، يقول فى بيان ذلك من توقيع إلى عمرو بن مسعدة

وفيه توجيه إلى معاصريه من الكتاب :

"إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرا ، وإذا كان

(٤) (*)

الإيجاز كافيا كان الإكثار عيبا" .

نخلص من هذا إلى أن البرامكة بمجدها السياسى والأدبى

كانت تقوم بدور ريادى فى توجيه جيلهم من الكتاب ، كما سبق

وأن قاموا بهذا الدور مع الشعراء .

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٤٧٦/٣ وينسب هذا التوقيع فى خاص الخاص ص ٧١ إلى أنس بن أبى شيخ ، والأول أصح وأشهر .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٤٧٦/٣ .

(٣) المبرد ، الكامل ٣٩٣/١ ، أنيس المقدسى ، تطوّر الأساليب النثرية فى الأدب العربى ص ١٤٠ .

(٤) أبو على القالى ، الأمالى ٢٢٢/١ ، أحمد مفلت ، جمهرة رسائل العرب ٣٨٧/٤ .

(*) فى نقد النثر لقدامة بن جعفر ص ٩٧، ٩٦ ، وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار هذرا .

لم تكتف بما أخرجته لنا من أدب راق ، فتجاوزته الى التوجيه والارشاد ، وكانت دعواتهم كما أسلفت تجد في معاصريهم وقعا حسنا وآذانا صاغية ، لاسيما أن هذه الأسرة ظفرت بمنزلة عالية ، وتقدير كريم من الخلفاء وآلت اليهم سلطات كثيرة ، فطبعى أن يستجاب لهم رغبا أو رهبا ، وأرجح الاولى .

نشرهم الفنى .

تعددت أغراض النشر الفنى عند البرامكة ، وتنوعت فنونه ، لتشعب أمور الحياة فى العصر العباسى .
 ويأتى فى طليعة ما أنتجوه ، فن الرسائل ، وديوان الرسائل من أقدم الدواوين ، يضىء ذلك القلقشندى فى "صبح الإعشى" ، فقد أشار الى أن هذا الديوان أول ديوان وضع فى الاسلام ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يكتب أمراءه ، وأصحاب سراياه من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، ويكاتبونه ، وكتب الى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم الى (١)
 الاسلام .

ولم تزل الحاجة ملحة الى خدمات هذا الديوان ، وبالاخص فى العصر العباسى ، عصر الفتوحات ، والانتشار . فقد أضحت الدولة لذلك ، فى حاجة ماسة الى ترتيب أمورها ، وتنظيم ادارتها ، ولا يتم لها ذلك بمعزل عن هذا الشريان المهم فى تسيير دفة أمور الدولة ، لذا أولته الخلافة العباسية جل اهتمامها ، وبالف عنايةها ، حتى أصبح القائم على الديوان وزيرا أو يوازيه .

(١) صبح الإعشى ١٢٥/١ .

الرسائل :

ولاتخرج الرسائل عن نمطين اثنين ، تعارف عليهما أهل
المنعة ، فاما أن تكون :

(أ) شخصية أو (ب) رسمية

(أ) والنوع الأول يمثل الطفرة التي عاشها العباسيون ،
والحضارة التي تقلبوا فيها ، وسعدوا بها ، وهي أعلق
بالفن من الرسمية ، لتحرر الكاتب في انشائها دون
قيود أو رسوم ، فيترك لقلمه عنان التعبير عما تجيش
به نفسه .

وفوق ذلك زاحم هذا النوع من الرسائل الشعر في أغراضه
فعالجت قضايا كانت قبل ذلك قصرا على الشعر (كالتهنئة ،
والتعزية ، والرثاء ، والوصف ...) .

وعلى كل ، فقد كثرت الرسائل الشخصية الاخوانية في أدب
البرامكة وتعددت مناحيها ، وتباينت مقاصدها ، فمنها ما جاء
في النصيح والارشاد ، ومنها رسائل الرجاء ، والاستعطاف ،
ورسائل العتاب ، وغيرها من مقاصد الرسائل الاخوانية .

النصح والارشاد :

من الأغراض الهامة في الرسائل الاخوانية شاع بين يحيى
ابن خالد وبنييه ، بقصد التربية السليمة ، والتوجيه
السديد .

وغالبا ما يميز كاتب هذا النوع من الرسائل ، الخبرة
بالحياة ، والدراية بشئونها ، فيفيض علينا ببعض تجاربه
المستقاة من صميم الحياة .

وأبرز سمات هذه الرسائل الإيجاز مع صدق العاطفة .

يُدرج تحت هذا المقصد من الرسائل الاخوانية ، كتاب
يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل ، وكان الرشيد قد قلده

خراسان ، فتوجه اليها ، وأقام بها مدة ، وورد على الرشيد يوماً كتاب صاحب البريد بخراسان ، ويحيى بين يديه ، يذكر فيه أن الفضل متشاغل بالصيد وادمان اللذات ، عن النظر فى أمور الرعية ، فلما رآه الرشيد رمى به الى يحيى ، وقال له ياأبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب اليه بما يردعه عن مثل هذا ، فمد يده الى دواة الرشيد ، وكتب الى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد :

"حفظك الله يابنى ، وأمتع بك ، قد انتهى الى أمير المؤمنين مما أنت عليه ، من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات ، عن النظر فى أمور الرعية ماأنكره ، فعاود ما هو أزين بك ، فانه من عاد الى مايزينه أو يشينه ، لم يعرفه أهل دهره الا به ، والسلام" .

وكتب فى أسفل الرسالة الابيات التالية :

انصب نهارا فى طلاب العلا

وامبر على فقد لقاء الحبيب

حتى اذا الليل أتى مقبلا

واستترت فيه وجوه العيوب

فكابد الليل بما تشتهى

فانما الليل نهار الأريب

كم من فتى تحسبه ناسكا

يستقبل الليل بأمر عجيب

غضى عليه الليل أستماره

فبات فى لهو ، وعيش خصيب

ولذة الأحمق مكشوفة

يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر الى ما يكتب ، فلما فرغ قال : أبلغت

ياأبت ، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهارا

(١)

الى أن ينصرف من عمله .

والأدب أى أدب هو ابن البيئة ، يتأثر بما حوله سلبيًا وإيجابيًا ، بمعنى أنه انعكاس طبيعي لأحوال المجتمع ، يمثل ما يدور فيه من كل نواحيه .

ففى هذه الرسالة تظهر بعض الملامح الاجتماعية الهامة ، نستشف منها :

(أ) علو مكانة صاحب البريد ، ولعلها تفوق أحيانًا مكانة حاكم المدينة ، كما فى الرسالة ، فهو عين الخليفة ، مسئول عن نقل أخبارها وأحوالها ، وما يدور فيها من أحداث . وهو مظهر اجتماعى جديد .

(ب) أخذ المسجد - فى هذا العصر - أبعادًا أخرى غير التعبد والدرس ، إذ أصبحت أعمال الدولة تدار من خلال أرواقه وهذه سمة جيدة وجديدة من سمات العصر العباسى .

(ج) والرسالة تمثل روح العصر من الجنوح الى اللذات ، بعد استقرار الدولة ، واتساع رقعتها ، وكثرة الأموال فى أيدي الناس .

ولم تخل الرسالة فى مجملها من لمسات فنية ، وإن لم تعمل الى حد الامتناع ولعل موضوعها لا يحتمل ذلك ، فالغرض (التوجيه والارشاد) .

ومن أبرز سماتها الفنية (التوكيد) بغية التأثير على الفضل ، وعدوله الى الجادة ، وكان ذلك من عدة أوجه ، وبأكثر من طريقة .

فتارة يؤكد جملة بأخرى ، كما فى توكيده الجملة الاولى (قد انتهى الى أمير المؤمنين مما أنت عليه ، من التشاغل

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٢٨/٤ ، المسعودى ، مروج الذهب ٣/٣٧٧، ٣٧٨ ، أحمد مقيوت ، جمهرة رسائل العرب ١٥٦/٣ ، ١٥٧/٣ .

بالصيد ومداومة الذات) بالجملة الثانية (عن النظر فى أمور الرعية) ، لانه ان كان متشاعلا بالصيد وبمداومة الذات يكون بالتالى منصرفا عن النظر فى أمور الرعية ، غير أنه اثر هذا النهج كى تؤدى الرسالة مفعولها فى نفس الفضل وفى سلوكه .

ومن التوكيد ، تذييل الرسالة بأبيات تصب فى الغرض نفسه ، وتؤيده ، وفيها كرر يحيى الليل خمس مرات ، ليؤكد للفضل أن الليل أستر لمن أراد الذات ، ولايعنى هذا دعوته الى مقارفة الذات ليلا ، ولكن رده عن المجاهرة بها نهارا .

وتذييل الرسائل الفنية بأبيات من الشعر ، كما هو شائع ، يجعلنى أميل الى القول بأن الكتابة الفنية على الرغم من تطورها فى هذا العصر ، وبلوغها شأوا عظيما ، إلا أن الشعر مازال محتفظا بمكانته ، وتأثيره على النفوس . ومن سماتها الفنية أيضا ، الاستهلال بالدعاء له ، "حفظك الله يا بنى ، وأمتع بك" عوضا عن البسملة التى كانت شائعة فى كتابات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى الصدر الأول .

ومن أظهر سمات هذه الرسالة وأبرزها هذا الإيجاز البليغ ، فهى تقارب التوقيع من حيث إيجازها . والحق أن الإيجاز فى مثل هذا النوع من الرسائل أدهى الى سرعة الاستجابة ، والقبول والرضى ، عكس الاسهاب الذى يمسبب النفس بالملل ، ويأتى بنتائج عكسية غير المرتجاة ، فالنفس السوية التى تحيد عن الجادة ، لا تحتاج الا الى شىء من التذكير لتعود ثانية الى جادة الطريق .

والرسالة تفيض بصدق العاطفة المنبعث من حنان الأبوة .
ومنها أيضا مأسطره يحيى أيضا ، لابنه جعفر ، لما
أعياه الحيلة فى ترك منادمة الرشيد ، كتب :

"إنى إنما أهملتكَ ليعثرَ الزمان بك عشرة تعرفُ بها
أمركَ ، وإن كنت لآخى أن تكون التى لاشوى بعدها " .
(١)

ثم الرسالة على وجازتها ، عن الأمور التالية :
* نهج يحيى المميز فى تربية أبنائه ، عن طريق
التجربة التى تهديه . إلى المواب ، ولم يتخذ هذا الأسلوب
التربوى إلا بعد أن أعياه الحيلة فى التوجيه القولى ، فحين
لاتبلغ الكلمة مبلغها من التأثير والتوجيه ، لايفيد إلا
الفعل ، فقد يذكر الغافل ، ويرده الى الجادة .

* بصر يحيى وحذركه ، يتمثلان فى توجهه من الإيقاع
بجعفر ، ومن ثم بهم كلهم لأن كثرة المداخلة ، والتبسط قد
يدلان الخليفة على ماينكره من منادمية ، أو يسأم ويمل ،
فيفقدون الحظوة لديه .

* وعلى كل فالرسالة - على اقتضاها ووجازتها - تؤكد
خبرة يحيى بن خالد بآداب معاملة الملوك ، كما تؤكد علو
كعبه فى الأداء البليغ .

ولأن الرسالة كانت تغلى غضبا وحنقا على جعفر فقد ملئت
بالمؤكدات مثل قوله : "إنى إنما أهملتكَ ..." فالاهمال لم
يكن عن غفلة أو تقصير ، وإنما هو اهمال قمد به أن يصطدم
جعفر بالواقع ، فيفيق ويستقيم .

(١) أحمد مfout ، جمهرة رسائل العرب ٣/١٩٠ ، تاريخ الطبرى
٢٩٣/٨ .

كما تفيد الجملة اللاحقة - "وإن كنت لأخشى أن تكون
التي لاشوى بعدها" - مخاوف يحيى من هذه المندامة ، فيجند
لها مجموعة من المؤكدات ، مثل إن واللام فى لأخشى وما بعدها
حتى تقع فى نفس جعفر وتؤثر فيه ، ويرجع عن المندامة ،
ورغم كل ذلك ، لم تقع فى نفسه ، واستمر على حاله حتى هلك
بيد الرشيد .

فأبرز ما يميز هذا المقصد من الرسائل الإخوانية ،
الإيجاز المؤثر البليغ ، مع صدق العاطفة الناتج من حنان
الأبوة وخوفه على بنيه ، وأبرز ما يميز كاتبها الدراية
بالحياة ، وبشئون الناس ، مع التجافى عن الاغراب ، وسلاسة
العبرة ووضوحها .

ومن الرسائل الإخوانية الشخصية كتاب يحيى إلى يوسف بن
القاسم وهو من كتابهم ، وكان قد طلب بعض المال لزواج ابنه
أحمد .
(*)
(**)

كتب :

"هذه فضيلة فى أوليائنا ، وحقوق فى ضيافتنا ، فنحن
بالقيام منها دونك حريون ، وبحظ نقلها عن مالك جديرون ،
وقد أمرت لأحمد بما سألت من المال ، بمسألتك فيه ، وزيادة
الضعف ، استظهارا منى له ومؤكدا ، وأمرت باستحقاقك لشهرين

(*) يوسف بن القاسم بن صبيح ، كاتب ، من بيت بلاغة وفضل .
كان من كتاب بنى أمية وخدم الدولة العباسية ، هو أول
من بشر هارون الرشيد بالخلافة ، وعهد إليه يحيى بن
خالد بأن يكتب إلى الأفاق بالخبر ، ت ١٨٠هـ .
الأعلام ٢٤٥/٨ .

(**) أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح ، وزير من كبار
الكتاب ، ولى ديوان الرسائل للمأمون واستوزره بعد
أحمد بن أبى خالد ، توفى ببغداد سنة ٢١٣هـ .
الأعلام ٢٧٢/١ .

من مال السلطان - أعزه الله - ومثله صلة من مالى ، وأنفذت اليك بذلك كله رقاعا بخطى إلى من تقبض ذلك منه ، فأما السلف من مال السلطان فلاسبيل اليه ، ولا أعرف جعفرًا بشارك أحمد اليك ، ولا اليّنا ، كما لم يترك الفضل قاسما ان شاء الله " .

وأنشأ فى نهايتها :

عندى لمثلك احسانٌ وتكرمة

فثق بذلك منى ، وابسط الأمل

إعمل على ثقةٍ إنى أنا رجلٌ

لا أمنعُ المرءَ مَوجودا إذا مَلا

وان عندى لمثلك الحُسنِ وناقلةً

بُنُصِحَ غُيُوبِكِ إِذْ لَمْ تَبْغِ بى بدلا (١)

تقرر الرسالة الآتى :

(أ) الاعتراف بحق أحمد بن يوسف على البرامكة لانه من

أوليائهم الذين نشأوا فى نعمتهم وكنفهم .

(ب) الحرص على مال السلطان الذى هو مال الدولة .

(ج) يحيى بن خالد يزرع فى بنيه خلاصا حسنة ، أبرزها الكرم

ينشئهم على حب العطاء ، والبذل ، وهى عادة اعتادها

يحيى فى تربية أبنائه .

وهنا اختص جعفر برعاية أحمد ، واختص الفضل بالقاسم .

سماتها الفنية :

(أ) يكثر يحيى من تذييل رسائله بأبيات من انشائه ، تؤكد

ما جاء فى صلب الرسالة ، حتى أصبحت هذه الطريقة من

أبرز سمات الرجل فى الكتابة .

(ب) يجنح كعادته إلى الاستعانة بالجمل المترادفة التى تكرر المعنى لزيادة التأكيد ، و اظهار بالغ اهتمامه كما فى قوله "فنحن بالقيام منها دونك حريون ، وبحظ نقلها عن مالك جديرون" .

(ج) ويميل إلى السجع الذى يأتى عفو الخاطر ، كما فى سجعه بين لفظتى (حريون ، وجديرون) ، وهو من المحمود لخلوه من التكلف .

(د) تحرر يحيى من المقدمات ، فآثر معالجة الموضوع ، ومباشرة الغرض دون مقدمات ، أما القفلة فكانت بقوله "إن شاء الله" .

(هـ) الدعاء للخليفة بالعزة - أعزه الله - .

(الرجاء والاستعطاف) :

وهو من أغنى المقامد الشخمية فنا وإبداعا ، فبعد أن حلت بالبرامكة النكسة المعروفة ، وأودعوا السجن ، تحركت قدرات يحيى بن خالد ومواهبه الفنية فى الكتابة ، وتفاعل مع الأحداث التى عمفت بهم ، فأنشأ روائعه الاستعطافية موجهة إلى الرشيد، وكله أمل فى أن تجد مداها إلى نفس الخليفة ، منها رسالته من سجنه إلى الرشيد .

كتب :

"لامير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وامام المسلمين وخليفة رب العالمين ، من عبد أسلمته ذنوبه ، وأوبقته عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورقضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، فحل فى الضيق بعد السعة ، وعالج البؤس

بعد الدعة ، واقترب السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد
المجود ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، وقد عاين الموت ،
وشارف الفوت ، جزعا لموجدتك ياأمير المؤمنين ، وأسفا على
مافات من قربك ، لأعلى شيء من المواهب ، لأن الأهل والمال
إنما كانا لك وبك ، وكانا فى يدى عارية ، والعارية مردودة
وأما ماأصبت به من ولدى فيذنبيه ، ولاأخشى عليك الخطأ فى
أمره ، ولأن تكون تجاوزت به فوق حده .

(*)
تفكر فى أمرى جعلنى الله فداك ، وليمل هواك بالعفو
عن ذنب إن كان ، فمن مشى الزلل ، ومن مثلك الاقالة ،
وإنما اعتذر إليك باقرار مايجب به الإقرار ، حتى ترضى ،
فاذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك أمرى ، وبراءة
ساحتى ، ملايتعاضمك بعده ذنب أن تغفره ، مد الله لى فى
عمرك ، وجعل يومى قبل يومك .
(١)

وذيها بأبيات باكية ، تحكى سوء حاله ، وترتجى

العفو :

قل للخليفة ذي المنية ————— ، والعطايا الفاشية
 وابن الخلائف من قريــــــــــــــــش ، والملوك العالية
 إن البرامكة الذيــــــــــــــــن ، رموا لديك بداهية
 صفر الوجوه عليهمْ خَلَعُ المذلةَ بادية
 فكأنهم مما بهم أعجاز نخل خاوية
 عمدتهم لك سخطــــــــــــــــة^١ لم تبق منهم باقية

(*) في الجمعة ١٩٢/٣ : "فتذكر يا أمير المؤمنين كبر سنى
وضعف قوتى ، وارحم شيبتى ، وهب لى رضاك بالعفو عن

(١) ابن عبد ربّه ، العقد ٣٢٦/٥ - ٣٢٨ ، الاثليدي ، اعلام
الناس بما وقع للبرامكة ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، ط/٣ ، ١٣٧٤هـ .

بعد الإمارة والوزا	رة والامور السامية
ومنازل كانت لهم	فوق المنازل عالية
أضحوا وجلُّ مناهم	مذك الرضا والعافية
يامن يود لى الردى	يكفيك مئى ما بييه
يكفيك ما أبصرت من	ذلى وذل مكانيه
وبكاء فاطمة الكئيبة	والمدافع جارية
ومقالها بتوجشع	ياسواتى وشقائيه
من لى وقد غضب الزما	ن على جميع رجاليه
يالهمف نفسى لهفها	ماللزمان وماليه
يعاطفة الملك الرضا	عودى علينا ثانيه

ويذكر ابن عبد ربه فى عقده ، أن الرشيد لم يجب على
(١)
هذه الرسالة .

لكل مقام مقال ، وقد اقتضى مقام الاستعطاف هنا اسهابا
لم أعمده فى الرسائل السابقة ، حيث أفاض فى مطلع الرسالة
فى ذكر النعوت واللقاب (أمير المؤمنين ، وخليفة المهديين
وامام المسلمين ...) فوضعه فى المنزلة التى قد ترضى بها
نفس الخليفة ، فيعفو .

وفى المقابل أفاض فى شرح عبوديته وهوانه ، وهلاكه
بعيوبه ، وخذلان الشقيق ورفض الصديق .

ثم استرسل فى بيان جزعه لموجدة أمير المؤمنين عليه ،
حتى صارت ساعته شهرا وليلته دهرا ، وعالج البؤس بعد الدعة
وافترش السخط بعد الرضا ، وعاین الموت ... ، وهذا البسط
كله ماهو إلا استدناء لعفو الخليفة .

ويبلغ يحيى أقصى التلطف فى استرضاء الخليفة ، فيبدي له أن الرزء ليس فيما ذهب عنه من عرض الدنيا (لأن الأهل والمال انما كانا لك وبك) ، وانما الرزء كله فى أن يجد عليه .

ولا جد ضراعة تسحق النفس ، ولا تبقى بها اشارة من صبر ، وجلد كهذه . فهو يلتمس للخليفة الأعذار فى قتل جعفر ، ويقول انه قتل بذنبه . وأن الخليفة مسدد ، لا يخشى فى حكمه خطأ ولا تجاوزا .

وتظهر بجلاء بلاغة يحيى فى اختيار ألفاظه ، ووضعها بدقة فى مواضعها من الجمل ، بحيث توحى بأكثر مما تدل عليه .

يقول (خذله شقيقه ، ورفضه صديقه) فالخذلان يناسب الشقيق ، والرفض يناسب الصديق ، ولو استبدل الخذلان بالرفض أو الرفض بالخذلان لما كان لائى منهما هذه الدلالة الدقيقة العميقة .

(وعالج البؤس بعد الدعة ، واقترب السخط بعد الرضا) فالبؤس لا يطيقه من كان فى دعة ، وانما يعالجه علاجاً ، واقترب السخط يوحى بكل ما انتهى إليه حاله .

وكان رائعاً دقيقاً فى انتقائه للألفاظ ، والانسجام التام بين كل لفظة وأخرى فتعطى بذلك أدق المعانى وأكملها يقول أيضا : (...) وشارف الفوت جزعا لموجدتك يا أصير المؤمنين) فالمشاركة أشد الاقتراب من الموت ، والجزع أقصى حالات الخوف ، ولاشئ بعد الجزع من مودة الخليفة إلا الموت ذاته .. وهذا النداء بعد ذلك (يا أصير المؤمنين) انه فى

موضعه يشف عن منتهى التلطف والتقرب .
ولم تكن هذه القطعة الفنية خلوا من الموسيقى المؤثرة
المنبعشة من بعض سجعات تثلث الأذن بسماعها بين الفينة
والفينة فى ثنايا هذه المقطوعة ، وتمنح المعنى قوة الى
قوة .

(المؤمنين ، المهديين ، المسلمين ، العالمين)

(... أسلمته ذنوبه ، أوبقته عيوبه)

(خذله شقيقه ، رفضه صديقه)

(الزمان ، الحدثان)

(شهر ، دهر)

(الموت ، الفوت)

ولم ينقطع رجاء يحيى وأمله فى عطف الرشيد ، فنجده
يكسر رسائله الى الخليفة ، المرة تلو الأخرى ، وآخرها
رسالته من سجنه أيضا الى الرشيد .
كتب :

"يا أمير المؤمنين ان كان الذنب خاصا ، فلاتعمن

(١) (*)

بالعقوبة ، فان الله عز وجل يقول : {ولاتزر وازرة وزر أخرى}

يسرى ابن عبد ربه فى العقد ٣٢٨/٥ أن الرشيد لم يجب
على رسالة يحيى السابقة ، وفى رواية أخرى أوردتها
صاحب الجمهرة ١٩٣/٣ ، ١٩٤ أن الرشيد رد عليها بكتاب :
"ان أمير المؤمنين لم يأت على ولدك اللعين ، ومن
رأيه ترك الباقين ، ولم يأمر بحبسك وهو يريد بقاء
نفسك ، انما أخرجواهم لتعالج البؤس بعد النعيم ،
ثم تصير الى العذاب الاليم ، فأبشر أيها المخادع
الزنديق ، والمخالف الفسيق بما أعد لك أمير المؤمنين
من تبديد شملك ، وخمول ذكرك ، واطفاء أمرك ، فتوقعه
صباحا ومساءً " .

وقع الرشيد {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة
يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله
فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون} .

(*) الانعام : ١٦٤

(١) أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب ١٩١/٣ .

والرسالة على وجاتها واقتضاها توحى بأن تنكيل
الرشيد طفق بحجاوز جعفر إلى من يليه من البرامكة استئصالا
لهم ، يستعين يحيى بالآلية الكريمة ليؤكد للخليفة براءة
ساحته .

وحيثما فقد يحيى الأمل فى العفو ، دعا برقعة فكتب فى
عنوانها :

ينفذ أمير المؤمنين أبقاه الله عهد مولاه يحيى بن
خالد وفيها كتب :

"بسم الله الرحمن الرحيم : قد تقدم الخمم إلى موقف
الفمل ، وأنت على الأثر ، والله حكم عدل ، وستقدم فتعلم" .
(١)
فلما شغل عليه ، قال للسجان ، هذا عهدى توصله إلى
أمير المؤمنين ، فانه ولى نعمتى ، وأحق من نفذ وصيتى ،
فلما مات يحيى أوصل السجان عهده إلى الرشيد ، قال سهل بن
هارون وأنا عند الرشيد إذ وصلت الرقعة ، فقلت له : يا أمير
المؤمنين ألا أكفيك ؟ قال : كلا ، إنى أخاف عادة الراحة أن
تقوى سلطان العجز ! فيحكم بالغفلة ، ويقضى بالبلادة ! ووقع
فيها :

"الحكم الذى رضيت به فى الآخرة لك ، هو أعدى الخصوم
عليك ، وهو من لا ينقض حكمه ، ولا يرد قضاؤه" .
(٢)
قال : ثم رمى بالملك إلى فلما رأيته علمت أنه ليحيى
وأن الرشيد أراد أن يؤثر الجواب عنه .

(١) أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب ١٩٤/٣ .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٣٢٩،٣٢٨/٥ ، ابن قتيبة
الدينورى ، الامامة والسياسة ١٧٢/٢ ، أحمد صفوت ،
جمهرة رسائل العرب ١٩٤/٣ .

ورسالة يحيى السابقة ، كانت آخر رسالة بعث بها الى
الرشيد ومن سماتها :

- (١) شدة ايجازها ، فلاتكاد تتجاوز التوقيع الموجز ، بل ان
بعض التوقيعات تفوقها بسطا .
- (٢) قمر الجمل وبلاغتها .
- (٣) استهلها يحيى بالبسملة على غير العادة ، احياء بآئه
وكل الى الله أمره فيما بينه وبين الرشيد .

(ب) أما الرسائل الرسمية :

فهى تلك التى تتعلق بشئون الدولة ، فى تسيير أمورها وتسمى (بالديوانية) نسبة الى الديوان ، غير أن الأولى أدق فى التسمية .

دعت اليها طبيعة الحياة فى العصر العباسى ، بعد ترامى أطرافها ، واتساع رقعتها . يكاتب الخليفة أو من يقوم مقامه من وزرائه عماله فى كافة أعمار دولته ، موضحا لهم سياسته فى الإدارة ، وتصريف شئون الحكم .

وهذا النوع من رسائل البرامكة أطول قليلا من الإخوانية يميزها أيضا وضوح الأفكار ودقة المعلومات ، فسياسة الدولة لاتحتمل غموضا ولاليسا .

منها كتاب محمد بن يحيى الى محمد بن على وكان واليا على أرمينية للرشيد :

"قرأت هذه الرقعة المذمومة ، وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة ، وألسنة السعاة فى أيامنا كليللة خاسئة ، فاذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديوانك فانا لم نولك الناحية ، لتتبع الرسوم العافية ، وللاحياء الاعلام الداخرة ، وجنبى وتجنب بيت جرير يخاطب الفرزدق :

وكنث اذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

وأجر أمورك على مايكسب الدعاء لنا لاعلينا ، واعلم

أنها مدة تنتهى وأيام تنقضى ، فاما ذكر جميل ، واما خزى
(١)
طويل " .

تشى الرسالة بنهج البرامكة فى معاملة الناس ، هذا
النهج القويم ، لاشك أنه ثمرة من ثمرات الاسلام ، تحلى به
البرامكة ، وكان هذا دأبهم جميعا ، لايشذ عنه أحد منهم .
وفى الرسالة تظهر مقدرة محمد بن يحيى البيانية ، رغم
أنى لم أعثر له الا على هذه الرسالة .

باشر الكاتب غرفه دون مقدمات ، لاأشر فيها للتعمل ،
فألفاظها سهلة ، قريبة التأتى بلا ابتذال ، وفيها تحريض
لعمام الدولة بالتزام النهج الاقوم فى معاملة الرعية ، كى
يكون ذلك مجلبة للدعاء للخليفة لاعليه ، وباصلاح شئونهم ،
وفيها تذكير بالا يؤشر العاجلة على الباقية .

ومن أجمل ماكتبوه ، رسالة يحيى الى ابنه الفغل يطلب
فيها نقل الخاتم منه الى أخيه جعفر ، وكان الرشيد قد أراد
ذلك ، فاحتشم فأوكل الأمر الى يحيى .

فكتب :

"قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن يحول
الخاتم من يمينك الى شمالك" .

فرد الفغل عليه :

"قد سمعت مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وقد أطعت
أمره ، وما انقلبى عنى نعمة صارت اليه ، ولا غربت عنى رتبة
طلعت عليه " (١) .

قال جعفر :

"لله أخى ماأنفس نفسه ! وأبين دلائل الفغل عليه ،
وأقوى منة العقل فيه ، وأوسع فى البلاغة ذرعه ، وأرحب بها
جنابه ! يوجب على نفسه مايجب له ، ويحمل بكرمه فوق

(١) أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب ١٥٥/٣ .

(١)
طاقته " .

فما أنفس ما قال جعفر في جمل قصار خلت من التعامل ،
وحملت من المعاني ما تفيض به صفحات طوال ، انى لا عجب كيف
استطاعت أداء هذه المشاعر التي توحى بها بأيسر اللفاظ ،
وأقربها وألطفها .

ومن أبرز سمات الرسالتين السالفتين :

(أ) غلبة الأيجاز عليهما ، فالمقام لا يحتمل الاسهاب .
(ب) اختيار أدق اللفاظ وفاء بالمعاني وإيحاء بالمشاعر .
الرسائل السابقة كانت أبرز ما كتبه البرامكة ، ولعل
من المفيد أن نجمل هنا أهم سماتها الفنية ، وخصائصها
الاسلوبية .

(١) البداية والنهاية :

لم تتخذ بدايات رسائلهم طريقا موحدا تنهجه ، فقد
اختلف الاستهلال من رسالة لأخرى فمنها ما بدأ بالبسملة كاملة
كما في رسالة يحيى الأخيرة ، وهي في ذلك تسير على نهج
رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمصدر الأول في
البداء بالبسملة .

ومنها ما بدأ بالدعاء للمرسل اليه كما في الرسالة
الأولى ، وجعلها تحرر من أية بداية فيدلف الكاتب الى غرضه
مباشرة .

أما الخاتمة ، فغالبها ما كانت مفتوحة مطلقة ، عدا
الرسالة الأولى التي ختمت بالسلام ، ورسالة يحيى الى يوسف

ابن القاسم التى انتهت بقوله " ان شاء الله " أى أنها كانت
ترعى المقام ، ولا تثقيد بمصيغة ثابتة .

(٢) التوكيد من سمات رسائل البرامكة سواء كان التوكيد
بأدوات التوكيد المعروفة أو بتكرير الجمل المتقاربة
أو كان بتذييل الرسالة بأبيات من انشاء الكاتب نفسه
أو غيره ، يؤكد بها ما جاء فى صلب الرسالة . كل هذه
من سمات رسائلهم البارزة وقد أشرت إليها فى مواقعها .
(٣) جنحت معظم الرسائل السابقة الى الإيجاز ، وهو من أبرز
خصائصهم فى الكتابة . وكانوا يدعون اليه جيلهم من
الكتاب ، كما أسلفت . غير أن رسالة يحيى التى بعث
بها الى الرشيد يستعطفه فيها ، مالت الى اسهاب لم
أعهد فى غيرها ، فالمقام كان يتطلب ذلك ويستدعيه ،
لاظهار براءته ، وخلق ساحتها ، وشرح سوء حالته ، حتى
تجد لها أثرا فى نفس الخليفة ، فيرق قلبه ، ويعفو
عنه .

(٤) لم تكن رسائلهم خلوا من الموسيقى (السجع) ، ولكنه
كان بقدر ، فيقع حين يقع سهلا مقبولا ، لا أثر للعمل
فيه .

(٥) صدق العاطفة وحرارتها ، أبرز سمات رسائل الاستعطاف .
(٦) الاقتدار الإبداعى فى حسن انتقاء اللفاظ ، وإقامة
العلائق الوثيقة بين كل لفظة وأخرى ، مما يجعل اللفاظ
والجمل تحمل معناها الى القارئ بكل وضوح وتأثير .
وهذه السمات تحملنا على الاقتناع بتمكنهم من العربية
وثقافتها ، حتى صاروا فيها كاهلها .

التوقيعات .

وهى من فنون الكتابة الفنية ، يعلق به الكاتب على الرسالة ، أبرز سماته الإيجاز .

(١) عُرف هذا الفن منذ القرن الاول ، فقد أورد ابن عبد ربه بعض توقيعات الصحابة رضوان الله عليهم .

(٢) وأخذ فى النمو والاطراء فى العصر الأموى ، ولم يكتمل نموه ، ويصلب عوده إلا فى العصر العباسى ، فشاخ فيه وانتشر حتى لكأنه خميمة من خمائمه ، وابتكار من ابتكاراته .

والبرامية قد شغفوا بهذا الفن ، ولاعجب فقد كانوا كلفين بالإيجاز ، أظهر سمات التوقيع ، فأكثروا منه ، حتى روى أن جعفر بن يحيى وقع فى حضرة الرشيد مايزيد عن ألف توقيع (٣) .

وبالتأكيد فإن أكثر توقيعاتهم ضاعت ، ولم يبق منها إلا ما اشتهر لتناقل الرواة لها ، وحفظ بعض الكتاب لغرض الإفادة من بلاغتها وجودة بيانها .

وسأسوق بعض ما أثر عنهم من توقيعات حسب سماتها الفنية المشتركة استهلها بما يلى :

(١) الاقتباس من القرآن الكريم لفظا ومعنى ، أو معنى فقط فمن الاول كتب يحيى بن خالد فى أمر رجل استحق القتل :

(١) ابن عبد ربه ، توقيعات للصحابة ٢٨٧/٤ وما بعدها ، أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب ٢٠٢/١ .
 (٢) أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب ٩٣/٢ .
 (٣) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ١٩٨ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٣٢٨/١ ، أحمد صفوت ، الجمهرة ٣٨٧/٤ .

(*) (١)

{ولكم فى القصص حياة} .

ووقع أيضا فى قصة من التمس الاطلاق وهو محبوس :

(**) (٢)

{لكل أجل كتاب} .

وقد يكون الاقتباس من معنى آية من القرآن ، كما فى

توقيع جعفر بن يحيى فى قصة رجل سأل أن يعود ابنه فقد طالت

غيبته ، كتب :

(٣)

"غيبة يوسف كانت أطول" .

-وقد شاعت هذه السمة الاسلوبية فى توقيعات البرامكة ،

وغيرهم . ولاشك فى أنها تعطى من الدلالة وعمق المعنى ،

والإيحاء الجميل أكثر من غيرها من أساليب البيان .

والكاتب المتمكن يجمل كتاباته بهذه السمة الاسلامية .

(٢) وقد يكون الاقتباس من الاحاديث النبوية المطهرة ، كما

جاء عن جعفر فى قصة رجل شكاه عزبه :

(***) (٤)

"الصوم لك وجاء" . فاقتبس معنى الحديث الشريف .

(*) البقرة : ١٧٩

(١) الشعابى ، خاص الخاص ص ٧١ .

(**) الرعد : ٣٨

(٢) الشعابى ، خاص الخاص ص ٧١ .

ينسب هذا التوقيع فى العقد ٣٠٢/٤ ، وفى الجمهرة

٣٨٤/٤ الى جعفر بن يحيى .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد ٣٠٢/٤ .

(٤) المصدر السابق ٣٠٢/٤ .

(***) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم : "يامعشر الشباب

من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ،

وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له

وجاء" .

أخرجه البخارى فى الصحيح (مطبوع مع فتح البارى) عن

عبد الله بن مسعود ١١٢، ١٠٦/٩ ، وأخرجه كذلك مسلم فى

الصحيح (مطبوع مع شرحه للنفوى) ١٧٢/٩ ، وأخرجه

النسائى أيضا فى السنن ٥٧، ٥٦/٦ .

(٣) عذوبة الموسيقى المنبعثة من السجع من سمات توقيعاتهم
غير أنهم لم يلتزموا به دائما ، منه توقيع جعفر بن
يحيى فى قصة محبوبس :

(١) (*)

"العدل يوبقه ، والتوبة تطلقه " .

وتوقيعه أيضا فى رقعة رجل شكا بعض عماله :

"قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فاما عدلت ، واما

(٢)

اعتزلت " .

(٤) اقامة العدل بين الناس ، واحلال السلام من مزايا الإسلام

ومحاسنه ، ظهرت هذه السمة الاسلامية فى شىء من

توقيعاتهم بحكم مواقعهم الإدارية فى الفصل بين الناس

وتحقيق شريعة الله ، منها :

توقيع جعفر فى قصة محبوبس : "الجنائية حبسته ، والتوبة

(٣)

تطلقه " .

فلم تحبسه الجنائية ، ولكن الذى حبسه اقترافه للجنائية

على سبيل الاستعارة المكنية ، ووقع نفسه فى قصة رجل تظلم

(٤)

من عماله : "انا لمثله حتى نمنصفك" ، وكان جعفر يعى جيدا

فضل العدل ، ومنافعه ، ومغبة الجور وخسائره ، كتب :

"الخراج عمود الملك ، وما استغزر بمثل العدل ، وما استنزر

(٥)

بمثل الجور " .

(١) ابن عبد ربه ، العقد ٣٠٢/٤ .

(*) فى وفيات الأريان ٤٧٥/١ : "ان العدل أوبقه ، والتوبة تطلقه " .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد ٣٠٤،٣٠٢/٤ ، أحمد صفوت ، جهمرة رسائل العرب ٣٨٥،٣٨٤/٤ .

(٣) المصدر السابق ٣٠٢/٤ ، أحمد صفوت ، جهمرة رسائل العرب ٣٨٤/٤ .

(٤) المصدر السابق ٣٠٢/٤ ، أحمد صفوت ، جهمرة رسائل العرب ٣٨٤/٤ .

(٥) الشعالبى ، خاص الخاص ص ٧١ ، الجهمرة ٣٨٦/٤ .

وهكذا كان دأبهم فى تحقيق العدل ، وقع يحيى فى رقعة

متظلم :

(١)

"انصف من وليت أمره ، وإلا أنصفه من يلى أمرك" .

والوشاية خلق ذميم حذر منه الإسلام ، لا يحب أحد أن

ينعت به ، ولاخفاء فيما تخلفه الوشاية من فرقة وخصومة بين

(٢)

الناس ، وقع جعفر على كتاب وشاية : "بعض المدق قبيح" .

وفى تحقيق العدل أيضا وقع جعفر فى قمة رجل شكا بعض

(٣)

خدمه : "خذ يادنه ورأسه فهو مالك" .

ووقع فى رقعة من سألته ولاية : "لأولى بعض الظالمين

(٤)

بعضا" .

ووقع الففل : "بئس الزاد إلى المعاد ، التعدى على

(٥)

العباد" .

وعلى هذا النحو التزمت الأسرة بفعاليم الإسلام ، فى

ظاهر ماتدل عليه كتاباتهم وتوقيعاتهم .

(٥) الايجاز . من أظهر سمات توقيعاتهم ، وليس ضرورة أن

يكون التوقيع موجزا ، فقد ساق لنا صاحب "الكتابة

الفنية" بعض التوقيعات لكتاب غير البرامكة كانت

(٦)

توازى الرسالة طولا .

(١) الشعالبي ، خاص الخاص ص ٧١ ، أحمد صفوت ، جمهرة

رسائل العرب ٣٨٣/٤ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد ٣٠٢/٤ ، د. على شلق ، النشر

العربى فى نماذج وتطوره لعمرى النهضة ص ٣١ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد ٣٠٣، ٣٠٢/٤ ، أحمد صفوت ، جمهرة

رسائل العرب ٣٨٤/٤ .

(٤) المصدر نفسه ٣٠٢/٤ ، أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب

٣٨٥/٤ .

(٥) أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب ٣٨٧/٤ .

(٦) د. حسنى ناعسة ص ٢٤٤ .

ولم يشذ عن هذه السمة في توقيعاتهم ، الا ماكتبه جعفر
بعد أن رفع إليه ان صاحب الطريق قد اشتط فيما يطلب من
الاموال ، فوقع :

"هذا رجل منقطع عن السلطان ، وبين ذؤبان العرب بحيث
العدد والعدة ، والقلوب القاسية ، والاثوف الحمية ، فليمدد
من المال بما يستملح به من معه ليدفع به عدوه ، فان نفقات
الحروب يستظهر لها ، ولا يستظهر عليها" ^(١) .

على أن جل ماكتبوه في فن التوقيعات كان موجزا بل إن
بعضها لا يتجاوز اللفظتين والثلاثة .

(١) المبرد ، الكامل ٣٩٢/١ .

أقوالهم وما اشتملت عليه من آداب وأخلاق وحكم .

تمتعت هذه الأسرة بما لم تتمتع به أسرة أخرى من مزايا
فى تاريخ العصر العباسى . وكانت تعمل جاهدة لتخلف وراءها
صيتا حسنا ، يبقى لها مابقى التاريخ ، وقد تحقق لها مارمت
إليه ، بنته بحميد أفعالها ، وجميل أقوالها ، مع مواهبها
السياسية والادارية والأدبية ، كل ذلك صنع لها مجدا مؤثلا .
وفى هذا المقام ساستطلع جزءا من هذه الآداب ، التى
تحلوا بها ، ويمكن تقسيمها الى :

(أ) آداب خاصة (ب) و آداب عامة

(أ) الخاصة : ما يختص بمعاملة الخلفاء ، وأصحاب المراكز
العليا ، وما يختص بالخدم والفلمان من خاصة الانسان .
فكل ذلك محكوم بآداب لايجب تخطيها وبالذات التعامل مع
الملوك والخلفاء .

ساق ابن عبد ربه بعض ماقاله يحيى بن خالد فى حسن
معاملة الملوك ، وما يجب أن يتحلى به من يخالطهم من لباقة
وكياسة .

قال : "مساءلة الملوك عن حالها من سجية (الذكى) ،
فاذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير ؟ فقل : صبح الله
الأمير بالنعمة والكرامة ، وإذا كان عليلا فأردت أن تسأله
عن حاله ، فقل : أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة ،
فإن الملوك لاتسأل ولا تشمت ولا تكيف . وأنشد :

إن الملوكَ لا يُخاطَبونَا ولا إذا قُلُّوا يَعاتِبونَا
وفى المقال لا يُنَارَعُونَا وفى العُطاس لا يُشَمِتُونَا

وفى الخطاب لا يكيّفوننا يثنى عليهم ويبجلونا
(١)
فافهم وصاى لاتكن مجنونا

المقام يحتم المقال المناسب ، وقد اقتضى الأمر هنا
آدابا وسلوكا يجب التزامها ، والتحلّى بها فى القول والفعل
وينبغى أن يلم بها كل من له صلة بدار الخلافة .
وأراد يحيى أن يجعل وصاياه عالقة فى الذهن ، ليزيد
من تأكيدها ، فسجلها شعرا ، ليسهل تمثيلها ، والسير على
نهجها .

والمظنون أن هذه الآداب ، كانت من تأثير الفارسية على
العربية ، وكما نعلم فإن الفرس كانوا أهل حضارة عظيمة ،
ومدنية سابقة .

ومن الآداب الخاصة أيضا اللطف والرفقة واللين فى
معاملة الغلمان والحشم ، إذ أن القسوة تولد الكره ،
والكره يعمى البصيرة ، وربما ارتكب جريمة من سوء المعاملة
حين سئل يحيى بن خالد ذات مرة ألا تؤدّب غلمانك ؟ قال : هم
أمنّاؤنا على أنفسنا ، فإذا أخفناهم فكيف نأمنهم ؟
(٢)

فلم تنقص أجابته الحكمة والوعى ، فيجب مداراتهم بحسن
معاملتهم ، وأخذهم باللين لمن أراد السلامة ، ولعل مانجده
فى أيامنا هذه من جرائم الخدم الناتج من سوء معاملتهم ،
أصدق دليل على صحة مقالته يحيى بن خالد .

(١) ابن عبد ربه ، العقد ٥/٢ ، الحموى ، معجم الأدباء
٦٠٥/٢٠ .

(٢) الجهشيارى ، الوزراء ، والكتاب ص ٢٠١ .

(ب) الآداب العامة :

كآداب المجالس والمحادثات ، وآداب التهنئة والتعزية ،
وآداب التواضع وما فى حكمها .

منها ما ذكره القرطبى عن يحيى بن خالد قال :

"قال المدائنى أوصى يحيى بن خالد ابنه ، فقال :
يا بني إذا حدثك جليتك حديثا ، فأقبل عليه ، وأصغ إليه ،
ولا تقل قد سمعته ، وإن كنت أحفظ له ، وكأنك لم تسمعه إلا
منه . فإن ذلك يكسبك المحبة والميل اليك" .^(١)

يخيل الى وأنا أقرأ هذه الوصية ، أن يحيى من أكبر
علماء النفس ، فأخذ يصف لها العلاج الناجع ، ويتلطف فى
معاملتها ، ويراعى شعورها .

ينهى هنا عن احراج محدثه ، وإن كان أعلم منه بما
يقول ، حفاظا لشعوره ، وصونا لأحاسيسه .

ولم يزل الطبيب يتحسس آلام المجتمع ، فيوصى بما يراه
نافعا ، يقول فى آداب التعزية والتهنئة :

"التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث
استخفاف بالمودة" .^(٢)

فيدعو الى الاسراع فى المشاركة الوجدانية بحالتها

- الفرح والحزن - دون ابطاء .

ولازلت أتنقل بين رياحين يحيى وأزهاره ، المستجلة من

أقواله وحكمه لاستشف منها خبرته بحقائق النفس البشرية ،

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ٤٣/١ .
(٢) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٢٠٠ .

وبصره بها ، وهذا رأييه فى التكبر والتواضع من خلال الامارة ؛
يقول : "لست ترى أحدا تكبر فى اماره الا وقد دل على
أن الذى نال فوق قدره .

ولست ترى أحدا تواضع فى اماره الا وهو فى نفسه أكبر
(١) (*)
مما نال فى سلطانه " .

وهذه حقيقة لا يختص بها شعب دون شعب ، ولا عصر دون عصر .
وصدق الله العظيم حين قال : { كلا ان الانسان ليطغى أن رآه
استغنى } .

ومنه قوله أيضا فى ذات الموضوع :
(٢)
"الشریف اذا تقرا تواضع ، والدنى اذا تقرا تكبر" .
تغضى بنا هذه الأقوال الى :

(١) أنها لاتتخذ مسارا واحدا ، وإنما تتباين مضامينها
باختلاف أغراضها . وهى تهدف الى التقويم ، نراها
مرة نخبرنا عن التعامل المطلوب مع ولاية الامر . وأخرى
عن النهج السليم فى تربية الغلمان والحشم ، وهكذا
تختلف أغراضها وتتعدد وان اتحدت فى الهدف والغاية .

(٢) الأقوال السابقة من افرازات البيئة ، فهى مستوحاة من
حياة الناس ومعاملاتهم ، لذلك فهى تعالج ماتراه غير
ملائم للطبيعة السوية ، وتحاول رد الخطأ الى صوابه ،
كما أنها فى الوقت ذاته تعكس المواصفات الاجتماعية ،

(١) الجهمشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٢٠١ .
(*) فى معجم الادباء ٦/٢٠ وردت نفس الفكرة مع تغيير فى
المياغة ، قال : "من ولى ولاية فتاه فيها ، فقد ره
دونها" .

(٢) البستى ، روضة العقلاء ، ونزهة الفضلاء ص ٤٧ ،
ط/١٣٧٤هـ ، وفى الجهمشيارى ص ٢٠٠ : "الكريم اذا تقرا
تواضع ، واللئيم اذا تقرا تكبر ، والخسيس اذا أيسر
تجبر" .

والآداب التى انتشرت بين ولاة الدولة وقوادها
ومثقفها .

(٣) قبل كل ذلك وبعده ، فهى آداب أراد البرامكة تقنينها

وتذكير الناس بها ، وإن كانت فى حقيقة أمرها ترجع
إلى القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) هذه الأقوال قريبة التأتى سهلة الأسلوب ، رقيقة اللفاظ

لأنها موجهة إلى الناس بغرض التربية والتقويم ، فهى
خالية من كلفة السجع ، بعيدة عن التلميح والتنقيح .

(٥) يحيى بن خالد يقوم بدور الموجه فيما سبق من أقوال ،

لخبرته بالحياة ودرايته بها ، ومعرفته بالناس
ونفسياتهم، وله آراء جد رائعة فى الأخلاقيات سأورد جزءا
منها على سبيل التمثيل .

قيل له ذات مرة : أى الأشياء أقل ؟ قال : قناعة ذى

الهمة البعيدة بالعيش الدون ، وصديق كثير الآفات قليل
الامتاع ، وسكون النفس إلى المدح .

وقيل له : ما الكرم ؟ فقال : ملك فى زى مسكين .

وقيل له ما الجود ؟ فقال : عفو بعد قدرة .

وقال : إذا فتحت بينك وبين أحد بابا من المعروف ،

فاحذر أن تغلقه ولو بالكلمة الجميلة ، وقال : العذر

الصادق مع النية الحسنة يقوم مقام النجح ، وقال : ماسقط

غبار موكبى على أحد إلا وجب على حقه .

وحدث محمد بن صالح الواقدي ، قال : دخلت على يحيى

فقلت : إن هاهنا قوما جاءوا يشكرون لك معروفا ، فقال :

يامحمد ، هؤلاء جاءوا يشكرون معروفنا ، فكيف لنا شكر
شكرهم ؟

وقال : انفق من الدنيا وهى مقبلة ، فان الإنفاق لا ينقص
منها شيئا ، وانفق منها وهى مدبرة فان الإمساك لا يبقى منها
شيئا .

وكان يقول : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا فيمن
قبلنا أسوة ، ونحن لمن بعدنا عبرة . (*)

وقال : أَحْسَنُ جِبِلَّةٍ الْوَلَاةُ إِمَابَةُ السِّيَاسَةِ ، وَرَأْسُ إِمَابَةِ
السِّيَاسَةِ الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَفَتْحُ بَابَيْنِ لِلرَّعِيَّةِ ، أَحَدُهُمَا
رَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ ، وَبَذْلٌ وَتَحَنُّنٌ ، وَالْآخَرُ غِلْظَةٌ وَامْسَاكٌ وَمَنْعٌ . (١)

وكذا قوله : "من لم أحسن اليه فأننا مخير فيه ، ومن
أحسن اليه فأننا مرتين به " . (٢) (**)

وكان يقول : "ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها :
الهدية ، والكتاب ، والرسول" . (٣)

وقال أيضا : "قد رأينا شارب خمر أقلع ، ولما نزع ،
ولم نر كذابا رجع" . (٤)

وساق الشعالي تحت عنوان "فيما يقارب الإعجاز من
إيجاز البلغاء ، وسحرة الكتاب" بعض أقوال يحيى منها
قوله :

-
- (١) الحموى ، معجم الأدباء ٩٠/٢٠-٥ .
(*) فى سير أعلام النبلاء ٩٠/٩ ... وفيما لمن بعدنا عبرة .
(٢) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٢٩/١٤ .
(**) زاد ياقوت قوله : "أنا مخير فى الإحسان الى من أحسن
اليه ، ومرتته بالإحسان الى من أحسن اليه ، لأنى أن
وصلته فقد أتممته ، وأن قطعتة فقد أهدرتة" .
(٣) البغدادي ، تاريخ بغداد ١٢٩/١٤ ، الحموى ، معجم
الأدباء ٩٠/٢٠ ، الشعالي ، لطائف اللطف ص ٥٧ .
(٤) الأصبهاني ، محاضرات الأدباء ص ٥٤ .

(١)

"الصديق اما أن ينفع واما أن يشفع" .

وقوله : "المواعيد شبك الكرام ، يصيدون بها محامد
(٢)
الاحرار" .

ولاريب في أن أقوال يحيى هذه ، لاتتأتى إلا لمن رزق
الغبطة ، وعرك الحياة ، وأفاد من تجاربها ، واستطاع بحسن
أدائه ، وقدرته على التركيز أن يؤديها في كلمات قلائل أشبه
بالحكم ، ومن أظهر مافيهما أنها صادرة عن قلبه وعقله معا ،
ففيها المتعة الفنية متوازنة مع الفائدة العقلية ، وهي
على كل حال ضرب من الأقوال الفنية ، حنل بها أدب العصر ،
ولذلك دونها الرواة في كتبهم ، وبقيت شاهدا من شواهد
العصر على امتزاج الثقافات ، وعلى رقى الذوق الفني
وأناقته .

(١) خاص الخاص ص ٣ ، وفي الشعالي ، لطائف اللطف ص ٥٦ :
"الصديق اما ينفع أو يستنفع" .

(٢) خاص الخاص ص ٣ ، وفي الشعالي ، لطائف اللطف ص ٥٦ :
"المواعيد شبك الاحرار ، والكرام يصيدون بها محامد
الاحرار" .

أفقت دراسة البرامكة إلى النتائج التالية :

- (١) ذكرت بعض المصادر الأدبية والتاريخية ، أن خالد بن برمك أول من تولى الوزارة للمنصور ، وأثبتت الدراسة أن أول من وزر له المورياني ، وليس البرمكى ، بل أن خالدا كان يعمل عمل الوزراء ولا يدعى بالوزارة ، واستدللت على ذلك بشعر بعض معاصريهم ، الذى يؤيد ما ذهب إليه .
- (٢) أعرفت أسرة البرامكة سياسيا فى الوزارة ، وأدبيا فى الكتابة ، والثانية هى المدرج الذى أوصلهم للأولى مع مواهبهم الأخرى .
- (٣) قام البرامكة بدور ريادى فى توجيه معاصريهم من كتاب وشعراء ، ساعدهم على ذلك مكانتهم المرموقة فى الدولة وحظهم الوفير من الثقافة العربية والإسلامية .
- (٤) السخاء سمة اجتماعية فى البرامكة استمالوا به قلوب الناس ، وتحفظ المصادر الأدبية والتاريخية قصما أقرب للخيال منها للواقع ، تحكى مبلغ سخائهم ولعل أنفسهم كانت تنطوى على أهداف سياسية فى إعادة الأمجاد الكسروية ولا سبيل إلى ذلك إلا بامتلاك نواصى الرجال ، فالبذل وسيلة لتقريب الغاية ، فلا بد لهم من أشياع ومناصرين ، ثم إن عصرهم نفسه ، وما تمتعت به الدولة من رخاء أعانهم على هذا السخاء .
- (٥) جلب هذا السخاء أعنة الشعراء ، فمدحوا البرامكة ، وأسهبوا فى ذلك ويمكن للمتتبع لتلك القصائد التى لهجت بها السنة الشعراء ، أن يكون منها دواوين ضخمة دون مبالغة فى ذلك .

- (٦) أثرت نكبتهم ديوان الشعر العربى ، بأدب حزين ، فقد آلمهم المصاب ، وأحزنهم ، كيف لا وقد انقطع أهم مواردهم التى كانت تدر عليهم فى السراء والضراء ، فأنشدوا قصائد باكية تذوب معها النفس ألما وحسرة ، يشيعون معهم الندى ، وكثر رثاء الشعراء لهم رغم أن الرشيد حرم رثاءهم ، فسبحان الذى جعل لهم هذه القوة التأثيرية أحياء وأمواتا ، ويرجع ذلك الى أن المدح كان من أهم مصادر الغنى لطبقة كبيرة من الشعراء .
- (٧) اختلف المؤرخون فى تفسير أسباب نكبتهم ، ولعل السبب الرئيسى فى نظر الباحث يعود الى استبدادهم بالسلطة من دون الخليفة وتمصرفهم فى كافة شئون دولته وأنه لم يبق له من الخلافة الا اسمها ، فشارت حفيظته ، وحميته العربية وقرر ابادتهم لما تجمعت لديه القرائن .
- (٨) وصل البرامكة الى دار الخلافة عن طريق مواهبهم الادبية ومقدرتهم السياسية والادارية والحربية .
- (٩) أدركت هذه الاسرة ، وهى فى ظل خلافة عربية اسلامية قوية أن طريقها الى المراكز العليا لن يكون الا عن طريق اتخاذ الكتابة حرفة لها ، ساعدهم فى ذلك مواهبهم الادبية ، واحتياج الدولة الى الكتاب ، واعتماد العباسيين على العنصر الفارسى ، وخلو الطريق من أبناء اللغة الاصليين ، فالعربى كان يتعفف من الخدمة فى قصور الخلفاء والأمراء ، كل ذلك أوصلهم الى أهدافهم ، ومن الباحثين من يرى أن الخلفاء هم الذين عمدوا الى استخدامهم استحداثا للتوازن بين العنصر العربى وغيره من العناصر فى الدولة .^(١)

(١) د. يوسف نور عوض ، فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٢٤ دار القلم ، بيروت .

الباب الثانى

آل سهل (١٩٦ - ٢٣٦هـ)

الفصل الاول : تعريف بالاسرة ، ويندرج تحته :

- (١) صلة آل سهل بالبرامكة .
- (٢) آل سهل قبل اسلامهم ، ديانتهم ، مكانتهم .
- (٣) أول اتصال بين آل سهل والخلفاء .
- (٤) مشاهير الاسرة فى الكتابة .
- (٥) آل سهل بعد اسلامهم ، مكانتهم السياسية والادبية .

الفصل الثانى : آل سهل فى منظار أدباء العصر .

- (١) السهليون والشعراء ، ويشمل :
 - (أ) ماقيل فيهم مدحا .
 - (ب) ماقيل فيهم قدحا .
 - (ج) ماقيل فيهم رثاء .
- (٢) السهليون والكتاب ، ويشمل آراء المعاصرين فى :
بلاغتهم - وسخائهم - وجملته من شمائهم

الفصل الثالث : نشرهم الفنى ، بفنونه المتباينة منها

- (أ) الرسائل .
 - (ب) التوقيعات .
 - (ج) الحكم والاقوال .
- أبرز مايقود إليه الباب من نتائج .

الفصل الاول

تعريف بالأسرة

ويندرج تحته :

- (١) صلة آل سهل بالبرامكة .
- (٢) آل سهل قبل اسلامهم ، ديانتهم ، مكانتهم .
- (٣) أول ائتمال بين آل سهل والخلفاء .
- (٤) مشاهير الاسرة فى الكتابة .
- (٥) آل سهل بعد اسلامهم ، مكانتهم السياسية والادبية .

(١) العلائق بينهم وبين البرامكة .

اتحاد أعراق آل سهل ، والبرامكة ، وتزامنهما ، أدبا إلى الاتمال المباشر بينهما . ثم كان الإسلام والثقافة العربية وصناعة الكتابة عوامل أخرى مشتركة جمعت بينهما في خدمة الدولة .

فحينما نتتبع جذور هذه الأسرة ، نجد أن سهلا كان قهرمانا عند يحيى بن خالد ، وهذا يدل على أن العلائق بين الأسرتين البرمكية ، والسهلية قديمة .

والكتابة هي الرابط القوي بينهما - كما أشرت - لأن كلا من الأسرتين قد شهر بها ، غير أن مكانة البرامكة وشهرتها في الكتابة ، كانت أسبق من شهرة آل سهل بزمان ، يقودنا هذا القول إلى تصور تآثر آل سهل بالبرامكة ، إضافة إلى ذلك ، فالسهل في تلك الحقبة كانت تنظر إلى البرامكة نظرة اكبار وتقدير ، ترى فيها المثل الأعلى ، والقذوة الحسنة ، فيما وصلت إليه عن طريق الكتابة ، فمن البدى - وهذا الحال - أن تنهج الطريق نفسه ، حتى إذا ما ألمت بشيء من الثقافة العربية ، استطاعت بفضلها مع مواهبها أن تبرز في مجال الكتابة الفنية ، ولفت أنظار البرامكة في بادئ الأمر ، مما حدا بالآخيرة إلى ضم الفضل والحسن السهلين وجعلهما من جملة كتابهم ، يسوق ابن خلكان ما يشير إلى ذلك ، في "وفيات الأعيان" ، يقول :

(١) الجعشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٢٣٠ ، ط/الأولى سنة ١٣٥٧هـ .

"اتصل سهل بسلام بن الفرّج مولى يحيى مستغيثا به فى دم أخيه فحماء وأعاناه ، فأسلم سهل على يد سلام ، وتوصل به حتى اتصل بالبرامكة ، وأحضر ولديه الحسن والفضل ، فاتصل الفضل بالفضل ابن يحيى ، واتصل الحسن بالعباس بن الفضل بن يحيى وخدماهما ، وعرفهما يحيى فرعاهما ، فنقل الفضل بن سهل ليحيى كتابا من الفارسية الى العربية ، فأعجبه فهمه ،^(١) وجودة عباراته ...".

على هذا النحو نمت الصلات وأخذت تتعمق بينهما ، فبدهى أن يكون للبرامكة أثر على آل سهل ليس فى مجال الكتابة فقط بل فى شتى ميادين الحياة الواسعة ولأدل على ذلك من قول الحسن بن سهل :

"من غيرته الولاية لآخوانه علمنا أن الولاية أكبر منه ، أخذنا ذلك من صاحب ديوان المكارم أبى على يحيى بن خالد^{(٢) (*)} البرمكى".

خلاصة القول : فى ضوء عمق الصلات بين السهليين والبرمكيين يفترض أن تقوم احداهما بدور التوجيه والتأثير وهذا ماكان من البرامكة تجاه آل سهل الذين قاموا برعايتهم وتقديمهم ، ورفعوا من شأنهم بما زرعه فيهم من خصال خلقية وسمات أدبية ، فتشكلت الأسرطان بلون واحد ، واتحدتا فى السمات الخاصة والعامة . الى حد أن بعض المؤرخين عد

(١) وفيات الاعيان ٣٥٧/٧ .

(٢) وفيات الاعيان ٢٢٦/٦ .

(*) أخذه الحسن بن قول يحيى بن خالد . انظر ماقدمنا

ص ١٤٦ .

(١)
آل سهل نموذجاً مصغراً من البرامكة ، وامتداداً طبيعياً لها ،
لما رأوه من أوجه الشبه بين الاسرتين إلى درجة التماثل أو
التقارب .

فليس غريباً أن نرى توحيد الاسرتين في الخصائص الفنية ،
والسمات الأدبية في كتاباتهم ، فغالبا مايرث التلميذ سجايا
أستاذه وبعض سماته في علمه ، ويبقى بعد ذلك تمايز أحدهما
عن الآخر بحسب ما تفرضه الموهبة والاستعداد .

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٢٠ .

(٢) آل سهل قبل اسلامهم .

لم تكن هذه الأسرة ذات بال فى جاهليتها ، ولم يكن لها طموحات ولا آمال ، فعاشت على هامش التاريخ هادئة ساكنة وديعة ، لم تنبل الا بالكتابة حين أخذت بأسبابها ، وقبل ذلك كانت تغط فى خمول كما قال ابن عبد ربه .^(١)

كانت تدين بالمجوسية ، ومثل هذه الديانة كانت تقف عقبة فى ابراز مواهبها ، لاسيما أنها تعيش فى كنف الخلافة العباسية ، فلم تنتقل هذه الأسرة من مرحلة الظلام والجمود الى مرحلة النور والشهرة ، الا بشيئين :

أولهما : اسلامهم . والاسلام ضرورى وهام لشهرة الكاتب وتقدمه فى صنعته . يقول يحيى بن خالد للفعل بن سهل بعد أن نقل له كتابا من الفارسية الى العربية :

"انى أراك ذكيا ، وستبلغ مبلغا رفيعا ، فأسلم حتى أم لك بولد أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، فبعثه الى ولده جعفر فأدخله على المأمون"^(٢) .

وثانيهما : اهتمامهم بالكتابة الفنية ، والاخذ بأسبابها كما أشرت .

واذا ما أردنا أن نقارن بين جاهلية البرامكة من ناحية وآل سهل من ناحية أخرى ، نجد أن الاولى عريقة فى مجدها ، عظيمة فى مكانتها ، فكانوا سدنة النوبهار كما مر ، وهذا العمل لا يقوم به الا الاشراف ، والنبلاء عندهم ، وهذا يشير

(١) العقد ٢٥٢/٤ .

(٢) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٢٣١، ٢٣٠ .

الى تمكنهم من المجد والشهرة ، واعراقهم فى القيادة . مما
أتاح لهم بعد ذلك القيام بأعمالهم فى خدمة الدولة
العباسية خير قيام ، بمساعدة خبراتهم السابقة وتجاربهم .
أما حال آل سهل فيختلف كثيرا عن حال البرامكة فلم
تنبل ويترامى صيتها الا بفضل ماذكرنا من اعتناقهم دين
الاسلام واهتمامهم بشئون الكتابة . هذا الى دور البرامكة فى
رعايتهم وايمالهم الى دور الخلفاء .

(٣) أول اتصال بين آل سهل والخلفاء .

أشرت إلى أن مكانة آل سهل ومجدها لم يتحققا إلا باتقانهم لفن الكتابة ، وإسلامهم والامر الثالث دور البرامكة فى تسهيل الطريق لهم ، واختصار الزمن فى إيصالهم إلى دور الخلفاء دون عناء ولا مشقة .

وكان يحيى بن خالد قد ذكر الفضل بن سهل عند الرشيد وأخذ يمهّد له الطريق بامتداحه ، والثناء عليه ، فأمر بإحضاره ، فلما حضر تملكته الهيبة ، ولم يستطع الكلام ، فنظر الرشيد إلى يحيى كالمستفهم :

فقال الفضل : "يا أمير المؤمنين إن أدل دليل على فراهة الملوك أن تملك هيبة مولاه لسانه وقلبه ، فقال الرشيد : لئن سكّيت لكى تقول هذا فقد أحسنت ، ولئن كان هذا شيئا اعتراك عند الحصر لقد أجدت ، وزاد فى إكرامه ، وتقريبه . وجعل لا يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بأفصح لسان ، وأجود بيان" (١) .

وقبل هذا تدبير يحيى وابنه جعفر لإيصال الفضل بن سهل إلى المأمون كما مر .

وعلى هذا النحو توالت أيادى البرامكة البيضاء فى رفع آل سهل وتمكينهم من خدمة الدولة .

(١) الحميرى ، زهر الآداب ٣٥٤/٢ ، البيهقى ، المحاسن والمساوىء ص ٤٣٧، ٤٣٨ ، مع تغيير بعض الألفاظ ، الجاحظ المحاسن والأضداد ص ١٤ .

ومن الاشياء الملفتة للنظر ، تشابه بدايات البرامكة
وآل سهل ، فاعجاب عبد الله السفاح بخالد البرمكى ، واعجاب
الرشيد بالفضل بن سهل كانا من جهة حسن بيانهما وتمكنهما
من نامية البلاغة ، غير أن آل برمك وصلوا بجهودهم الذاتية
وآل سهل وصلوا بمساعدة البرامكة .

(٤) مشاهير آل سهل فى الكتابة .

حين يتحدث الباحث عن آل سهل فانه يعنى الفضل بن سهل وأخاه الحسن ، لانهما الوحيدان اللذان شهرا بالكتابة لكثرة نتاجهما .

ولايعنى ذلك أن غيرهما من أفراد هذه الأسرة لم يكن فميحا بليغا ، فام الفضل كانت لسنة بليغة ، وما أجابتهما على المأمون فى قتل ابنها إلا دليل على ذلك .

قال لها المأمون : "لاتجزعى فانى ابنك بعد ابنك" ،
(١)
فقالت : "أفلا أبكى على ابن أكسبنى ابنا مثلك" ؟

وكذا سوران ابنة الحسن بن سهل كانت بليغة فميحة ، يذكر ابن عبد ربه أن سبب زواج المأمون بها كان عن طريق بيانها وفصاحتها .
(٢)

فاقتصرارى على هذين العلمين ، لوفرة نتاجهما ، ولاهميتهما فى تاريخ الدولة العباسية .

(١) الفضل بن سهل :

أبرز رجال هذه الأسرة ، وإليه يعود الفضل فى شهرة آل سهل وما وصلت اليه من رقى ومجد . اتمل بالبرامكة واستطاع بنباهته وبيانه أن ينال رضاهم ، ومن ثم رضى الخلفاء .
فتاريخ آل سهل الذهبى كان فى زمن الفضل مع المأمون ،

(١) الحمصى ، زهر الآداب ٢/٣٥٦، ٣٥٧ ، ذيل الامالى ص ٨٦ ،
الآبى ، نشر الدر ٤/٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان
٤٤/٤ .

(٢) العقد ٨/١٥٦ وما بعدها .

تولى الوزارة ، وكان عضد المأمون الأيمن ، استطاع بحسن تخطيطه ، وجودة تدبيره ، وذكائه ، الاطاحة بالأمين .
واذا كان الفضل بذلك الثقل فى سياسة الدولة العباسية وادارتها ، فما أبرز سمات شخصيته التى تمكن بفضلها من الاسهام الفعلى فى توجيه سياسة الدولة .

من خلال الاستقراء يمكن ايرادها فى النقاط التالية :

(١) يذكر الجهشيارى أنه كان سخيا ، نبيل النفس ، كثير
(١)
الافضل ، يذهب مذاهب البرامكة فى ذلك .

ولاعجب فهو من ضائعتهم الأبرار ، غرسوا فيه خصالهم وسجاياهم حين لمسوا فيه النجابة .

(٢) من سماته كرهه للوشاية والسعاية ، وكان يطاق بالقائم
(٢)
بهما بين الناس تأديبا له ، وردعا لأمثاله .

(٣) اضافة الى ذلك ، كان من أخبر الناس بالنجاسة ، حتى
عدت من أبرز سمات شخصيته .

ومن أحكامه التى ذكرها ابن خلكان أنه حينما أرسل المأمون طاهر بن الحسين لحرب الأمين نظر الفضل فى مسأله فوجد الدليل فى السماء ، وكان ذا يمينين ، فتعجب المأمون
(٣)
من اصابة الفضل ولقب طاهرا بذلك ، ولتأويل للباحث فى موضوع التنجيم ، الا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول "كذب المنجمون ولو صدقوا" .

ومنها : ماساقه ابن خلكان أيضا ، وفيها ماحكم به على نفسه ، وذلك أن المأمون طلب والدته الفضل بما خلفه ، فحملت

(١) الوزراء والكتاب ص ٣٠٥ .
(٢) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٣٠٨ .
(٣) وفيات الأعيان ٤/٤١ .

اليه سلة مختومة مقفلة ، ففتح قفلها ، فاذا صندوق صغير مختوم ، واذا فيه درج ، وفى الدرج رقعة من حرير مكتوب فيها بخطه :

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما قضى الفضل بن سهل على نفسه ، قضى أنه يعيش ثمانية وأربعين سنة ، ثم يقتل ما بين نهر و ماء " .

قال ابن خلكان : وعاش هذه المدة ، وقتله غالب خال المؤمنين فى حمام بسرخس .^(١)

وهذه النقول تمثل جانبا هاما من شخصية الفضل ، وان كانت فى ذات الوقت لاتعدو أن تكون تخمينيا ورميا بالغيب من الفضل بن سهل لانه لايقضى الا الله سبحانه وتعالى .

(٤) وكان للفضل أفضال على المؤمنين فى بداية عهده ، اذ كان عهده الايمن وساعده القوى ، وعقله المفكر ، لما أحدثه من مجهودات فى اقرار الحكم للمؤمن من دون الايمن ، ولم يذهب منيعه سدى ، لقيه المامون بذى الرياستين اعترافا منه بجهود الفضل السابقة ، ومعنى ذلك رئاسة التدبير ، ورئاسة الحرب ، وعقد له على سنان ذى شعبتين ، وأعطاه مع العقد علما قد كتب عليه لقبه ، وكان الفضل يؤمر مع الوزارة ، وهو أول وزير لقب ، وأول وزير اجتمع له اللقب والتأثير .^(٢)

وهذا الطموح من أبرز سمات شخصية الفضل ، لأن كل ما أحدثه من مجهودات بفضل تخطيطه ودهائه ، لم يكن فى واقع

(١) وفيات الاعيان ٤٢/٤ .

(٢) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٣٠٦، ٣٠٥ .

الحال الا لنفسه ، نعم خطط لاستقرار الحكم فى يد المأمون لأن أمره لا يستقيم الا مع المأمون ، فقد لازم المأمون يتحين تنصيبه خليفة وهو وزيره ، وخطط لها وقد كان .
هذه العوامل جميعها لاتمنع موهبة أدبية ، لكن اذا كانت الموهبة موجودة أصلا فائها تساعد على مقلها وتنميها وتنعكس عليها قوة وتفردا .

(ب) الحسن بن سهل :

كان ذا مكانة رفيعة ، وان لم تساو مكانة الفضل ، ارتفع شأنه ، وعلا كعبه بعد أن استوزره المأمون ، وزادت منزلته بعد أن تزوج المأمون ابنته بوران ، هذا الزواج الذى كان من شامره خروج التوقيع للحسن^(١) .
وبه نال حظا عظيما فى زمن المأمون .
لعل من أبرز سجاياه ، حبه للعلم والادب ، ومجالسة أهلها ، وعقد المجالس الادبية ، لافادة منها .
يروى أبو بكر النحوى قال : " لما قدم الحسن بن سهل العراق ، قال : أحب أن أجمع قوما من أهل الادب ، فأحضر أبا عبيدة ، والأصمعى ، ونصر بن على الجهمى ، وحضرت معهم . فابتدأ الحسن فنظر فى رقاع بين يديه للناس فى حاجاتهم ، فوقع عليها ، فكانت خمسين رقعة ، ثم أمر فدفعته الى الخازن ثم أقبل علينا ، فقال : قد فعلنا خيرا ، ونظرنا ما نرجوا نفعه من أمور الناس والرعية ، فنأخذ الآن فيما نحتاج اليه .

(١) انظر التوقيع : زهر الآداب ٤٧٨/٢ ، أحمد صفوت ،
الجمهرة ٣٥٨/٣ .

ثم قال أبو بكر : فافضنا في ذكر الحفاظ ، فذكرنا
 الزهري وقتادة ، ومررنا ، فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض
 أيها الأمير في ذكر من مضى ، وبالحضرة هاهنا من يقول ماقرأ
 كتابا قط فاحتاج إلى أن يعود فيه ، ولادخل قلبه شيء فخرج
 عنه ؟ فالتفت الأصمعي وقال : إنما يريدني بهذا القول أيها
 الأمير ، والأمر في ذلك على ما حكى .

فأعاد الحسن تلك الرقاع ، وأخذ يذكرها الأصمعي واحدة
 (١)
 بعد الأخرى .

فحببه للأدب كان عن طريق التواصل مع أدباء العصر ، كما
 كان البرامكة يفعلون من قبل .

وليس من شك في أن مثل هذه المجالس كانت تثرى الحياة
 الأدبية ، وفيها تشجيع من الحسن بن سهل للأدباء على الاجتماع
 ومناقشة بعض قضايا الأدب ، ولأريب في أن نفع تلك المجالس
 كان ينعكس على الحياة الأدبية النشطة في ذلك الزمن .
 ومجالسة أهل العلم والأدب من اللذات التي يستمتع بها
 الحسن ، وكان من شدة ولعه بمجالستهم لا يتمثل إلا بهذين
 البيتين :

وما بقيت من اللذات إلا

محادثة الرجال ذوى العقول

وقد كانوا إذا ذُكروا قليلا

(٢)

فقد صاروا أقل من القليل

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١٧٣/٣ ، ١٧٤ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد ١٠٦/٢ .

ولم تقتصر مجالسه على الأدب فحسب ، بل كانت تفيض فى شتى ميادين العلوم وكان لها بالتأكيد أثر واضح على شخصية الحسن العلمية والأدبية ، بما اكتسبه من ثقافة عامة ، وقدرات نادرة ، طوعها لخدمة الناس ، لندستمع الى الأمبهانى يروى شيئا من ذلك ، يقول :

"مرض الواثق فدخل اليه الحسن بن سهل عائدا ، ومحمد بن عبد الملك الزييات يومئذ وزيره ، والحسن بن سهل متعطل ، فجعل الحسن يتكلم فى العلة وعلاجها ، وما يصلح للواثق من الدواء والعلاج والغذاء ، أحسن كلام . فحسده محمد بن عبد الملك ، وقال له : من أين لك هذا العلم يا أبا محمد ؟ قال انى كنت استمحب من أهل كل صنعة رؤساء أهلها ، وأتعلم منهم ثم لأرضى الا ببلوغ الغاية . فقال له محمد وكان حسودا : ومتى كان ذلك ؟ قال : فى زمن قلت فى :

فأين لاأين وأنى مثلكم

أنتم الأملاك والناس خول

(١)
فخجل محمد بن عبد الملك ، وأطرق ، وعدل عن الجواب" .

(٥) آل سهل بعد اسلامهم (زمن المأمون) .

(أ) مكانتهم السياسية .

(ب) مكانتهم الأدبية .

(أ) بلغت هذه الأسرة ما بلغت في سياسة الدولة العباسية

— عمر المأمون — بخطى مرتبة ومدروسة .

وكان أول من رفع شأنها الفضل بن سهل بحنكته ، وسيره
ودرايته واحكام تخطيطه ، يروى عنه أنه كان ذا همة عالية
من قبل أن يعظم أمره ، لم يكن يبحث عن مال ، فقد توقع له
مؤدب المأمون أن يحمل على ألف ألف درهم ، لأن المأمون كان
جميل الرأي فيه ، فاغتاظ الفضل مما توقعه المؤدب ، وقال
له : "ألك على حقد ؟ ألى اليك اساءة ؟ فقال له المؤدب :
لا والله ما قلت هذا الا محبة لك : أتقول لى انك تحمل معه
ألف ألف درهم ؟ والله ما صحبته لاكتسب منه مالا قل أو جل
ولكن صحبته ليمضى حكم خاتمى هذا فى الشرق والغرب ، قال :
(١)
فوالله ما طالت المدة حتى بلغ ما أملته " .

إذا كان التخطيط والتدبير الدرجة الأولى فى السلم
الذى وضع آل سهل أقدامهم عليها ، ليرتقوا منها الى المجد
السياسى .

ولا أستبعد بحال أن تكون من الاطماع لاعادة الامجاد
الكسروية ، لاسيما أن النعرة الفارسية لم تزل تجرى فى
دمائهم ، فقد روى أن الفضل بن سهل كان يدخل على الخليفة
وهو محمول على كرسى مجنح ، حتى تقع عين الخليفة عليه ،

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٢٢، ٢٢١ .

فيترجل ، وهى عادة فارسية متوارثة فان لم يستطع الفضل
الخلاص من العادات الفارسية ، فى ظل الخلافة العباسية ، فمن
باب أولى أن يفكر فى أمجاد جنسه ، ويتدبر الأمر لاعادتها ،
هذا مايشى به النص السابق ، وبعض مدائح الشعراء فيهم من
هذه الناحية :

من مثل قول محمد بن وهيب الحميرى فى الحسن بن سهل ،
قال فى ذات الغرض من جملة قصيدة :
ولما رأى الله الخلافة قد وهت
دعائهما ، والله بالامر خابر
بنى بك أركاناً عليك محيطاً

(١)

فأنت لها دون الحوادث ماطر

وقال محمد بن عبد الملك فى الحسن أيضا ، يمتدح بها
أمله ، ويمجد مكانته ، وفيها يلبسه حلة أكبر منه :

آباؤك الغر الالى جدهم كسرى أنو شروان والناس همل
فأين لاأين وانى مثلكم فأنتم الأملاك والناس خول
وقال حسين بن الضحاك فى الحسن كذلك :

سليل مرارب برعوا حلوما وراع مغيرهم بسداد كهل
ملوك إن جريت بهم أبروا وعزوا أن توازنهم بعدل

(٣)

وقال آخر ، وقد بلغ مداه ، وأفرط فى مدحه :

والله يعلم ما للملك من رجل

(٤)

سواك يملح للدنيا وللدين

(١) الأميهاى ، الأغاني ٧٩/١٩ - ٨٠ .

(٢) الأميهاى ، الأغاني ٧١/٢٣ .

(٣) الأميهاى ، الأغاني ١٧٧/٧ - ١٧٨ .

(٤) الفخرى ص ٢٢٣ .

وقال ابراهيم بن العباس يصف حال الحسن بن سهل بعد
أن تزوج المأمون بابنته بوران :

بنوك غدوا آل النبی ووارثوا الـ

(١)

خليفة ، والحاوون كسرى وهاشما

وعلى هذا النحو كانت تجرى السنة الشعراء فى اطرائهم
من حيث تهتز أريحيتهم ويضطربون ، ولولا احساس الشعراء بهذا
الضعف المتمثل فى أطماعهم لما تمادوا فى تماديحهم بهذا
الشكل الذى عرضت .

غير أن عمر المأمون لم يزل قويا ، لذا تحطمت عليه كل
أحلام السهلين ومطامعهم ، وماقتل الفضل بن سهل إلا دليل على
قوة الخلافة ، وعنفوانها ، بعد أن تجاوز حده ، وتمادى فى
غيه .

أفضى ذلك التخطيط المحكم الى :

(١) تثبيت الخلافة للمأمون .

ومنها يتضح دور آل سهل ، ومحاولاتهم السياسية فى
إقالة خلافة برمتها ، وإقامة أخرى بدلا عنها ، وهى من نتائج
التخطيط الذى رمى إليه الفضل ، وفى ذلك يقول مسلم بن
الوليد واصفا مقدرة الفضل السياسية :

(٢)

أقمت خلافة وأزلت أخرى جليل ما أقمت وما أزلت

ومقدرة الفضل هذه ، عززت قيمته ، ورفعت من مكانه عند
المأمون ، وهى بالتالى أفضت بالفضل إلى الوزارة التى كان
يحلم بها ، وعمل جاهدا لتحقيقها ، وهى أيضا التى أفضت به

(١) الاصبهانى ، الاغانى ٦٠/١٠ .

(٢) ديوانه ص ٣٠٧ .

إلى نهايته .

(٢) لم ينس المأمون الخليفة جهود الفضل وخدماته السابقة فوله الوزارة ، ولقبه بذي الرياستين ، وعلا شأنه بها كماشرت .

ولعل الوزارة لم تكن أقصى ماتمناه الفضل ، أقول لعله كان يخفى في سريرة نفسه نوايا كسروية ، لاعادة أمجاد جنسه وذلك بعد أن عظم أمره وبرزت سطوته ، مما أودى به إلى حتفه من الخليفة نفسه .

ولم يكن الحسن بن سهل في ذكاء الفضل ودهائه ، غير أنه نال حظا عظيما بعد أن استوزره المأمون ، وبعد زواج المأمون بابنته بوران وخروج التوقيع له عقب ذلك ، وبه^(١) زادت منزلته في الدولة .

اذاً فمجدهم بدأ بالتخطيط ، وثرثب عليه تثبيت الخلافة للمأمون ، ومن ثم تولوا الوزارة له . وسارت أمورهم في ظله صعدا الى أن أقل نجمهم .

(١) انظر : الحمري ، زهر الآداب ٤٧٨/٢ ، الجمهرة ٣٥٨/٣ .

(ب) مكائنتهم الأدبية .

لم يكن أمام هذه الأسرة الفارسية من طريق إلا الأدب عامة ، والكتابة الفنية على وجه الخصوص ، لاسيما وهي تحيا في ظل خلافة عربية اسلامية ، هذه الخلافة في أمس الحاجة الى كتاب أفذاذ ، يستطيعون بفضل فنهم تسيير دفة الأمور في الدولة ، بعد ترامى أطرافها ، وكثرة مسئولياتها ، فاهتم السهليون بهذا الفن ، وترسموا طريق البرامكة حتى بلغوا الغاية ، واعتلوا مراكز الوزارة في زمن المأمون .

وسنرى - إن شاء الله - مكائنتهم الأدبية بجلاء حين دراسة مآثرهم القنى من رسائل وتوقيعات وحكم وأقوال ، كلها تفيض بقدراتهم الأدبية وتنبئ عن نبوغهم في هذا المجال .

هذه المكانسة الأدبية والسياسية جعلتهم محط الانظار ، فكان عليهم بعد أن تحققت لهم تلك المنزلة أن يقوموا بدور الموجه والمشجع لأدباء جيلهم وبالأخص من شاركهم فن الكتابة فعمدوا إلى نمطين هامين لرعاية الكتاب .

أولهما : كان ماديا .

والآخر : معنويا .

وهم في ذلك يتأثرون بالبرامكة في النهج الذى انتهجوا وان كان في الحقيقة هو النهج الذى يترسمه كل طموح .

(١) لم يكن سقاء آل سهل منصبا على الشعراء كما سنرى في الفصل الثانى ، بل جاوزه الى الاهتمام بالكتاب ورعايتهم وزيادة أرزاقهم ، يروى الطبرى في تاريخه ،

أن أرزاق الكتاب كانت ثلثمائة إلى زمن المأمون فرفع
الفضل أرزاقهم .^(١)

(٢) أما الدافع المعنوي الذي انتهجه آل سهل في رعاية
الكتاب ، فكان أشد وقعا وأكثر تأثيرا في تقدم الكاتب
بصنعتة ، يُروى عن الفضل أنه إذا كتب كاتب عنه فأحسن ،
شكره على رؤوس الملا وبالف في شكره ، وإذا أخطأ وضع
الكتاب تحت مائلة ، وسكت إلى أن يخلو به ، فيريه
الخطأ ويعرفه المواب .^(٢)

ولعمري فإن هذا النهج أقوم في الإصلاح ، فيه مراعاة
لنفسية الكاتب ويحفزه إلى محاولة الابداع ، والجد في تلافى
الخطأ .

أما الحسن بن سهل فكان على سنة الفضل في إيثار كتابه
واكرامهم .^(٣)

(١) تاريخ الطبري ٩٥/٨ ، الجهمياري ، الوزراء والكتاب
ص ١٢٦ .

(٢) القضاعي ، أعتاب الكتاب ص ١٠٨ ، ١٣٨٠هـ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٧ .

الفصل الثانى

آل سهل فى منظار أدباء العصر

(أ) السهليون والشعراء :

(١) فضائل آل سهل ومحاسنهم فى مديح الشعراء .

(٢) نقائصهم فى قدح الشعراء .

(٣) بكاء أيامهم وعطائهم "الرشاء" .

(ب) آل سهل والكتاب .

(أ) آل سهل والشعراء .

بعد تمكن السهليين من سياسة الدولة ، وماقاموا به من دور ريادى فى رعاية الادب والادباء ، توافد الشعراء من كل حذب وموب يحدوهم الأمل ، ويمنون النفس بالعطاء ، فتزاحموا على أبواب أبناء سهل ، حاملين معهم ما أنتجته قرائحهم من مدائح ، وكان السهليون كرماء ، ترسموا سيرة البرامكة من قبلهم فى معاملة الشعراء ، ولقد بلغ سخاؤهم حد السرف ، لذا كثرت مدائح الشعراء فيهم ، حتى ليعجز المرید استقصاؤه أما القدح فقد كان أقل من القليل ، وكذلك الرشاء .

وبما أن القصد هو الاستجداء فقد تفتنوا فى مدائحهم غاية ما أمكنهم ، لكى تجد صداها عند السهليين ويجودون بما لديهم من عطاء .

والشعراء يعلمون جيدا أن الفضل والحسن من الادباء الكتاب الاقذاذ ، الذين يحيطون بدقائق الشعر وأسراره كما هم فى الكتابة ، لذا كان عليهم التفتن فى أساليب المدح بطرق شتى ، محاولين الوصول إلى مواطن الابداع التى يمكن معها أن تحرك عواطف آل سهل وتثير وجدانهم بالتفاعل الصادق مع أبيات الشاعر .

لذا ساعمد إلى تلمس مواطن الابداع فى القصيدة الشعرية قدر الامكان وإبراز عناصر المدح .

ويأتى فى مقدمة عناصر الاستجداء التى عول عليها الشعراء (الندى والبأس) وقد أتى أكثر الشعراء فى مديحهم بما يجاوز السهليين الى تصوير المثل الأعلى للخلق العربى عامة .

غير أن الفرق بين الشعراء ، كان فى التفاوت فى قدراتهم الفنية على ابتكار الصورة أو توليدها من غيرها .
ويأتى فى ظليعة من مدح آل سهل ، ابراهيم المولى وله (*)
أهميته من حيث أنه من القلائل الذين جمعوا بين فنى القول (الكتابة والشعر) وكان فيهما وحيد زمانه فمدحه له ثقله ووزنه .

ولأنه ينتسب إلى الأسرة الثالثة (آل صول) ، وفيها دلالة على ترابط الأسر، وقوة العلائق الأدبية بينها .

قال فى الفحل بن سهل :

لِفحل بن سهل يدٌ	تقاصر عنها المثل
فباطنها للندى	وظاهرها للقبيل
وبسطتها للغنى	وسطوتها للأجل (١)

يمتدح المولى يد الفحل ، ويجعلها فوق أيدي الناس وفوق المتخيل ، ويجمع فيها الفحل كله ، فى باطنها الكرم وفى بسطتها الغنى ، وفى ظاهرها للقبيل أمانة للجاء والرياسة كما أنها للبطش والسطوة على العدو .
فهى للأصدقاء كما أنها للأعداء ، وقد أجاد الشاعر فى تسخير لفظة (تقاصر) للإشادة بالممدوح واشتبات عجز غيره فى نيل مثاله فهى يد تقاصرت الأيدي عن مماثلتها .

(*) ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول ، أبو اسحاق ، كاتب العراق فى عصره ، أصله من خراسان ، وكان جده محمد بن صول من رجال الدولة العباسية ودعاتها ، ونشأ ابراهيم فى بغداد ، فتأدب ، وقربه الخلفاء ، فكان كاتب المعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، وتنقل فى الأعمال والدواوين إلى أن مات مقتلدا ديوان الضياع والنفقات بسامراء (١٧٦-٢٤٣هـ) .
الاعلام ٤٥/١ .

(١) الحصرى ، زهر الآداب ٣٥٣/٢-٣٥٤ ، الأصبهاني ، الأغاني ٥٩/١٠ .

وتكثر اشارة الشعراء فى مدحهم (بالندى والبأس)
مجتمعة فى قصيدة واحدة تارة ، وأخرى متفرقة ، والى جنبها
تجد بعض الفضائل الأخرى أحيانا . كرر الصولى مدحه الفضل
أيضا ، يقول :

يمضى الأمور على بديهته	وتريه فكرته عواقبها
فيظل يصدرها ويوردها	فيعم حاضرها وغائبها
وإذا ألمت صعبة عظمت	فيها الرزية كان صاحبها
المستقل بها وقد رسبت	ولوت على الأيام جانبها
وعدلتها بالحق فاعتدلت	ووسعت راغبها وراهبها
وإذا الحروب غلت بعثت لها	رأيا تفل به كتائبها
رأيا إذا نبت السيوف مضى	عزم بها فشفى مضاربها
أجرى على فئة بدولتها	وأقام فى أخرى نواديها
وإذا الخطوب تأثلت ورست	هدت فوامله نوائبها
وإذا جرت بضميره يده	أبدت به الدنيا مناقبها (١)

هدوء النفس ، والسيطرة على الموقف العميق ، سمة من
سمات الفضل عند الصولى ، فهو رجل موقف ، يحسن التصرف
بسرعة بداهة ، وذكاء متقد وهو مع ذلك لا يغفل عن العدل فى
التعامل مما يرفع من قيمته ، ويزيده سموا عند الناس .

وبديهة الفضل تسوقه الى الصواب ، رغم أن البداهة هى
التصرف مع الملمات بسرعة الا أن صاحبنا يعمل التفكير معها
مما يجعل أحكامه التى يصدرها تأخذ سمة النجاح ، لأنه يحيط
بجميع وجوهها .

فيظل يصدرها ويوردها فيعم حاضرها وغائبها

ويحوم الشاعر حول هذه الفكرة فى الأبيات السابقة ،
لأنه حين يمدحه بجودة الرأى ودقته فى الأبيات الأخيرة ، فإنما
يمدح سرعة بديهته ، لأن رأيه كان ورعى الحرب قائمة ، مما
يتوجب صواب الرأى وسداده مع سرعتة .

وإذا الحروب غلت بعثت لها

رأيا تفل به كتائبها

رأيا إذا نبت السيوف مضى

عزم بها فشقى مضاربها

على أن الشاعر كان سلس الأسلوب ، قريب التأتى ، مبدعا
فى انتقائه للفاظ التى تزيد فى قوة المعنى ، وتخدم
الفكرة ، اختار لفظة " غلت " لوصف شدة الحرب وتأزمها ،
ليثبت أن للفصل رأيا يُطغى به نارها رغم غليانها ويفل به
كتائبها ورجالها .

وينتقل المولى إلى مدح الحسن بن سهل مسجلا أحداث
المصاهرة بين آل سهل وآل هاشم ، بعد زواج المأمون ببوران
ابنة الحسن ، قال :

ليمنك أمهاراً أدلت بعزّها

خدودا ، وجدعت الأنوف الرواغما

جمعت بها الشملين من آل هاشم

وحزّت بها للاكرمين الأكارما

بنوك غدوا آل النبى ووارثو الـ

(١)
خلافة ، والحاوون كسرى وهاشما

ارتفع شأن الحسن بهذه المماهرة ، وعلت منزلته ، ولأن
الشعر مرآة عاكسة لما يدور من أحداث في المجتمع ، سجل
هذه الواقعة ، وتغنى بها الشعراء ، للاستجداء واستدرار
العطاء ، وفي قوله "وجدت الأثوف الرواغما" إحياء بكثير من
المعاني التي يسذهب فيها الخاطر مذاهب كثيرة ، فمن هم
أصحاب الأثوف التي رغمت بهذا الزواج ، أهم من استكثروا على
الفرس هذه المنزلة التي صعدوا إليها ؟ وفي قوله "وحزت بها
للكرمين الأكارما" إحياء آخر عجيب ، فلو اكتفى بقوله :
وحزت الأكارما لأفناد صفارهم ، لكن هذا الاحتراس الجميل
للأكرمين أفاد أن مجدهم انضاف إليه مجد .

يكرر استدرار العطاء من هذه الناحية يقول أيضا :
هنتك أكرومة جللت نعمتها

أعلت وليك واجتثت أعاديكا

ماكان يحيا بها الا الامام وما

(١)
كانت اذا قرنت بالحق تعدوكا

هذا النسب لم يقف أثره عند الحسن ، بل تجاوزه الى
أوليائه فرفعهم وأعزهم ومن ثم الى أعدائه فاجتثهم من
عروقهم .

ثم يسرف الشاعر على نفسه ، حين البس الممدوح حلة
أكبر منه ، في البيت الثاني .

يقول المولى في مبالغة غير سائغة ، هذه الأكرومة
لايستحقها الا الامام ، ولو كان لها أن تقرن ، وأن تكون لسان

مع الامام ففى لاتعدوك إلى ثالث .. وبذلك جعل المولى ممدوحه
فى منزلة الامام (ال خليفة) ، وإذا كان اللفظ يشى أحيانا
بما يضر القلب لدنا هذا القول على ماكان يتلجلج فى صدور
القوم .

ويختار الشاعر بعض الالفاظ المعبرة والموحية ، لابرار
عظيم نعمة الحسن التى حل بها ، من مثل (جللت) و(أعلت)
و(اجتثت) .

ومن الشعراء الذين تراحموا على أبواب آل سهل ، محمد
ابن حازم الباهلى قال فى مدح سقاء الحسن بادئا قصيدته
بذم الناس جميعا لبخلهم :

وقالوا لو مدحت فتى كريما
بلوتُ الناس مذ خمسين عاما
فما أحد يُعدّ ليوم خير
إلى أن قال فى الحسن :

فطاف الناس بالحسن بن سهل
وقالوا سيدا يعطى جزيلا
فقلت مفى بذم القوم شعرى
وماخبر ترجمه ظنوني
فجئت وللأمور مبشرات
فإن يك ماتنشر عنه حقا

طوافهم بزمزم والخطيم
ويكشف كربة الرجل العظيم
وقد يؤتى البرىء مع السقيم
بأشفى من معاينة الحليم
ولن يخفى الاغر من البهيم
رجعت بأهبة الرجل المقيم

(*) هو محمد بن حازم بن عمرو الباهلى بالولاء ، شاعر
مطبوع كثير الهجاء ، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون
ولد ونشأ فى البصرة ، وسكن بغداد ومات فيها . قال
الشابشتى : كان يأتى بالمعانى التى تستغلق على غيره .
ت ٢١٥ هـ .

وان يك غير ذاك حمدت ربى و زال الشك عن رجل كريم
وما الآمال تعطفنى عليه ولكن الكريم أخو الكريم (١)
ينهج الباهلى أسلوبا جديدا فى استجداء الحسن ومغايرا
لما سبقه من أساليب الشعراء .

استهل هذه الابيات بذي الناس عامة ، ووسمهم بالبخل دون
استثناء . فتجاربهم الكثيرة أعطته انطبعا سيئا عن الناس ،
وقد لا يكون مايقول عن الناس حقا ، لكنه أسلوب فى الطلب
يظهر به جود ممدوحه ، يقول :

بلوت الناس مذ خمسين عاما وحسبك بالمجرب من عليم
فما أحد يعد ليوم خير ولا أحد يعود ولاحميم
وينتقل بعد ذلك الى الحسن وهو فى حالة شك وريبة ،
أكريم هو معطاء فى دنيا البخلاء أم أنه من جملة البخلاء ،
ثم يقرر الشاعر تبديد ظنونه ، وحسم شكوكه بمعاينة الحسن
واستطلاع أمره ، واختباره ، فلن يخفى عليه حقيقة الامر وهو
المجرب .

لكن ما الخبر الذى ترجمه ظنون الشاعر ؟ والذى قال ان
المعاينة تشفيه منه ، ولماذا لم يكن على ثقة من كرم الحسن
قبل شخوصه اليه ؟ أكان الحسن مقلدا أم هى شكوك الباهلى
ومشيمه ، ولكن الكريم أخو الكريم ؟

وعلى كل حال للباهلى هنا نسق فريد فى مدحته ، لايفزع
ولايتصاغر ، وأوشك أن يضع نفسه فى مرتبة ممدوحه . فان يك
الحسن بخيلا رجع بأهبة الرجل المقيم ، وان يك كريما زال
عنه الشك ، مرة أخرى أهو سوء ظن الشاعر بالناس أم أن

(١) الأصبهاني ، الاغانى ١٤/١٠٣ ، الشابشتى ، الديارات
ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ط/الثانية ، المعارف ، بغداد ١٣٨٦هـ .

الحسن كان مقلا ؟ المهم أن هذا النص لم يرد على وحيرة المدائح التي قيلت في الحسن وحسبه أنه يشير في المتلقى هذه الخواطر .

أما قاموس الشاعر اللغوي ، فلا تخرج معانيها عن ألفاظ الشك ، والظن ، والحيرة ، احياء بحالة الشاعر ، (بلوت ... المجرب ... ظنوني ... معاينة ... لن يخفى ... ماتنشر ... الشك ... الذم ...) إلى آخر ماتناشر في ثنايا هذه الابيات من الفاظ تخدم فكرة الشاعر ، وسؤال الممدوح دون ضراعة . واستعان الباهلي أيضا ببعض الصور البيانية لخدمة غرضه الاستجداء فيكنى عن الكريم بالبريء تارة ، وبالاغر أخرى ، وكذا يكنى عن البخيل بالسقيم تارة ، وبالبهيم أخرى .

ومن هؤلاء الشعراء الذين تكاثروا على أبواب السهليين يمتدحون سيرتهم محمد بن وهيب الحميري ، قال في الحسن بن سهل من قصيدة أولها :

ودائع أسرار طوتها السرائرُ

وباحت بمكتوماتهن النواظرُ

ملكنت بها طيَّ الضمير وتحتته

شبا لوعة ، غضب العرارين باترُ

فأعجم عنها ناطقٌ وهو معربُ

وأعربت العجم الجفونُ العواطرُ

(*) هو محمد بن وهيب الحميري ، أبو جعفر ، شاعر مطبوع مكثرت من شعراء الدولة العباسية ، أصله من البصرة ، عاش في بغداد وكان يتكسب بالمديح ، ويتشيع ، اختلف بالحسن بن سهل ومدح المأمون والمعتصم ، كان تياها شديد الزهراء بنفسه ، ت ٢٢٥هـ .
الاعلام ١٣٤/٧ .

ألم تغدنى السَّراء فى ريق الهوى
 غريرا بما تجنى على الدوائر
 تسالمنى الأيام فى عنفوانهم
 ويكلؤنى طرف من الدهر ناظر
 حتى انتهى إلى قوله :
 إلى الحسن البائى العلا يمت بنا
 عوالى المنى حيث الحيا المتظاهر
 إلى الأمل المبسوط والأجل الذى
 باعدائه تكبو الجدود العواثر
 ومن أنبعت عين المكارم كفته
 يقوم مقام القطر والروض دائر
 تعجب تاج المُلْك فى عنفوانهم
 وأطَّت به عَمَرَ الشباب المنابر
 تعظّمه الأوهام قبل عيانه
 ويصدر عنه الطرف ، والطرف حاسر
 به تجتدى النعمى ، وتستدرك المنى
 وتُستكمل الحسنى وترعى الأوامر
 أمان بنا داعى نوايك مؤذنا
 بجودك إلا أنه لا يحاور
 قسمة مروف الدهر باساً ونائلا
 فمالك موصور ، وسيفك واثر
 ولما رأى الله الخلافة قد وهت
 دعائهما ، والله بالامر خابر
 بنى بك أركاننا عليك محيطه
 فانت لها دون الحوادث سائر

وأرعنَ فيه للسوابغ جنّةٌ
وسقفَ سماءٍ أنشأتُه الحوافرُ
لها فلكٌ فيه الأسنةُ أنجمُ
ونقع المنايا مستطيرٌ وشائرُ
لك اللحظات الكائنات قوامدا
بنعمى وبالباساء وهى شوازرُ
فلو لم تكن الا بنفسك فاخرا
لما انتسبت الا اليك المفاخر
(١) ابن سهل له يومان ، يوم بأس ، ويوم عطاء ، وهذه هى
الصورة المثالية فى المدح ، ذلك لاعتماد كثير من
الشعراء عليها ، حتى صار تفاوت الشعراء فى تناولها
رهنا بجدة الصورة ، وحيويتها .
قسمت صروف الدهر باسا ونائلا
فمالك موتور ، وسيفك واتر
واسهب الشاعر فى وصف يوم العطاء لغرض الاستجداء ،
أبدع فى قوله :
ومن انبعت عين المكارم كفه
يقوم مقام القطر والروض دائر
أى أن عطاءه يحل بدلا من القطر اذا شحت السماء بمائها
وهى صورة من كرام الصور فى الشعر العربى ، يقوم مقام
الغيث يسقى الروض فى كل مكان ، وناهيك بالرياض نضرة بديعة

(١) الاصبهانى ، الاغانى ١٩/٨٠، ٧٩ .

وبهجة اذا سقيت ، ولو قال يقوم مقام الغيث للارض الماحلة
الجذباء لما تركت فى النفس ما تركته الصورة الاولى التى
ساقها الخيال مساقا رائعا .

(٢) يسجل الشاعر أهمية الدور السياسى الذى قام به الحسن
فى ظل الخلافة العباسية ، هذا الدور الذى ثبت به
أركان الخلافة بعد وهنها كما قال :

ولما رأى الله الخلافة قد وهت

دعائهما ، والله بالأمر خابر

بنى بك أركاننا عليك محيطة

فأنت لها دون الحوادث سائر

وهى صورة أخرى لاتقل عن سابقتها تأثيرا بسبب ما فيها
من خيال دقيق ، قاله بنى بالحسن أركاننا للخلافة بعدما وهت
دعائهما ، واسناد البناء لله تعالى فيه من الكياسة
واختيار اللفاظ المناسبة للمعنى الذى لايحل غيره محله والا
أخل الشاعر وأساء ... ثم ان الحسن بحنكته صار واقيا
للخلافة من حوادث الايام .

واكبر ظنى أن أبناء سهل كانوا يعيشون أحلاما وردية
خيالية عند سماعهم مثل هذا الاطراء ، وأشباهه ، ولعلمهم
كانوا يرون أن بالامكان إعادة أمجاد الأكاسرة ، بدليل هذه
الايماءات التى ترد فى ثنايا بعض الشعر .

وأحسب أن هؤلاء الشعراء لم ينطلقوا فى مدحهم من هذه
الناحية والاكتفوا منها الا بعد احساسهم بنوايا هؤلاء ،
فيحاولون تحريك أشجان آل سهل ومواطن الضعف فى نفوسهم ،

فيمدحونهم بما يحبون أن يمدحوا به ، حتى ينالوا جزيل
العطاء ، ووافر السخاء .

فالمسألة إذن ليست من مبالغات الشعراء فحسب ، بل
وراءها من الدوافع ما يجعل الشعراء يقولون وآل سهل يسمعون
ويطربون لذلك .

ومن هؤلاء الذين أغراهم العطاء حسين بن الضحاك ، قال
فى الحسن :

أرى الآمال غير معرجات	على أحد سوى الحسن بن سهل
يبارى يومه غده سماحاً	كلا اليومين بأن بكل فضل
أرى حسناً تقدم مستبداً	بعد من رياسته وقبل
فإن حفرتك مشكلة بشك	شفاك بحكمة وخطاب فمل
سليل مرازب برعوا حلوما	وراع صغيرهم بسداد كهل
ملوك أن جريت بهم أبروا	وعزوا أن توازيهم بعدل
ليهنك أن ما أرجات رشد	وما أمضيت من قول وفعل
وأنت مؤثر للحق فينا	أراك الله من قطع ووصل
وأنت للجميع حيا ربيع	يصوب على قرارة كل محل ^(١)

آمال الشاعر عرجت به الى الحسن بن سهل وساقته اليه
دون غيره من الناس ، فهو كريم تتبارى أيامه على البذل ،
أليس هو ربيع الشعراء الذى يحلون عليه ، وينعمون بخيره ،
فهم فى ربيع دائم ، من عطاياه السابقة المتوالية .

ولم يكن ابن سهل معطاء فحسب ، بل كان مع ذلك حكيماً
يستطيع بدرايته لشئون الحياة أن يحل المشكلات المستعصية .

(١) الأصبهاني ، الأغاني ١٧٧/٧ ، ١٧٨ .

فان حضرتك مشكلة بشك شفاك بحكمة وخطاب قصيل
ولم ينس الشاعر وهو يمتدح حاضر الحسن وأيامه الحسان
أن يشير الى تأمل أرومته ، رغم أن الحسن لم يكن له كل تلك
الاصالة ، وقد أشرت الى ذلك فى صفحات سابقة .

سليل مراذب برعوا حلوما وراع مغيرهم بسداد كهل
ملوك ان جريت بهم أبروا وعزوا أن توازنهم بعدل
ومما يلحظ على هذا النص أن الاشادة بأعراق السهليين ،
وبأصولهم الفارسية أخذت تستعلن من خفاء ، بعدما كان يشار
اليها على حذر "فالحسن سليل مراذبة كبار الحلوم بررة عدول
مغيرهم من سداد الرأى بمنزل الكهل المجرب" .

يعزز النصوص الشعرية السابقة ، قول محمد بن عبد
الملك الزييات فى الحسن بن سهل من قصيدة أولها :
كأنما حين تنأى خطوه

أخنس موشى الشوى يرعى القلل

الى أن بلغ :

الى الامير الحسن استنجدتها

أى مراد ومناخ ومحل

سيف أمير المؤمنين المنتقى

وحصن ذى الرياستين المقتبل

آباؤك الفر الالى جدهم

كسرى أنو شروان والناس همل

(*) هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، أبو جعفر ،
المعروف بالزييات ، وزير المعتصم والواثق ، عالم
باللغة والادب ، من بلغاء الكتاب والشعراء ، نشأ فى
بيت تجارة (١٧٣-٢٣٣هـ) .
الاعلام ٢٤٨/٦ .

من كل ذي تاج اذا قال مضى

كل الذى قال ، وان هم فعل

فاين لا ايين وانى مثلكم

(١)

فانتم الاملاك والناس خول

فالببيت الثالث واضح الدلالة فيما ذهبت اليه الى أن
الاشادة بالفرس بدأت تسفر لاسيما اذا كان الشاعر يمت اليهم
وقد ظن ابن الزيات كغيره فى استمرار عز آل سهل وسيطرتهم
على مقاليد الحكم ولما تردت أحوالهم بعد ذلك ، وانطفأت
أنوارهم ، وعلا مكانه هو ، وارتفع شأنه ، تنكر للحسن وقد
(٢)
أوردت النص فيما مضى .

وتنكر ابن الزيات أمر وارد ، ومامدائحه تلك الا أمل
فى جاه أو مركز ، أما وقد تبدل الحال ، بانحطاط آل سهل
فما الذى يرجوه منهم ، وحاله أحسن من حالهم ؟
وامتدحه ابن الزيات أيضا ، وهو فى وزارته للمأمون
فمنحه الحسن عشرة آلاف درهم ، فقال :

لم أمتدحك رجاء المال أطلبه

لكن لتلبسنى التحجيل والغرا

ماكان ذلك الا أننى رجل

(٣)

لا أقرب الورد حتى أعرف المصدر

تفاوتت قدرات الشعراء فى تناول الفكرة ، وتسخيرها
لخدمة الغرض ، وتوليد الصورة ، وابتكارها ، ذلك أن الفكرة
واحدة عند سائر الشعراء ، والوسيلة تتباين من شاعر لآخر

(١) الأصبهاني ، الأغانى ٧١/٢٣ .

(٢) انظر ص ١٦٦ من بحثنا .

(٣) الحميرى ، زهر الآداب ٣٩٣/٢ .

حسب قدرة كل شاعر ، وموهبته وهذا مجال الشعر .

وفى شكرهم قال على بن جبلة العكوك :^(*)

أعطيني يا ولي الحق مبتدئا

عطيةً كافأت مدحى ولم ترنى

ما شمت برّك حتى نلت ربّقه

كأنما كنت بالجدوى تبادرنى

فقد غدوت على شكرين بينهما

تلقيح مدح ، ونجوى شاعر فطن

شكرا لتعجيل ما قدمت من حسن

(١)

عندى وشكرا لما أوليت من حسن

العطاء ابتداء والتعجيل به نعمتان أطلقتهما لسان

الشاعر بشكرين ، شكر على المبادرة بالعطاء ، وشكر على

التعجيل به .

وفى هذا ايماء بأن السهليين كانوا على غرار البرامكة

يملطعون الشعراء اصطناعا ، ليسيروا ذكرهم ، ويؤثّلوا

مجدهم .

ومن المداخل التى اتسمت بأداء فنى رائع ، قول دعبل

فى الحسن :

(*) على بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمن الابطاوى ، من أبناء الشيعة الخرسانية ، أبو الحسن المعروف بالعكوك شاعر عراقى مجيد ، كان أعمى أسود أبرص ، وكان من أحسن الناس انشادا ، ولد بقرب بغداد ، وقتله المأمون (١٦٠-٢١٣هـ) .
الاعلام ٢٦٨/٤ .

(١) ديوانه ص ٧٢ ، جمع وتحقيق زكى العنانى ، مطابع دار السلام ١٩٧١م ، البيتان الأول والثانى فى العقد الفريد ٢٦٥/١ ، وفى الكامل للمبرد ٤٠٢/١ ، وفى الشعر والشعراء ٨٦٤/٢ ، ٨٦٥ ، وفى وفيات الأعيان ٣٥٠/٣ كافات شعري .

حسن ظن اليك أكرمك الله
 به دعائى ، قلاعدمت الملاحا
 ودعائى اليك قول رسول
 الله اذ قال مفعها افصاحا
 ان أردتم حوائجا عند قوم
 فتنقوا لها الوجوه الصباحا
 ولعمري لقد تخيرت وجهها
 (١)
 مابه خاب من اراد النجاحا

يكثر دعبل من الدعاء لممدوحه ، ليستميل قلبه ،
 ويمتدر عطاءه ، فالذى قاده إلى الحسن حسن ظنه ، فالحسن
 عنده كريم معطاء .

ومن الشعراء الذين قصدوا آل سهل ، سعيد بن صمم ،
 قدم على الحسن مستميا فوصف سوء حاله ، وحال بنييه :
 سَقِيَّا لَحِيَّ بِاللَّوَى عَهْدُهُمْ مُنْذُ زَمَانٍ ثُمَّ هَذَا رَبُّهُمْ
 عَهْدُهُمْ وَالْعَيْشُ فِيهِ غُرَّةٌ وَلَمْ يَنَّاوِ الْحَدَثَانِ شَعْبَهُمْ
 وأخذ يصف سوء حال بنييه تارة ، وأخرى يمتدح الحسن
 ويطرى أرومته :

أدعو ابن سهل حسنا ومجده	حين تعيا بعيالى أمرهم
أظلل أدعو باسمه ودونه	قوم كثير رغبة تركتهم
تخييرا اخترته عليهم	ولا بهم بائ ولا ذمتهم
ناموا فلما أن رأيت نومهم	عنى تحملت فما أيقظتهم
يا ابن كرام كابرأ عن كابر	زانوك زينا باقيا وزنتهم
كانوا هم الاشراف سادوا كلهم	ما فى جميع العالمين مثلهم

بنوا جميع المجد فيما قد مضى وأنت تبنيه كذلك بعدهم
 فى شرف مؤيد أركائمه لم يبنه بان سواهم قبلهم
 فيا ابن سهل وابن أباء له كانوا ، مناجيب قديما فضلهم
 والله ما تصبح بين معشر الا وأنت شمسهم وبدرهم
 والناس أخاذ وماء ناقع وغدر تجرى وأنت بحرهم
 والناس أجناس كما قد مثلوا وفيهم الخير وأنت خيرهم
 حاشا أمير المؤمنين انه خليفة الله ، وأنت مهرهم^(١)
 وعاد الشاعر مرة أخرى الى وصف ما بلغه أبناؤه من
 الجوع والعوز وسوء الحال ، الى أن قال :

وقد رجونا يا ابن سهل نائلا منك يرم فقرهم وبؤسهم
 يحس القارئ للأبيات السابقة ، معاناة الشاعر وبنيه
 من الجوع والعوز والحالة التى تردى فيها .
 فقاموس الشاعر اللغوى لا يخرج عن التذلل لبيان سوء
 الحال تارة . وأخرى الاسهاب فى مدح كرم الحسن ، وأرومته ،
 رغم أن آل سهل لم تكن لهم كل هذه الامالة فى ارومتهم .
 تتفاعل النفس مع المأساة التمثيلية فى الأبيات ، لما
 فيها من جمال الأداء ، ومدق العاطفة ، التى تنبعث من كل
 بيت فيها .

فالشاعر يدعو مجد الحسن حين اشتد به الكرب ، وأعياء
 أمر عياله مكررا دعاءه ، متجاوزا كل من عداه ، لاعن بأس أو
 ذم ، لكنه تخيره تخيرا ، لأن الناس ناموا عنه فلم يمدوه
 بما يقيّل عثرته ، ولذلك لم يرد ايقاظهم بقرع أسماعهم ،
 استجداء ، وهى صورة بريئة من التكلف والتمنع ، جديرة أن

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوىء ص ٣٠٨-٣١٠ .

تهز أريحية المقلين فما بالك لو عرف عنهم الاكثار .
ثم تتداعى صور الشاعر كأحلام النائم فى بساطة كائنها
ماء جدول ، فيشيد بآباء الممدوح وآثارهم ، ثم يجعله شمس
الناس وبدرهم ، وبرهم وخيرهم .. وفى النهاية يستثنى من
هؤلاء المفضولين أمير المؤمنين ، لأنه خليفة رسول الله صلى
الله عليه وسلم .

قصيدة المدح فيما سبق ، اعتمدت على فكرة السخاء ،
فكانت المحور الأساسى ، والعنصر الرئيسى ، والداق القوى
لانشاء القصيدة ، لأن القصد الاستجداء ، واستدار العطاء ،
وكما رأينا فقد تفاوتت قدرات الشعراء فى التناول . ومعها
تناول الشعراء بعض الفضائل على ندرة . ومن هذه السمات
الجديدة ، قول التميمى ، أبو محمد عبد الله بن أيوب فى
مدح الفضل :

لعمرك ما الاشراف فى كل بلدة

وان عظموا للفضل الا صنائع

ترى عظماء الناس للفضل خشعا

إذا بدا ، والفضل لله خاشع

تواضع لما زاده الله رفعة

(١)

وكل جليل عنده متواضع

أبان الشاعر مكانة الفضل ومنزلته ، ثم وصفه بعد ذلك

بالتواضع ، فالأشراف وان عظموا ما هم الا صنائع عنده ، فإذا

(*) عبد الله بن أيوب ، أبو محمد التميمى ، من تميم اللات
ابن شعلبة ، أحد شعراء الدولة العباسية ، مدح الأمين
والمأمون وغيرهما . ت ٢٠٩ هـ .
الأعلام ٧٣/٤ .

(١) الحصرى ، زهر الآداب ٢٥٣/٢ .

كانت هذه حاله ، فيكون لتواضعه وقع على النفس ، وقبول حسن ومزية رائعة ، تزيده تشريفا ، وترفع من قدره ، هذه المكانة بين الناس لم تنس الفضل نفسه ، بل تواضع لله .

ومن الفضائل الجديدة التي تناولها بعض معاصري آل سهل قول مسلم بن الوليد في مدح الفضل بن سهل :

لو نطق الناس أو أثنوا بعلمهم

ونبعت عن معالي دهرك الكتب

لم يبلغوا منك أدنى ماتمت به

(١)
إذا تفاخرت الأملاك وانتسبوا

فلو تفاخر العظماء ، فلن يبلغوا مبلغ الفضل يشهد له بذلك الكتب ، والبيتان يشيران إلى نزعة آل سهل في حب العلم ، ومجالسة أهله . يقول الحسن متمثلا بهذين البيتين : وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوى العقول (٢)

وقد كانوا إذا ذكروا قليلا فقد ماروا أقل من القليل

(*) مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء ، المعروف بصريح الغواني ، شاعر غزل وهو أول من أكثر من البديع ، اتصل بالفضل بن سهل ، وولاه بريد جرجان ، فاستمر إلى أن مات ، مدح الرشيد ، والبرامكة ، وآل سهل .
الأعلام ٢٢٣/٧ .

(١) ذيل ديوان مسلم بن الوليد ص ٣٠٤ ، ت : د . سامي الدهان ، دار المعارف مصر .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٠٦/٢ .

(ب) الهجاء .

كانت سيرة آل سهل مع الناس وفي جملتهم الشعراء حسنة
فقد بذلوا المال لهم بسخاء ، وأدنوهم من أنفسهم ، فحال
ذلك دون الشعراء ، وهجاء آل سهل ، بل على العكس كثر
المديح وأسهبوا فيه ، كما رأينا .

والعامل الثانى فى ندرة هجاء السهليين ، قمر الحقبة
الزمنية التى عاشتها الأسرة ، فى خدمة الدولة العباسية ،
فقمر الحقبة الزمنية لم تولد بعد حاقدين عليهم ، كما كان
حال البرامكة . زيادة على ذلك قلة أفراد هذه الأسرة ،
مقارنة بالبرامكة ، أدى إلى ندرة الهجاء ، وهذه نتيجة
منطقية .

هذه الأسباب مجتمعة تفسر قلة ما هجوا به من الشعراء .

يقول دعبل فى هجاء الحسن :

لاتحمدن حسنا فى الجود إن قطرت

كفاه جزلا ، ولاتذممه إن رزما

فليس يبخل^١ اشفاقا على جِدَّةٍ

ولايجود بفضل الجود مُفْتَنَمَا

لكنها خطراتٌ من وساوسه

(١)

يعطى ويمنع لا بخلا ولاكرما

(١) ديوانه ص ٣٢٢ .

فى وفيات الأعيان ٤٠٣/٤ تنسب هذه المقطوعة لأبى القاسم
الأعمسى ، واسمه معاوية بن سفيان ، وكان قد اتمل
بالحسن بن سهل يؤد أولاده ، فعتب عليه فى شيء ، فقال
يهجوه بهذه الأبيات .

الابيات قوية فى مضمونها الهجائى ، اتخذ الشاعر أسلوبا استفزازيا لهجاء الحسن ، فلم يكن كرمه حيا فى البذل ، واغتنام الجود ، ولا بخله خوفا من نفاذ المال ، ومن ثم فيعزو الانفاق والامساك إلى وسواس يصبه ، فيعد فى المجانين الموسومين ، الذين لا يدركون حقيقة ما يفعلون .
وهذه الفكرة التى حوم حولها الشاعر مأخوذة من الواقع فقد أوردت بعض المصادر أن الحسن كان موسوسا ، من جزعه على أخيه .^(١)

(*)

قال اسحق فى الحسن :

باب الأمير عراء مابه أحد

إلا امرؤ واضع كفا على دقن

قالت وقد أملت ما كنت أمله

هذا الأمير (ابن سهل) حاتم اليمن

كفيتك الناس لا تلقى أخا طلب

يفسىء دارك يستعدى على الزمن

إن الرجاء الذى قد كنت أمله

وضعته ورجاء الناس فى كفن

فى الله منه وجدوى كفه خلف

(٢)

ليس السدى والندى فى راحة الحسن

فى زحام الناس على أبواب الأمراء مظنة لجودهم ، لأن

المورد العذب كثير الزحام .. أما شاعرنا اسحق فخاب أمله

فى الحسن وتبددت أحلامه فى العطاء حين قدم على الأمير فلم

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٢٣ ، الطبرى ٥٦٨/٨ ، ٥٦٩ .

(*) لم أجد من يعنى بترجمته ، ولعله اسحق الموملى .

(٢) المبرد ، الكامل ٥٣٦/٢ .

يجد أحداً ببابه غير رجل وضع كفه على ذقنه ، كناية حسنة عن انصراف الناس ، واعراضهم عن بابه يأساً من نواله .

ثم يجلو الشاعر الصورة التي عرضها في البيت الأول ببيتين يمعنان في السخرية من بخل الأمير وكزازته من خلال خطاب صاحبه التي تحاوره ، مظهرة أمله في عطاء الأمير على غرار ما أمل أيضاً ، قائلة "هذا الأمير ابن سهل حاتم اليمن" سخاء كفى حاجتهم ، فلاتجد منهم أحداً يستعدى على الزمن ، شاكياً سوء حاله .

ثم يخرجنا الشاعر من هذا الحوار الساخر ، ومن التلميح الى التصريح في البيت الرابع باظهار الحقيقة معلناً يأسه ، وأنه وضع أمله في نوال الحسن مع آمال كل معتفيه في كفن واحد . موحياً أن بخله ليس عارضاً لكنه بخل مؤصل ، وعلى جميع سائليه .

ومادام الحسن أخلف ظنه فאלله خير منه ، وأكثر عطاء وهو حسبه .

والآبيات على الرغم من أن الشاعر لم يلجأ فيها الى الهجاء المباشر إلا أنها تنطوى على هجاء شديد المرارة .

(ج) الرشاء .

الرشاء من الوفاء ، وهو من أسمى غايات الشعر ، اذا صدر عن عاطفة صادقة .

والرشاء الذى قيل فى آل سهل نزر جدا ، اذا قيس برشاء البرامكة ، وندرة الهجاء فى السهلين لها أسبابها ودوافعها ، واذا ما ألقينا نظرة عجلى على مصرع الفضل ووفاء الحسن نجد أن الأول كان عقد المأمون وساعده الأول ، وقتل بتدبير من المأمون نفسه ، وذلك بعد أن حجب الاخبار ، وما يدور خارج قصر الخلافة ، من اضطرابات حول الخليفة وخروج الناس عن طاعته ، وقد نتج ذلك بعد أن أقنع الفضل المأمون بأن يوصى بالخلافة من بعده لعلى الرضا ، مما أحقق آل العباس فخلعوا المأمون ، وأعطوا الأمر لعمه ابراهيم المهدى .

هذه الامور الخطيرة حجبها الفضل عن المأمون ، وبعد استكشافه اياها ، وما صنع به الفضل كان طبيعيا أن يفكر فى قتله ، والخلص منه ، فقد جاوز حده ، وبان خطره .

وهنا يبرز الى الذهن سؤال مهم ، ألا يمكن أن يكون المأمون قد حرم على الشعراء رشاء الفضل كما فعل أبوه الرشيد مع البرامكة من قبل . وان لم يحدث ذلك ، فامتناع الشعراء عن رشائه أمر وارد ، رغبة منهم فى استمالة قلب

(١) تاريخ البيهقى ص ١٤٨ وما بعدها .

(٢) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢١٧-٢١٩ .

المؤمن، ومجاراته له في غضبه على الفضل .
 أما الحسن فقد وافته المنية وهو خارج الوزارة ، وهذا
 يقلل من أهميته ، ويعنى ذلك نسيانه .
 فهذه الأمور مجتمعة حالت بين الشعراء ورشاء آل سهل ،
 وقل الهجاء فيهم .
 على أن مقتل الفضل أبكى مريع الغواني وأشار أحزانه ،
 ولا عجب فقد كان مسلم بن الوليد وفيه للفضل حافظا للجميل ،
 ولاء الفضل يريد جرجان تكريما له ، ورفعاً لقدره من التكسب
 بالشعر وهو على كبر . قال :

دَهَلْتُ فلم أنقِعْ غَلِيلاً بعبِرة

وأكبرت أن ألقى بيومك ناعياً
 فلما بدا لي أنه لأعجُ الأسَى
 وأن ليس إلا الدمعُ للحزن شافياً
 أقمتُ لك الأنواع ترتدُّ بينها
 ماتمَّ يندبن الندى والمعالي
 وما كان منعى الفضل منعى وحادةً
 ولكن منعى الفضل كان مناعياً
 اللباس أم للجود أم لمقادِمِ

من الملك يزحمن الجبال الرواسيا ؟
 عفت بعدك الأيام ، لا بل تبدلت
 وكُنَّ كنعياتٍ فعُدن مباكياً
 فلم أر إلا قبل يومك ضاحكاً
 (١)
 ولم أر إلا بعد يومك باكياً

(١) ذيل ديوانه ص ٣٤٦ ، وفي الأغاني ٥٧، ٥٦/١٩ في البيت الرابع : وما كان منعى الفضل منعاةً واحد .

يبدوها بلفظة (ذهلت) فالموقف أذهله ، وأذهب بعض
موابه ، لأن الحدث فاق قدرة تحمله ، وهو تصوير نفس مؤلم
لفقد العزيز ، استطاعه الشاعر ، وأبدع في تجسيده في البيت
الأول .

وبعد أن هدأت شائرة النفس ، وأفاقت من مدمتها ،
وأيقن أن لاسبيل لخماد أحزانه إلا البكاء ، قلعلها تخفف من
نار الحزن .

فلما بدا لي أنه لاجع الأسى

وأن ليس الا الدمع للحزن شافيا
ويبكى مسلم الشجاعة ، والسخاء ، والمعالي ، لوفاتها
معه ، إذ لم يبق لها أثر ، فأفراحه تبدلت إلى أحزان ،
وأعياده إلى مباك .

يصف كل ذلك بآلم وحزن شديدين .

ورغم ذهول الشاعر ، إلا أن أفكاره كانت مرتبة ،
ومتسلسلة ، فبدأ بوصف ما أحدثته المدمة في نفسه ، ومن ثم
البكاء ليشفى به عليلته ، وإقامة المآتم ، وبكاء مامات معه
من جود وشجاعة ، وفضائل الصفات ، وأخيرا وصف حال الأيام
بعده ، وكيف أنها مشجية تبعث الأسى ، بعد ماكانت في أيامه
مرضية .

السهليون والكتاب .

نهج السهليون طريق البرامكة فى شتى ميادين الحياة ، كانوا على خلق عظيم مع الناس ، ومع جيلهم من الكتاب ، أخذوا بأيديهم إلى مواطن الصواب دون تجريح ولاكبرياء ، كما مرّ فى مثالية تعامل الفضل والحسن مع كتابهم .

هذه المعاملة أحالتهم إلى نماذج عالية ، وزادت فى رفع شأنهم عند جيلهم الكتاب فامتدحوا سخاءهم ، وبلاغتهم ، وأخلاقهم ، وسيرتهم ، التى تمثلوا فيها بالبرامكة .

يقول ابن طباطبا فى حديثه عن الوزارة فى عهد المأمون مجسدا حقيقة ما ذهبت إليه :

"أول وزرائه آل سهل ، وكانت دولتهم فى جبهة الدهر غرة ، وفى مفرق العمر درة ، وكانت مختصرة الدولة البرمكية وهم صنائع البرامكة ، فالوزير الأول للمأمون منهم الفضل (١) ابن سهل" .

ويقول عن الفضل بن سهل مسجلا بعض سجائمه :

"كان الفضل سخيا كريما يجارى البرامكة فى جوده ، شديد العقوبة ، سهل الانعطاف ، حلما بليغا بآداب الملوك ، بصيرا بالحيل ، جيد الحدس ، محملا للأموال ، وكان يقال له (٢) الوزير الأمير" .

ومن معاصرى آل سهل ابراهيم بن اسماعيل بن داود، عرف فضلهم ، وأدرك منزلتهم فى الكتابة ، قال فى رده على رسالة

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٢٠ .

(٢) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٢١ .

كان قد بعثها إليه الفضل بن سهل ، وفيها يطرى أسلوبه :
 "وصل إلى كتابك بخط يدك المباركة ، فلم أر قليلا أجمع
 ولا إجازا أكفأ من اطناب ، ولا اختمارا أبلغ في معرفة وفهم
 منه ، ومارأيت كتابا على وجازته أحاط بما أحاط ... " (١)
 أعجب إبراهيم بن اسماعيل بسمة الإيجاز في كتاب الفضل
 ابن سهل ، هذه السمة شارك السهليون فيها البرامكة ، بل
 انها من أبرز تأثيرات البرامكة على آل سهل في أسلوب
 الكتابة .

وقال الحسن بن وهب - وكان كاتباً بليغاً - في رده على
 رسالة سبق أن بعثها إليه الحسن بن سهل ، وقد أشاره مناخ
 ذلك اليوم :

"لأنه إذا أشمى حكى حسنك وضيائك ، وإن أمطر حكى جودك
 وسخائك ، وإن غام أشبه ظلك وفنائك" (٢) .

بعد أن هاجم المناخ وأطريه ، رأى ابن وهب أن المناخ
 في مختلف مظاهره يشارك الحسن في بعض سمائله ومزاياه ،
 فربط بينهما هذا الربط الموفق .

ومن هؤلاء الكتاب جعفر الضبي قال في الفضل :
 "أيها الأمير اسكتني عن ومفك تساوى أفعالك في السؤدد
 وحيرني فيها كثرة عددها ، فليس إلى ذكر جميعها سبيل ، وإن
 أردت وصف واحدة اعترضت أختها ، إذا لم تكن الأولى أحق

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ٣/٣٧٦ ، نقلا عن المنظوم
 والمنثور .

(٢) أحمد صفوت ، الجمهرة ٣/٣٦١ ، الحمري ، زهر الآداب
 ٥١٠/٢ .

(١)
بالذكر ، ولست أصفها إلا بإظهار العجز عن وصفها " .

وقال آخر فى وصف سخاء الحسن :

"لقد مرت لأستكثر كثيرك ، ولأستقل قلبك ، قال وكيف ؟
(٢)
قال : لأنك أكثر من كثيرك ، وأن قليلك أكثر من قليل غيرك" .

وهذا يشير إلى ادراك آل سهل كما أدرك البرامكة من قبلهم ، أن كل عرض إلى زوال ، وأن شيئاً من هذا العرض لا يكسبهم الحمد والخلود إذا استأثروا به ، وضنوا على الناس .
من ثم أعطوا بسخاء ، ودون من ولا من ، لأن العطاء يكسبهم الحمد ، والحمد خالد بخلاف المال .

فهم يسعون إلى تحقيق ذلك الخلود بسخائهم على الناس ،
الذى وصل حد السرف .

(١) الجاحظ ، الحيوان ٩٢/٢ ، وفى عيون الأخبار لابن قتيبة
١٧٠/١ أن هذا السوف قيل فى الحسن ، ورواية الجاحظ
أرجح لذكره القائل .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٣/٢ .

الفصل الثالث

نشرهم الفنى ، وسماته

ويشمل :

(١) رسائلهم

(٢) توقعياتهم

(٣) أقوالهم وحكمهم

اتسعت أغراض الكتابة الفنية ، باتساع آفاق الحياة العباسية الجديدة ، وطرقت ميادين شتى ، ملبية حاجة الخلافة وسياسة الدولة من جهة ، ومن جهة أخرى حاجة العقل والعاطفة للامتاع بها .

وأخذ النثر فى هذه الحقبة من الزمن يزاحم الشعر فى ميادينه التى كانت خاصة به ، وحكرا عليه ، من قبل . فأضحت الكتابة - ولاشك - لغة النضوج العقلى ، والتطور الحفارى ، فنفقت تجارتها ، واشتهر صناعها ، ونالوا حظوة عند الخلفاء مكنتهم من تسنم مراكز الدولة العليا ، لم يكن لينالوها بغير طريق الكتابة .

ومن هؤلاء الذين شملهم التكريم (آل سهل) ، أعنى الفضل والحسن ، فقد نالا الوزارة بفضل الكتابة ، وقد كانا قبلها من الخاملين كما قال ابن عبد ربه .^(١)

واختصمتهما دون سائر آل سهل ، لكثرة نتائجهما ، وتعدد أغراضه وتباين مناحيه ، ولايعنى ذلك اطلاقا تأخر أفراد هذه الأسرة عن الفصاحة ، والمقدرة على استخدام أفانين البيان . فأم الفضل عرف عنها اقتدارها على البيان ، وماجوابها للمأمون - حين أخذ يهدىء من روعها بعد قتل ابنها - إلا أبرز دليل ، وخير شاهد على ذلك ، وقد تناقلته كثير من المصادر اعجاباً به .^(٢)

والحسين : ابن الحسن بن سهل كان بليفاً ، قادراً على الابداع ، لننظر فى كتابه الذى بعث به إلى صديق له :

(١) العقد ٢٥٢/٤ .
(٢) الحميرى ، زهر الآداب ٣٥٧/٤ ، ذيل الامالى ص ٨٦ ، الآبى نشر الدر ٥٤/٤ .

كتب :

"نحن فى مادبة لنا تشرف على روضة تفاحك الشمس حسنا ،
قد باتت السماء تكلُّها ، فى شرقه بمائها ، حالية بنوَّارها
(١)
فبادر الينا لنكون على سواء من استمتاع بعضنا ببعض" .

ومثل هذه الكتابة الوصفية الجميلة ، لاتمدر إلا من
متمرس بالكتابة ، عالم بامولها وفروعها ، مبدع فيها ..
ولكنى لم أعثر له على شيء آخر من أعماله تعين على دراسته .
وإذا ما انتقلنا إلى "بوران" خديجة بنت الحسن بن سهل
الفيثا من يردد القول عن بلاغتها . فقد ذكر صاحب "العقد
الفريد" بيانها ، وحسن قولها وعلمها حتى لقد أعجب بها
المأمون وتزوجها ، ذكر ابن عبد ربه ذلك فى كلام طويل ،
(٢)
وقصة أشبه بقمص ألف ليلة وليلة ، ولكنى أيضا لم أعثر على
ماثبت بيانها وبلاغتها فى شكل من أشكال الكتابة .

إذاً يبقى لدينا الفضل والحسن كمثال بارز يحكى متاثر
هذه الاسرة .

والناظر فى تركتهم الادبية النثرية ، يجدها لاتخرج عن
أنماط النثر المألوفة . من رسائل ، وتوقيعات ، وأقوال
بليغة ، وحكم سديدة وماشاكل ذلك من أثر القلم والفكر .
ففنون النثر عندهم اتخذت مسارات عدة ، وأغراض مختلفة
كما ذكرت فى اما أن تكون سياسية بحكم موقعهم فى سياسة
الدولة ، وهى كثيرة يندرج تحتها الرسائل الحربية ، وكل
ماله صلة بديوان الخلافة ، من رسائل تخدم أهداف الدولة ،

(١) ابن عبد ربه ، العقد ٣٠٨/٤ ، ٣٠٩ .

(٢) العقد ١٥٦/٨ ومابعدها .

وتسيّر شئونها .

واما أن تكون شخصية ، لاصلة لها بالديوان .
وسأدرس فنون كتابتهم ، كلا على حدة ، بادئا :

(١) الرسائل .

(١) الرسائل "الاخوانية" الشخصية ، وهى تلك التى لاصلة لها بالديوان كما أشرت ، أو لها صلة غير رسمية ، تنشأ عادة بين الأصدقاء ، والاخوان والخلان .
تعبّر عن المشاعر الانسانية ، ولا تتخذ موضوعا بغيته ، منها ما هو فى التهنئة والتعزية ، والاستعطاف ، والعقاب ، والشوق ... وغيرها من الموضوعات التى تنشأ بين الاخلاء فيتبادلون الرسائل بينهم ، دليل محبة ووصال .
من أبرز سمات هذا النوع من الرسائل ، قوة العاطفة ، وصدق الشعور غالبا ، تلاطف النفس وتؤثر فيها ، وتتمل بالروح وتغذيها ، لذا فهى أخصب بلاغة ، وأعلق بالفن من الرسائل الرسمية ، لهذا آثرت أن أبدأ بها .
وأول ما يطالعنا من هذا النوع ، رسائل الغفل إلى أخيه الحسن والعكس .

كتب الحسن إلى أخيه الغفل يهنئه بمولود :
"انه ليس من نعم الله وفوائد قِسَمه - وان خص موقعها ،
ووجب شكرها - نعمةٌ تعدل النعمة فى الولد لنمائها فى العدد
وزيادتها فى قوة العبد ، وما يُتَعَجَّل به من عظيم بهجتها ،
ويُرجى من باقى ذكرها فى الخلوف والاعقاب ، ولاحق بركتها فى
الدعاء والاستغفار ، وإن الله قد أفادك وأنا لك غلاما سريا

سميته فلانا ، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرنا الله به على عدو الدين والمسلمين ، من دلائل بركته ويمنه ، وشواهد سعادته والسعادة به ، فبارك الله لأمير المؤمنين فى طارف نعمته ، وتالدها ، وشفع له قديم مننه بحادثها ، ورزقه ذكورا طيبين مهذبين يأنس بهم ربه ، ويتصل بهم نجاحه ، ويجعلهم ذرية زاكية وبقية سالحة " (١) .

يعمد الحسن فى تهنئته أخيه الى :

(١) اظهر هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى ، الواجب شكرها فنعمة الولد لا يوازيها أية نعمة أخرى ، وكأنى به وهو ينشئ رسالته قد نظر الى قوله تعالى : { المال والبنون زينة الحياة الدنيا } . (*)
ويعلل عظم هذه النعمة بالآتى :

(١) لنمائها فى العدد ، استنادا إلى نداء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى الحث على التكاثر والتناسل . (**)
(٢) وزيادتها فى قوة العضد ، وما يتعجل به من عظيم بهجتها وما يرجى به من باقى ذكرها فى الخلوفاً والاعقاب ، ولاحق بركتها فى الدعاء والاستغفار .

(١) أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب ٣/٣٣٩ نقلا عن المنظوم والمنثور .

(*) سورة الكهف : ٤٦

(**) عن معقل بن يسار - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تزوجوا الولود الودود فأنى مكاثركم " . وزاد أبو عبد الله الحاكم : " الأمم " . انظر : النسائى ، السنن ٦/٦٦ ، أبو عبد الله الحاكم المستدرک على الصحيحين ٢/١٦٢ .

ومعناه أيضا مستقى من الحديث الشريف : " اذا مات
الانسان انقطع عمله إلا من ثلاثة ... " الحديث. منها الولد
الصالح الذى يدعو لأبويه بعد انقضاء آجالهم .

فالرسالة عامة ممبوعة مبنغة اسلامية ، لا شكاد تخلو منها
فقرة من فقراتها .

(٣) تفاؤل الحسن لأن مولده تزامن مع نصر أمير المؤمنين .

ومن أبرز سمات الرسالة التالى :

(١) الغرض من الرسالة التهنئة ، وهى أنسب بالشعر
وبطبيعته لأنها أصلا تصدر عن الوجدان ، وتمتزج بها
عاطفة البهجة والنزوع إلى المشاركة فى المصرة ،
واشاعتها ، لكن الكاتب نقلها إلى النثر .

وان كانت سمة عامة اتسمت بها الكتابة آنذاك .

وأضفى عليها من روحه ، معتمدا على عناصر اسلامية كما

رأينا .

وأثبت الحسن برسالته هذه مقدرة النثر الفنية على
الخوض فى أغراض الشعر ، وربما يتفوق حينئذ لخلوه من الوزن
والقافية ، فهو حر طليق فى التعبير عما تجيش به نفسه ،
والرسالة هنا وقت بغرضها ، واستطاعت استقصاء أفكار
الكاتب .

(٢) يلحظ على الرسالة ، ذلك التسلسل فى الأفكار ، فكل

فكرة تسلمك إلى التى تليها من غير مشقة ، وبلاكلية ،

ونجد الكاتب أيضا يسعى للتدليل بالتعليل .

(*) أخرجه النسائى فى السنن عن أبى هريرة - رضى الله
عنه - ٢٥١/٦ .

كما فى قوله : " انه ليس من نعم الله وفوائد قسمه ،
 نعمة تعدل النعمة فى الولد " وأخذ يورد تعليقاته المنطقية
 لاثبات مقدمة كلامه فقال معللا : "لنمائها فى العدد" ،
 "وزيادتها فى قوة العقد" ، "وبهجتها" ، "ولاحق بركتها فى
 الدعاء والاستغفار" .

(٣) الجمل الاعتراضية ، يقول : " انه ليس من نعم الله
 وفوائد قسمه - وان خص موقعها ، ووجب شكرها - نعمة .."
 وفائدة الاعتراض هنا ، حتى لاتذهب بالقارىء أو السامع
 الظنون ، فى أن الحسن يقلل من أهمية النعم الأخرى ، التى
 يتوجب شكرها .

(٤) يجنح الكاتب إلى السجع من غير تكلف فى ذلك ، فلا يلتزم
 به فى سائر الرسالة ، وكذا المزاوجة بين الجمل .
 "وان خص موقعها ، ووجب شكرها" ، و"لنمائها فى العدد
 وزيادتها فى قوة العقد" ، و"يجعلهم ذرية زاكية ، وبقية
 صالحة" .

ويختتم الحسن رسالته بمدح الخليفة والدعاء له بالذرية
 الصالحة ، فلم يشأ أن يخرج عن غرضه حتى فى دعائه
 للخليفة .

الرسالة كما هو ملاحظ لم تبدأ بالبسملة ، ولاببيت من
 الشعر .. بل دلفت إلى موضوعها دون مقدمات ، ولعل هذا من
 ميزات الرسائل الشخصية .

ومن الرسائل الخاصة ، رسالة الفضل بن سهل إلى أخيه
 الحسن ، كتب :

"إن الله قد جعل جدك عاليا ، وجعلك فى كل خير مقدما

وإلى غاية كل فضل سابقا ، وصيرك - وان فأت بك الدار - من أمير المؤمنين وكرامته قريبا ، وقد جدد لك من البر كيت وكيت ، وكذا يحوز الله لك من الدين والدنيا والعز والشرف أكثره وأشرفه ، ان شاء الله " .^(١)

لم ترق الرسالة فى الأداء الفنى إلى مرتبة سابقتها ، كل ما فى الامر إنها رسالة اخبارية .

وفىها تظهر مكانة الحسن ومنزلته عند أمير المؤمنين . لم يميز الرسالة سوى الإيجاز ، أما غير ذلك فقد كانت خلوا من الامتناع الفنى .

هذه الرسالة وسابقتها نمط من الرسائل الاخوانية تنهش بين الاشقاء ، وبسبب هذه الصفة لا يداخل العواطف فيها ريبة أو ظنون - غالباً - ومع ذلك حرص الكاتب على تدبيجها ، واختيار الفاظها ومعانيها بدقة ، فصيحة ، أنيقة ، شريفة ، نبيلة ، روعى فيها ما يكون بين الأخ وأخيه من أعراف أدب المعاملة التى لا يصرح بها .

وهاك نمطا آخر من هذه الرسائل الاخوانية بين الاصدقاء التى يكثر فيها ذكر عواطف الشوق ، وترك العواطف على رسلها وتصوير الانفعالات والمشاعر بلا كلفة إلا ما يقتضيه التجويد الفنى-رسالة من الحسن بن سهل الى الحسن بن وهب ، وقد^(*)

(١) أحمد صفوت ، الجهمية ٣/٣٣٩ ، ابن قتيبة ، عيون الاخبار ١/١٦٨، ١٦٩ .

(*) هو الحسن بن وهب بن سعيد ، كان يكتب للزيات ، وزير المعتصم والواثق والمتوكل ، وقد كان ولى ديوان الرسائل ، وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك ، وتحول ولده وهب بن سعيد الى جعفر البرمكى ، ثم صار بعده فى جملة ذى الرياستين وآل وهب من قرية من أعمال واسط كانوا نصارى ثم أسلموا .
الاعلام ٢/٢٢٦ .

اصطحب في يوم دجن لم يمطر :

كتب اليه :

"أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب
المطر وبعده ، كأنه قول كثير : (*)

ورأى وتهيأى بعزّة بعدما

تخلّيتُ مما بيننا وتخلّيتُ

لكالمرتجى ظل الغمامة ، كلما

تبوأ منها للمقيل أمّحتُ

وما أصبحت أمنيته إلا في لقائك ، فليت حجاب الناي هتك
بينى وبينك ، ورقعتى هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم
تتحيفه ، وبعثت نشاط حركتى للكتاب ، فأريك في إمطارى سرورا
بसार خبرك ، إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم موقفا ان شاء
الله " (١)

أغلب الظن أن الحسن كتب رسالته هذه قبل أن تدير إليه
الوزارة وذلك لبساطته المتناهية في دعوة ابن وهب ، ومثل
هذا التبسط لا يصدر من وزير وان نال حظا من التواضع . فهل
من الممكن أن تصبح أغلى أمنية للوزير لقاء ابن وهب ، وان
علا مكانه ؟

وقد يؤيد هذا الظن اجابة ابن وهب المتأخرة ، وربما (**)

(*) هو كثير بن عبد الرحمن ، شاعر أموى مشهور ، اختص
ببنى مروان ، وكانوا يعظمونه ويكرمونه ، توفي سنة
١٠٥هـ .

الاعلام ٢١٩/٥ .
(١) أحمد صفوت ، الجهمرة ٣/٣٦١،٣٦٠ ، الحميرى ، زهر الآداب
٥٠٠/٢ .

(**) رد الحسن بن وهب على الحسن بن سهل كتب :
"وصل كتاب الأمير - أعزه الله - وقمى طاهم ، ويدي
عاملة ، ولذلك تأخر الجواب قليلا ، وقد رأيت تكافؤ
احسان هذا اليوم واساءته ، وما استوجب ذنبا استحق به =

يدفع هذا الظن ماورد فى جوابه مثل قوله "وسؤال الأمير عنى
نعمة ... " فيظل تأويل رسالة الحسن على أنها حكاية حال من
أحوال المداناة والتبسط بين الفين .

والرسالة تمثل السترف الادبى فى الحضارة العباسية ،
فبعد أن كانت الرسائل تأخذ طابع الجد فى تسيير أمور
الدولة ، أصبحت متنفسا لمشاعر الأصدقاء وأحاسيسهم ، ووسيلة
فنية للترسل بينهم .

ومن سماتها :

(أ) صدق العاطفة ، مع جمال الأداء ، ولأنها من الرسائل
الخاصة فقد اتجهت إلى غرضها دون تمهيد .

(ب) يشبه ابن سهل حاله فى طمعها وبأسها من النمطر بحال
(كثير) مع حبيبته عزة ، ويستأنس بشعره ، ليؤكد لنا هذا
الشعور المتأرجح بين طرفين ، وهو شعور يفشيه القلق
والتوتر اللذان يبعثان على الدهشة ، ويثيران الاحساس
بالمتمعة الفنية .

(ج) استعان ببعض الكنايات اللطيفة ، يقول : "فليت حجاب
النأى هتك بيئى وبينك" لأن البعد يمنع بين المديقين
ما يشبه حجابا .

(د) خلت ألفاظ الرسالة من التعامل والتكلف مع أنها مصاغة
صياغة فنية عالية .

= ذما ، لأنه اذا أسمى حكى حسنك وضيائك ، وان أمطر حكى
جودك وسخائك ، وان غام أشبه ظلك وفنائك ، وسؤال
الأمير عنى نعمة من نعم الله عز وجل على ، أعفى بها
آثار الزمان السوء عندى ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف
الله الحوادث عنه وعن حظى منه " .
الجمهرة ٣/٣٦١ .

(هـ) استعمل بعض أنواع البديع دون تعمد كالطباق فى قوله :
"بقرب المطر وبعده " .

(و) ختمت ب "إن شاء الله " وهو من طريقتهم التى يعمدون
إليها كثيرا فى رسائلهم كما فى الرسالتين السابقتين .
أشرت فيما مضى إلى أن النثر استطاع تمثيل بعض أغراض
الشعر التى كانت حكرا عليه دون النثر ، (كالهجاء والمدح
والرثاء والوصف) .

فالنثر لا يحتاج إلى معاناة كالتى تكون مع الشعر ،
لخلوه من مضائق القوافى والأوزان ، ومع ذلك قد يسامى الشعر
ويقاربه فى بعض ما يحدث فى نفس المتلقى من متعة . يقول
الحسن فى وصف عقل المأمون :
كتب :

"وقد أصبح أمير المؤمنين محمود السيرة ، عفيف الطعمة
كريم الشيمة ، مبارك الضريبة ، محمود النقيبة ، موفيا بما
أخذ الله عليه ، مطلقا بما حمله منه ، مؤديا إلى الله حقه
مقرا له بنعمته ، شاكرا لآلائه ، ليامر إلا عدلا ، ولا ينطق إلا
فملا ، عبثا لدينه وأمانته ، كافا ليدنه ولسانه " (١) .

أول ما يطاتعنا من سماتها هذا الإيجاز البليغ ،
والمزاوجة بين جملها ، مما أضفى عليها إيقاعا موسيقيا ،
وجرسا عذبا ومن موسيقاها الهادئة هذا السجع فى بعض
فقراتها ، كقوله : "محمود البيرة ، عفيف الطعمة ، كريم
الشيمة " ، و"اليامر إلا عدلا ، ولا ينطق إلا فملا " . فكان السجع

(١) ابن عبد ربّه ، العقد ٣٢٢/٤ ، أحمد مفلوت ،
الجمهرة ٣٦٢/٣ .

والمزاوجة قد تحالفا على أحداث الإيقاع الجميل فى النص ،
مع ما امتازت به من قمر الجمل ، وانتقاء اللفاظ التى تحوى
معانيها ، وتحملها دون زيادة أو نقصان .
ومن مقاصد الرسائل الأخوانية (الوساطات) ، وهى لاتمدر
الا عن صاحب مكانة ، لمساعدة الآخرين .
أظهر سماتها التحرر من القيود ، وقوة العاطفة فى
محاولة التأثير وبلوغ الغاية من انشائها .
والإيجاز من خصائصها الهامة ، لأن المقام لا يحتمل
الاسهاب ، ولاتخلو من الدعاء فى محاولة من محاولات التأثير
أيضا .

على هذا النحو سارت وساطاتهم ، وبالسماة السابقة
تحلت .

كتب الحسن بن سهل الى آخر :

"فلان قد استغنى باصطناعك اياه ، عن تحريكى اياك فى
أمره ، فان الصنيعة حرمة للممنوع اليه ، ووسيلة إلى
ممظنعه ، فبسط الله يدك بالخيرات ، وجعلك من أهلها ، ووصل
(١)
بك أسبابها " .

ومنها قوله :

"موصل كتابى اليك أنا ، فكن له أنا ، وتامله بعين
مشاهدتى وخلتى ، فبلسانه أشكر ما أتيت اليه ، وأذم ما قمرت
(٢)
فيه " .

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٣١١/٤ ، أحمد صفوت ،
جمهرة رسائل العرب ٣٦٢/٣ .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٣١١/٤ ، أحمد صفوت ،
جمهرة رسائل العرب ٣٦٢/٣ .

أوشكت الرسالة - فيما يراه الباحث - تخرج عن حد الصفاء الذى كان يتمتع به النشر العربى قبل تولى هذه الاسر امرة الكتابة إلى شئ من الاسراف فى الحائق ، الذى عُرف به الذوق الفارسى ، وكان فى الوقت ذاته أشرا من رقى الحضارة فى ظل العباسيين .

"قد استغنى بامطناعك اياه عن تحريكى اياك" .

و"موصل كتابى اليك أنا ، فكن له أنا" .

على أن ما يخشى من شيوع هذا الضرب من الاناقة وتماديهِ أنه قد يفضى إلى العمل ، لاسيما إذا ضعفت الملكة ، ووهت الفطرة .

(ب) أما الشق الثانى من كتاباتهم فكان (رسميا) .

وهى تلك الرسائل التى متعلقها ديوان الخلافة ، تلبي احتياجات الدولة فى تسيير دفة الامور .

وتسمى أيضا (بالديوانية) نسبة الى الديوان ، غير أن هذه التسمية يعتورها النقص فى حمل المعنى الدقيق ، يذكر صاحب "الكتابة الفنية فى مشرق الدولة الاسلامية" أن تسميتها بالرسمية أدق .

وذلك يعود إلى أن رسائل كثيرة للحكومة لم تكن تصدر من الديوان ، انما كان يمدرها رجال الدولة وهم فى حروب أو فتوح^(١) .

وأول ما يجب النظر فيه ، رسائل الفيل بن سهل عن المأمون إبّان الفتنة ، ولنطلق عليها :

رسائل نذر الحرب :

(١) د. ناعسة ص ٢٤٦ .

ذكرت فى بداية هذا الباب الأمل الذى كان يحدو الفضل
بانتقال الخلافة إلى المأمون .

ربما كان ميل الفضل وأضرابه إلى المأمون دون الأمين
(١) أن المأمون اجتمعت له أسباب الرياسة والخلافة من
العقل والحنكة ، وحسن التدبير ، والغرام بالمعرفة .
(٢) أنه يمت من ناحية أمه بسبب إلى الفرس ، وربما يفسر
هذا مشايعة بعض الشعراء الذين لهم أعراق أعجمية إلى
الولاة والخلفاء الذين لهم أعراق مشابهة .

لذا فقد كان ساعد المأمون القوى ، للاطاحة بالأمين بعد
نكته بعهد أبيه ، وقد تحقق مراده ، وآلت الخلافة للمأمون ،
ومن ثم وضع قدمه على أول درجات الرقى السياسى ، محققا
طموحه الذى رسم له وخطط .

وكانت له رسائل على لسان المأمون تجسد حقيقة ذلك ،
فبعد أن كتب الأمين إلى المأمون يسأله أن يتنازل له عن كُور
من كُور خراسان سماها ، كبر ذلك على المأمون واشتد عليه ،
فأمر كاتبه الفضل أن يكتب إليه ، فكتب على لسانه :

"قد بلغنى كتاب أمير المؤمنين ، يسأل عن مواضع سماها
مما أثبتته الرشيد فى العقد ، وجعل أمره إلى ، وما أمر رآه
أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره ، غير أن الذى جعل إلى
الطرف الذى أنا به لاطنين فى النظر لعامتة ، ولا جاهل بما
أسند إلى من أمره ، ولو لم يكن ذلك مشبها بالعهود
والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال الذى أنا عليها من
اشراف عدو مخوف الشوكة ، وعامة لا تتألف عن هضمها ، وأجناد
لا تستتبع طاعتها إلا بالأموال ، وطرف من الأفضال ، لكان فى

نظر أمير المؤمنين لعامته وما يجب من لم أطرافه ، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته ، وأن يستملحه ببذل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ، ووكدته مأخوذة العهد ؟ وإننى لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت ، لم يطلع ما كتب بمسألته إلى ، ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله " .^(١)

ولم يزل المأمون يتلطف إلى الأمين في التنازل عن مطالبه غير أن الأخير تعنت وكابر .

يروى الطبرى أن المأمون قال للفضل إن ولدى وأهلى ومالى الذى أفردته الرشيد لى بحضرة محمد ألف ألف ، وأنا اليها محتاج ، فما ترى فى ذلك ؟ فأشار عليه الفضل بالمطالبة بحقه قال : ولكن تكتب كتاب طالب لحقك ... ، فان أطاع فنعمة وعافية ، وان أبى لم تكن قد بعثت على نفسك حربا .^(٢)

فكتب الفضل عنه :

"أما بعد ، فان نظر أمير المؤمنين للعامة نظر من لا يقتصر عنه على اعطاء النصفة من نفسه حتى يتجاوزها اليهم ببره وصلته ، وإذا كان ذلك رأيه فى عامته ، فأحر بأن يكون على مجاوزة ذلك بمنهوه ، وقسيم نسبه ، فقد تعلم يا أمير المؤمنين حالا أنا عليها من شغور حلت بين لهواتها ، وأجناد لا تزال موقفة بنشر غيها وبثكت آرائها ، وقلة الخرج قبلى ، والاهل والولد قبل أمير المؤمنين ، ومالاهل - وان

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ٢٩٦/٣ ، ٢٩٧ ، تاريخ الطبرى ٣٧٩/٨

(٢) أحمد صفوت ، الجمهرة ٢٩٩/٣ ، تاريخ الطبرى ٣٨١/٨ .

كانوا فى كفاية من بر أمير المؤمنين ، فكان لهم والدا -
 بد من الاشراف والنزوع الى كنفى ، ومالى بالمال من القوة
 والظهير على لم الشعث بحضرتى ، وقد وجهت لحمل العيال وحمل
 ذلك المال ، فرأى أمير المؤمنين فى اجازة فلان الى الرقة
 فى حمل ذلك المال ، والامر بمعاونته عليه ، غير محرج له فيه
 الى ضيقة تقع بمخالفته ، أو حامل له على رأى يكون على غير
 موافقة ، والسلام" (١) .

وتوامل الخلاف بينهما ، حتى اشتعلت الحرب ، وانتهى
 الامر الى المأمون .

الرأى عندى فى هذه الرسالة وأشباهها مما كتب فى
 مؤومعهما ، أن الكاتب كان يحتاط غاية الحيلة فى اختيار
 المعانى ومايدل عليها من ألفاظ بحيث تنيل ولا تقطع ، وتقتل
 ولا تجرح .

والكاتب هنا (الفصل) انما يصدر عن عقل المأمون
 ولسانه ، رغم رجاحة عقله ، ووفرة ذكائه ، وكان المأمون
 أريباً داهية لاغرارة فيه ، فهو يريد استدراج الامين ليرسل
 اليه ماله وعياله ، لحاجته الى المال فى تسكين الجنود ،
 وسد الثغور ، ولم الشعث ، وحاجته الى العيال ليكونوا فى
 كنفه .

فالموقف محتاج الى حسن التأنى واستخدام الالفاظ
 والجمل التى تنيل الغرض من استرداد المال والعيال دون أن
 ينكشف الدافع المستتر ، وهو ألا يبقى شيء تحت يد الامين مما

(١) تاريخ الطبرى ٢٨٢، ٢٨١/٨ ، أحمد صفوت ، جمهرة رسائل
 العرب ٢٩٩/٣ .

للمأمون .. من مثل قوله : .. فقد تعلم يأمير المؤمنين
حالا أنا عليها من شغور حلت بين لهواتها ، وأجناد لاتزال
موقفة بنشر غيها ، وبنكت آرائها ، وقلة الخرج قبلى .

فالرسالة هنا ضرب آخر من الأدب قد لايعنى فيها بمظاهر
الجمال الفنى المتبعة لكن فيها جمالا آخر يأتى من اختيار
اللفاظ ذات الدلالات المحسوبة ، والتى تمزج العقل بالوجدان
مزجا متوازنا ، ومن التراكيب الغنية بايحاءاتها فى مواقف
الاسترحام والتهديد .

كما رأينا هنا استوجب المقام اسهابا لم أعده ، وهو
من البلاغة إذ أن المقام يطلبه ، فالحال يحتاج إلى أخذ ورد
ومداولة بين الأخوين لتجلية الموقف المتأزم بينهما .
كل كاتب كان يعمد إلى حججه العقلية فى اثبات رؤية
خليفته لسياسة الدولة .

وبعد أن استقر الأمر للمأمون ، بعد قتل الأمين ، كتب
الفضل الى المأمون :

"أما بعد ، فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين
فى النسب واللقمة ، فقد فرق الكتاب بينه وبينه فى الولاية
والحرمة لقول الله جل وعز : {إنه ليس من اهلك انه عمل غير
صالح} ولاملة لأحد فى معمية الله ، ولاقطيعة فيما كانت
القطيعة فى ذات الله " .^(١)

قالفضل هنا يحاول ملاطفة نفس المأمون الجريحة على قتل
أخيه ، ويلقى باللائمة على الأمين فيما جرى له ، كل ذلك فى

(*) سورة هود : ٤٦
(١) البيهقى ، المحاسن والمساوىء ص ٤٤٦ ، ونسبت الرسالة
فى الطبرى ٥٠٧/٨ الى أحمد بن يوسف الكاتب .

محاولة اماتة أحزانه ان كان هنالك أحزان .

من سماتها :

الاستشهاد بالآية القرآنية ، زيادة فى تأكيد كلامه السابق ، ببطلان عمل الامين ، ويقبحان سيرته فى عين المأمون ليقر نفسا بأنه لم يجرم فى حق أخيه .
وزيادة فى التشفى والتحقيق يتجاهل اسم الامين ، ويعبر عنه بالمخلوع .

خلت من المحسنات البديعية ، لأن الموقف غنى بنفسه والمقام لايناسب زخرفة القول لأن فى حلول اللفاظ محلها من استهداف الغرض جمال يغنى عن التجميل .

ومن الرسائل الرسمية الهامة ، كتاب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى يطلب منه البحث عن كاتب ، وهذه الرسالة فى غاية الاهمية ، لأن الحسن ذكر فيها مايجب أن يتوافر فى الكاتب ، ومايجب أن يأخذ نفسه به من ثقافة ، وصفات وآداب ، قال الحسن :

"أما بعد : فانى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ذى عفة ونزاهة طعمة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ان أوثمن على الأسرار قام بها ، وان قلد مهملا من الأمور أجزاء فيه ، له سن من أدب ولسان ، تقعده الرزانة ، ويسكته الحلم ، قد فر عن ذكاء وفطنة ، وعض على قارحة من الكمال

(*) هو أبو عبد الله محمد بن سماعة التميمى ، كان فقيها وولى القضاء ببغداد توفى سنة ٢٢٣هـ .
الاعلام ١٥٣/٦ .

تكفيه اللحظة ، وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك
وأحكمها ، وقام فى أمورهم فحمد فيها ، له أناة الوزراء
ومولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب
الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق قلوب
الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه ، دلائل الفطن عليه لائحة
وأمارات العلم له شاهدة ، مفعلا بما استنهنى ، مستقلا بما
حمل ، وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياحه ، ثقة بفطن
اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتيك" (١) .

لنم يكن الأمر سهلا على القاضى ، فقد كُلف أورا جلا ،
ويحتاج معه إلى وقت قد يطول فى التفتيش عن شخص توافرت فيه
الشروط .

يقول فى رده :

"إنى عازم أن أرغب إلى الله جل وعز حولا كاملا فى
ارتياح مثل هذه الصفة ، وأفرق الرسل الثقات فى الآفاق
والتماسه ، وأرجو أن يمن الله بالإجابة ، فأفوز لديك بقضاء
حاجتك ، والسلام" (١) .

أورد الحسن مقومات نجاح الكاتب ، وهى لاتخرج عن :

(١) أول ما ينبغى توافره للكاتب ليكون مؤهلا لمؤظيفته
المناطة به أن يتحلى بالاخلاق الفاضلة .. وطبيعة
الوظيفة لكاتب فى الدولة يقوم على حفظ أسرارها هى

(١) أبو على القالى ، الامالى ٢٤٩/١ ، أحمد صفوت ، جمهرة
رسائل العرب ٣٥٩/٣ .

(٢) الامالى ٢٤٩/١ .

التي حتمت هذه الشروط .

(٢) أن يجمع إلى خبرته العملية بشئون الحياة على اختلاف

ميادينها ، ثقافة غزيرة ، واطلاعا واسعا متبحرا .

(٣) رقيق الحس ، ذكيا فطنا ، تكفيه اللحظة ، وترشده

السكته ، يأسر قلوب الناس بحلاوة لفظه ،

(٤) أن يكون خبيرا بآداب الملوك ، عارفا بأساليب خطابهم

والطريقة المثلى فى معاملتهم .

كل هذه المقومات يجب أن تتوافر فى الكاتب الفذ ،

لاتند عنه واحدة منها ، ليليق بمكانه .

وتهدينا رسالة الحسن إلى جملة ملامح تتلخص فيما يلى :

(١) قصر الفقرات ، وتوازنها ، وغلبة السجع عليها ، أضفى

عليها الجمال الفنى ، والامتناع الموسيقى ، النابع من

اكتلاف النغم وسريانه فى أجزاء العمل .

كقوله :

"تكفيه اللحظة ، وترشده السكته " .

"له أناة الوزراء ، وصوله الأمراء " .

"وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء " .

كل ذلك دون احساس بكلفة أو تعمل ، فهو ينقلك الى

عالم ساحر أخذ تستمتع بعذوبة اللحن وجمال الأداء .

(٢) جودة السبك ، وروعة التراكيب تتمثل فى دقة اللفاظ

وحسن ترابطها .

فالأناسة لاتناسب إلا الوزراء ، والمولة أليق بالأمراء ،

والتواضع أخلق بالعلماء ، وهكذا بقية الصفات .

(٣) وغرض الرسالة استدعى الاسهاب فى غير ملل ، فالمقام يتطلب التفصيل فى صفات الشخص المراد .
ولازلنا نغوص فى بحر رسائلهم ، لنستكشف دررها
ومكنوناتها .

كتب الحسن إلى المأمون بعد أن زفت إليه بوران :
"قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده ، فى قبول
أمره ، شيئا لا يتسع له الشكر إلا بمعونة المَحَن لأمير
المؤمنين - أدام الله عزه - فى اخراج توقيعه بتزيين حالى
فى العامة والخاصة ، بما يراه فيه صوابا إن شاء الله " .
(١) اختيار المأمون خليفة المسلمين لبوران بنت الحسن
اعظام لقدر أبيها ، ولمكانته فى الناس ، وهذا فى
ذاته كفيل بأن يفيض لسان الحسن بالشكر .

(٢) ثم أن يضيف المأمون إلى ذلك مكرمة أخرى فيقطع الحسن
ويهبه ما يرفع مكانته ، ويعلى قدره بين الناس فهذه
مكرمة تعدل الأولى أو تقاربها .

فهل وفّت رسالة الحسن بمورثها الفنية التى عليها بهذا
الشكر ونمت عنه ؟

(١) لقد جعل من نفسه عبدا للمأمون ، وجعل من بوران أمة
له .

أى أنهما لا يملكان من أمرهما شيئا ازاء مشيئة الخليفة
فله مطلق التصرف فى رفعه وخفضه ، فإذا رفعه كان ذلك أوجب
لشكر .

(١) الحمري ، زهر الآداب ٤٧٨/٢ ، أحمد صفوت ، الجمهرة
٣٥٨/٣ .

(٢) وتتصل أمداد هذا الشكر وتتعاضد حين يرفده رفدا سخيا .
وتنطوى عبارات الرسالة على لمحات ذكية ، مثل "بما
يراه فيه صوابا" ومثل الدعاء بدوام العز لأمير المؤمنين ،
وتعليق كل ذلك بمشيئة الله .
تركزت الرسالة الثقاليد المتوارثة فى المقدمة
والخاتمة ، وهذا يعطينا الحق فى تعميم هذه الخميصة فى
رسائلهم بنوعها .

نظرة الى سمات الرسالة عند آل سهل .

(١) البداية والنهاية :

البداية : كان لمقدمات الرسائل فى العصور الاولى
ثقاليد متبعة فقد حرص القدماء على الابتداء بالبسملة ،
والحمد لله ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، أما
الساهليون فلم يلتزموا بأية مقدمة ، بل تمردوا عليها ،
فكانوا يبدأون بالفرض نفسه .

أما النهاية : فقد تشكلت وتباينت ، فتارة تنتهى
بالسلام اختصارا من (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ،
وأخرى بقولهم : ان شاء الله ، وفى كثير منها تنتهى بنهاية
الفرض .

(٢) الایجاز البلیغ من أبرز سمات رسائلهم ، وكانوا يנהجون
طريق البرامكة فى ذلك ، بل ربما فاقوهم فى تزيين
رسائلهم به الى حد التوقييع ، كما سبق ذكره ، وكما فى
رسالة الفضل الى رجل ومع الرسالة جائزة ، كتب بايجاز
جد بليغ :

"قد وجهت اليك بجائزة ، لأعطيها تكثرا ، ولأقللها
تجبرا ، ولأقطع لك بعدها رجاء ، ولأستثنيك عليها ثناء ،
(١)
والسلام " .

(٣) حلقت رسائلهم فى أجواء النغم والموسيقى السجعية
والازدواجية مما أضاف عليها روح الفن والامتناع ، وكانت
تقع سهلة لاتعمل فيها ولاتكلف ، عدا النزر اليسير .
ولم يلتزموا به فى كل الرسالة فيأتى حين يأتى عفو
الخاطر .

(٤) التهنئة والوصف من أغراض الشعر قد استطاع السهليون
نقلهما إلى النثر بكل اقتدار ، وأبدعوا فيهما لخلو
النثر من القيود الشعرية ، فينطلق الكاتب حين يكتب
حرا طليقا لايعيقه وزن ولاتحبسه قافية .

(٥) انتقاء اللفاظ ، والتأليف بينها ، وصياها فى قوالب من
التراكيب المتناسكة الموحية يؤدى ذلك إلى دقة المعنى
وجمال الأداء .

(٦) لم تبلغ ألفاظهم درجة الغريب ، ولم تنحط الى درجة
الابتذال .

(١) البغدادى ، تاريخ بغداد ٣٤٢/١٢ ، أحمد مفتوت ،
الجمهرة ٣٣٦/٣ .

(ب) التوقيعات .

وهو ما يرد تعليقا على الرسائل ، يقول القلقشندي عنه
انه :

"الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من
أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالملكة ،
والتحدث في المظالم ، وهو أمر جليل ومنصب حفيظ ، إذ هو
سبيل الاطلاق والمنع ، والوصل والقطع ، والولاية والعزل إلى
غير ذلك من الأمور المهمة والمتعلقات السنية " (١) .

ثم يردف كلامه عمن كان يلي أمر هذا الديوان بادیء
الأمر ، فيقول :

"واعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء
فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانية ، وفصل
المظالم ، وغيرهما " (٢) .

وكأن القلقشندي بكلامه الأخير ، يشير إلى تعذر قيام
الخليفة بهذا الأمر ، بعد اتساع الدولة ، وكثرة الأعباء
وتنوعها ، والحاجة إلى مختصين يلون أمرها ، يكون لهم من
شرف المنزلة ، ورجاحة العقل ، وبلاغة الكلم ما يلون بها
أمرها كان يتولاه الخليفة .

وليس معنى ذلك اغفال الخليفة له تماما ، لانا وجدنا
الرشيد على سبيل المثال يوقع في بعض أموره التي يرى ضرورة
أن يقوم بها دون غيره . (٣)

(١) صبح الاعشى ١/١٤٥، ١٤٦ .

(٢) صبح الاعشى ١/١٤٥، ١٤٦ .

(٣) ابن عبيد ربه ، العقد ٥/٣٢٨، ٣٢٩ ، ابن قتيبة ، الامامة
والسياسة ٢/١٧٢ ، أحمد صفوت ، الجمهرة ٣/١٩٤ .

كما فى توقيعاته فى توسلات يحيى البرمكى ، وفى مقتل جعفر ، وغيرهما .

والسمة البارزة فى هذا الفن الایجاز الشديد ، يقول صاحب "بلاغة الكتاب فى العصر العباسى" ... "ربما بلغ بالایجاز حد الاعجاز" اشارة منه الى هذه السمة المشتركة فى هذا الفن .

ويعمد بعض الكتاب الموقعين إلى آية قرآنية ، أو حكمة مأثورة ، أو بيت شعر ... ، وإذا ما فتشنا عن هذا الفن عند السهليين ، نجدهم قد أبدعوا فيه كاسادتهم ، فحفظت لهم بعض المصادر والمراجع الكثير من التوقيعات .

ويمكن تصنيف مآثورهم فى هذا الفن الى فئات ، وكل فئة تمثل سمة من سمات توقيعاتهم .

(أ) ما اعتمد على آية قرآنية ، وفى نظرى أن هذه السمة عندهم أبلغ من غيرها بدرجات .

لنتأمل توقيع الفضل بن سهل فى قصة قوم قطعوا الطريق .
{انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يملبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم} .
(٢) (*)

وإى بلاغة أعظم وأرفع من بلاغة القرآن ، أما بلاغة الفضل فهى فى حسن تأتية ، وفطنته إلى المقام الذى يفصل فيه بالآية فصلا يقطع كل حجة .

(١) نبيه حجاب ص ١٢٠ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٣٠٣/٤ .

(*) المائدة : ٣٣

كتب رجل من الشعراء إلى الحسن بن سهل :
 رأيت في النوم أني راكب فرسا
 ولى وصيفاً وفى كفى دنائير
 فقال قوم لهم فهم ومعرفة
 رأيت خيراً وللأحلام تعبیر
 رؤياك فسّر غدا عند الأمير تجد
 تعبیر ذاك وفى النوم التبشير
 فوقع فى أسفل كتابه :

(١) (*)

{أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين} .
 وهذا التوقيع لا يخلو من طرافة ومفاء ذهن فى الربط بين
 حلم الرجل وفحوى الآية .
 وهذا الضرب من التوقيع كان قبل آل سهل وبعدهم ،
 بمعنى أنه لم يكن من ابتداع آل سهل ، وإنما اتبعوا فيها
 من قبلهم ، واتبعهم من بعدهم ، وكل ما يقال أنهم لم يغفلوا
 هذا الضرب من التوقيع .

وقد تحسن الإشارة هنا إلى أن هذه التوقيعات قد يذهب
 طول الإلصاف بعض رونقها لكنها فى زمنها كان فيها الجودة
 والرونق اللذان يوقعانها فى النفس موقعا حسنا .
 (ب) السجع .

وهو من السمات الهامة التى عمدوا اليه فى كتاباتهم
 وبالأخص فن التوقيع ، وقع الحسن فى قمة امرأة حبس زوجها :
 (٢)
 "الحق يحبس ، والانماف يطلقه " .

(١) ابن عبد ربّه ، العقد ٣٠٤/٤ .
 (*) سورة يوسف : ٤٤ .
 (٢) ابن عبد ربّه ، العقد ٣٠٤/٤ .

ومنه توقيع الفضل الى حاجبه :
(١)
"تمهل وتسهل" .

فالسجع هنا بين الكلمتين فى حرفين (الهاء واللام) ،
وكذا الجناس الناقص .

ومن أحسن توقيعات الفضل :
"الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتمها ، والمنائع
(٢)
باستدامتها" .

وهو من السجع المرمع المتوازن فى كافة فواصله ، وهذا
النوع ليس سهل التأتى إلا لمن تمرس بالمنعة ، وكانت لديه
الموهبة والاستعداد لذلك .

ووقع فى رقعة ساع - وكان الفضل يكره السعاة
ويمقتهم - :

"نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السعاية دلالة
والقبول اجازة ، وليس من دل على شيء وأخبر به كمن قبله
وأجازته ، فاتقوا الساعى ، فإنه لو كان فى سعايته صادقاً ،
لكان فى صدقه آثماً ، إذ لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر
(٣)
العورة" .

وسار التوقيع على ذات النهج .

(ج) ونجدهم لا ينقلون من السجع إلا إلى فن قريب منه هو
الازدواج .

(١) ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ٣٠٣/٤ .
(٢) الشعالبى ، خاص الخاص ص ٧٢ ، وفى زهر الآداب ٣٥٦/٢ :
"الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتمها ، والمنائع
باستدامتها ، وإلى الغاية يجرى الجواد ، فهناك كشفت
الخبرة قناع الشك ، فحمد السابق ، وذم الساقط" .
(٣) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ٢٨/٢ .

منه توقييع الحسن ، فى رفعة رائد :

"قد أمرنا لك بشيء هو دون قدرك فى الاستحقاق ، وفوق
(١)
الكفاية مع الاقتصاد" .

فزاوج بين (الاستحقاق ، والاقتصاد) ، وطابق بين فوق ،
ودون .

وأحيانا كانوا يعمدون الى فنون البديع الأخرى من جناس
وطباق ، وان كان ذلك نورا .

فالفعل طابق فى توقييعه الى هرثمة وقد أشار عليه برأى
(٢)
"لايحل ما عقدت" فالطابق بين لفظتى (الحل والعقد) .

والجناس فى مثل توقييعه الى صاحب الشرطة :
(٣)
"ترفق توفق" .

ومن الجناس عند الحسن ، توقييعه فى قصة متظلم :
"ينظر فيما رفع ، وان الحق منيع ، والا فشفاء السقيم
(٤)
دواء السقم" .

(هـ) بعض توقييعاتهم كانت تحرك المشاعر الانسانية النبيلة
من عدل وكرم ونصرة للمظلوم ، وغيرها من جميل الاخلاق ،
ومحمود الصفات فان فقدت المحسنات البديعية ، نجدها
تستعاض بما هو أهم من أخلاقياتهم ، وحبهم للخير
وبغضهم للشر .. كل ذلك كان يحدث أشرا بليغا فى نفس
المتلقى ، ويتفاعل معها بصدق .

ففى توقييعات الفضل فى رقع المتظلمين :

-
- (١) ابن عبد ربّه ، العقد ٣٠٤/٤ .
(٢) المصدر نفسه ٣٠٤/٤ .
(٣) المصدر نفسه ٣٠٤/٤ .
(٤) المصدر نفسه ٣٠٤/٤ .

(١)

"كفى بالله للمظلوم ناصرا" .

ووقع فى رقعة أخرى ما يشبه ذلك :

(٢)

"طب نفسا فان الله مع المظلوم" .

ومن توقيعاتهم التى تحكى عدلهم وكرمهم ورغبتهم فى
مساعدة الآخرين ماسطروه فى رقاع المديونين ، منها توقيع
الفضل فى رقعة رجل :

"قد أمرنا لك بثلاثين ألفا ، وسنشفعها بمثلها ، ليرغب

(٣)

المستمنحون" .

وفى رقعة أخرى :

(٤)

"الدين سوء يهيفض الاعناق ، وقد أمرنا بقضائه" .

وعلى هذا النحو كانت تخطو بعض توقيعاتهم متخذة خلق
القرآن الكريم ديدنا لها ومنهجها .

وفيهما يظهر مدى تأثرهم بالقرآن ، وحفظهم له ،
واستشهادهم به .

الا يبدو تأثير الاسلام على الفضل فى هذه التوقيعات مثل

توقيعه فيمن شتم أبا بكر وعمر ؟

(٥)

"يضرب دون الحد ويشهر ضربه" .

ومن توقيعات الحسن الداعية الى العدل ، توقيعه فى

قمة قوم تظلموا من واليهم :

"الحق أولى بنا ، والعدل بغيتنا ، وان صح ما ادعيتم

(٦)

مرفناه وعاقبناه" .

(١) ابن عبد ربه ، العقد ٣٠٤،٣٠٣/٤ .

(٢) الممدر نفسه ٣٠٤،٣٠٣/٤ .

(٣) الممدر نفسه ٣٠٤/٤ .

(٤) الممدر نفسه ٣٠٤/٤ .

(٥) الممدر نفسه ٣٠٤/٤ .

(٦) الممدر نفسه ٣٠٤/٤ .

والبخل خلق ذميم ذمه الاسلام ، ولا يوجد انسان يحب أن
يوصف به ، وان كان بخيلا ، والسهليون أبعد مايكونون عنه ،
أقرب إلى السخاء الذى لا يجحد .

كتب سهل بن هارون رسالة إلى الحسن بن سهل يمدح البخل
ويرغب فيه ، ويستمنحه فى ثناياها .

فوقع الحسن عليها :

"وصلت رسالتك ، ووقفنا على نميحتك ، وقد جعلنا
المكافأة القبول منك ، والتصديق والسلام" .
(١)

وجاء فى "زهر الآداب" أن سهل بن هارون منف كتابا يمدح
فيه البخل ويذم الجود ليظهر قدرته على البلاغة ، ثم أهداه
للحسن بن سهل فى وزاته ، واستماحه فكتب اليه :

"لقد مدحت ما ذمه الله ، وحسنت ما قبحه الله ، وما يقوم
صلاح لفظك بملاح معناه ، وقد جعلنا ثواب مدحك قبول قولك فيه
فما نعطيك شيئا" .
(٢)

ويقفنا تحليل هذه الرسالة على أمر ذى بال ، فليس
للمعانى جمال فى ذاتها ، وانما تجمل او تقبح اذا وافقت
التمور الاسلامى ، والاسلام لا يصور الشح فى أى الأحوال على أنه
خير ، ولا الكرم على أنه مذموم .

(١) أحمد مفسوت ، الجهرة ٣/٣٦٩ ، الحصرى ، زهر الآداب
٨٨٨/٣ .

(٢) الحصرى ، زهر الآداب ٨٨٨/٣ .

فالاديب الذى يجمل معنى قبحه الله - مهما واثقه
مقدرته على البيان - فادبه عند الحسن مرفوض ، لانه قلب
للقيم ، وخلط بين المعايير لا يذهب آثاره السيئة على
المتلقى روعة الاداء ، وجمال الاسلوب لان بلاغة البليغ مرهونة
بمراعاة القيم التى شرعها الاسلام .

ومن هنا جعل الحسن قبوله قراءة الرسالة ، بسبب
مافيه من جمال اللفاظ الثواب الوحيد عليها ، دون أن يمكن
"سهلا" من العطية المأمولة .

وفى المسألة على كل حال جدل طويل بين نقاد العصر حول
(١)
ملة الادب بالاخلاق .

وقيل للحسن بن سهل "لاخير فى السرف" ، فقال : "لاسرف
(٢)
فى الخير" فرد اللفظ واستوفى المعنى ، وهو دليل آخر على
ذمه البخل ومن يدعو اليه .

(١) راجع الاتجاه الاخلاقى فى النقد العربى ، د. محمد بن
مريسى ، القيم الخلقية فى الخطابة ، د. سعيد حسين
منصور ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ .
(٢) الثعالبى ، خاص الخاص ص ٤ .

الحكم

وللحكمة موقعها البارز فى فن القول عند السهليين ،
وهى زبدة التجارب والتفاعل بين أفراد الشعوب ، مماغة فى
جمل كثيرة الدلالات والايحاءات ، والانسان الحكيم أيضا هو
القادر على الافادة من موروثات المجربين فى شكل هذه الحكم
وأبرز ما يميزها التفضيلة والالتزام ، وهى أبعد ما تكون عن
الرديلة والابتذال .

وآل سهل من هؤلاء الخبراء المجربين الذين عركتهم
الحياة ، وتفاعلوها مع مكنوناتها .. ومن ثم أخرجوا لنا
رحيق تجاربهم وخلاصتها .

يروى سهل بن هارون يقول : ومما حفظ من كلام ذى
الرياستين مما رأينا تخليده فى الكتب ، ليؤتم به ، وينتفع
بمقول حكمته ، قوله :

"من ترك حقا فقد غبن حظا ، ومن قضى حقا فقد أحرز
غنما ، ومن أتى فضلا فقد أوجب شكرا ، ومن أحسن توكلا لم
يعدم من الله صنعا ، ومن ترك لله شيئا لم يجد لما ترك
فقداه ، ومن التمس بمعصية الله حمدا عاد ذلك على ملتزمه
ذما ، ومن طلب بخلاف الحق له دركا عاد ما أدرك من ذلك له
موبقا ، وذلك أوجب الفلاح للمحسنين ، وجعل سوء العاقبة
للمسيئين المقمرين" (١) .

فكلها فضائل مشتقة من تجارب الحياة ، وتلامس الواقع
اليومى للناس ، كما أنها تقوم من جانب آخر على وصايا

(١) الحصرى ، زهر الآداب ٢/ ٣٥٥ .

الاسلام وآدابه .. فهى تحض على عدم التفريط فى حق ، وعلى الاحسان فى كل شئ، وهو أكثر مايوجب الشكر ، مع التوكل على الله فيما يأتى المرء ويدع ، وأن يجعل مرضاة الله غايته فيما يعمل ، وأن يجعل له نصيبا فى عمله ، وألا يلتمس بمعصية الله حمد الناس ، والا عباد ذلك عليه ذما ... وهذا كله أحرى أن يوجب الفلاح للمحسنين . فهذه المعانى على شرفها ونبلها صيغت بالفاظ مختارة صافية ، تخلو من عيوب الفصاحة ، وانتظمتها جمل وتراكيب لأثر عليها للمعاطلة أو التقعير . بل تهدى معانيها إلى المتلقى، إلى عقله وقلبه فى عذوبة ويسر ، بسبب ما تخللها من بعض السجع والازدواج الذى برئ من التكلف والتصنع .

وهى مع ذلك كله ، تهدى الخبرة إلى من يحتاج إليها ، ويفيد منها .

ولا يزال هذا الرجل الحكيم يفيض علينا من بحر حكمه المستثناة من القرآن الكريم تارة ، وأخرى من تجارب الحياة يقول :

"من أحب الازدياد من النعم فليشكر ، ومن أحب المنزلة عند السلطان فليكفه ، ومن أحب بقاء عزه فليسقط دالته (١) ومكره " .

أفاد الفضل من بحر القرآن الزاخر بلائى القول ودرره تمثل قوله تعالى : { ... لئن شكرتم لازيدنكم } ، ولم يغفل (*)

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوىء ص ١٢١ ، ابن منقذ ، فى لباب الآداب ص ٢٠ أن القائل الحسن بن سهل وفيها بعض الزيادة .

(*) سورة ابراهيم : ١٤

الافادة من مدرسة الحياة ، بتجسيد خبراته التى اكتسبها من
اتصاله بالخلفاء والأمراء ، فقد أدرك مايرضيهم وماينفرهم
لأن بقاء حجاب شرف بينه وبين السلطان جدير أن يقيه غضب
السلطان وسخطه ، وقد يكون الفضل فى هذه الحكمة معتبرا بما
آل اليه البرامكة ، وقد يكون هذا الخلق من آداب ملوك
الفرس ، لكنه على كل حال ليس من طبع العربى الصريح فى غير
قحة ، المتواضع فى غير خنوع ، الجرىء دون تقحم .
ولم نعرف من أخلاق الخلفاء الاقحاح فى عروبتهم شيئا من
هذا إلا بعد أن شرعوا يتأدبون بآداب الفرس .
ويقول أيضا :

(١)
"ليست الفرمة الا ما اذا أخطأك نفعه لم ينلك ضرره " .

وتتجلى خبرات الفضل فى قوله :

"ما استرعى الغيبان ، ولا استعطف السلطان ، ولا سللت
السخائم ، ولا رفعت المغارم ، ولا استمسك المحبوب ، ولا توقى
المحذور بمثل الهدية " .
(٢)

وللحسن بن سهل مثل ذلك من الحكم ، فهو كأخيه عرك
الحياة وبلاها ، وذاق ثمرها حلوه ومره فتكونت له شخصية فذة
مثلت الحكم جانبا من جوانبها الهامة .

يقول فى عجب منه ودهشة لأحوال الناس ، وفيه نقد صريح
لسلوك شريحة من مجتمع عصره :

(٣)
"عجبت لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه " .

(١) نشر الدر ١٥٤/٤ .

(٢) الشعالبى ، لطائف اللطف ص ٥٨ .

(٣) الشعالبى ، خاص الخاص ص ٤ ، لطائف اللطف ص ٥٨ ، ٥٩ .

وهى من الحكم البارة الكثيرة الايحاء بما فيها من
صياغة متقنة ، خلت من فضول الكلام ، ودلت بقليلها على كثير
فكلنا نرجو الله فلا ينبغي لأحد أن يحرم من دونه ، وكل قادر
فيينا نرجو من هو أقدر منه ، فليثق الله فيمن تحته ممن هم
أعجز منه ، والمحصلة أن يتعاون الناس جميعا على البر .
ولأحسب حكمة كهذه تأتي عفو خاطر ، بل وراءها كد
فكر ، لكن إشارة من هذا الكد لا تبدو على صياغتها السهلة
الصافية ، وهذا شأن لايتأتى إلا للموهوبين .
ومن بارع حكم السهلين قول الفضل بن سهل بعد أن برىء
من علة أصابته :

"ان قى العلل لنعمنا لاينبغي للعقلاء أن يجهلوها :
تمحيص الذنوب ، والتعرض لشواب المبر ، والايقاظ من الغفلة
والاذكار بالنعمة فى حال الصحة ، واستدعاء التوبة ، والحض
على الصدقة " (١) .

ماالنعمة التى تكون فى العلة ؟

نعم ، انها تمحيص للذنوب ، وتعرض للمبر ، واذكار
بالنعمة فى حال الصحة ، وهى من المعانى التى قد ترد على
خاطر كل عليل ، لكن أن يجعل الفضل من نعم العلة أنها توقظ
من الغفلة ، وتكسر استمرارية الصحة ، وطول الفها فهذا مما
لم يرد إلا على خاطر من يتأمل المعانى ويتدبرها ويتعمقها .
لان الايقاظ من الغفلة من شأنه أن يقوم من أفكار المرء
وعاداته وسلوكه ماكان أعوج ، فيصح طريقه فى كل شئ ،

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٤/٤٢، ٤٣ ، ينسب هذا القول
فى الفرج بعد الشدة ١/١٦٨ ، وفى لطائف اللطف ص ٥٨
الى الحسن بن سهل .

ويعود إلى عافيته ويجد أفكاره ونظراته وسائر ما يلابسه ،
ويمدر عنه .

ولآل سهل أقوال تحكى مروءاتهم ، وتجسد بوضوح مسلكهم
مع الناس ، تظهر حقيقة نهجهم وهذا الحسن بن سهل يجلو ذلك
فى بيان جميل :

"إذا كان الملك محتجبا عن الرعية ، ولم ينزل الوزير
نفسه منزلة تكون رسائل الناس إليه أنفسهم واستحقاقهم دون
الشفاعات والحرمان ، حتى يختص الفاضل دون المفضول ، ويرتب
الناس على أقدارهم وأوزانهم ومعرفتهم ، امتزج التدبير
واختلت الأمور ، ولم يميز بين المدور والاعجاز ، والنواصي
والاذناب ، وكان الناس فوضى ، ووهت أسباب الملك ، وانتقضت
مرائره ، وشعت سرائر ، وإن أقرب ما أرجو به ملاح ما أتولاه
استماعى من المتنسمين بأنفسه ، المتوسلين بأفهامهم ،
المتوسلين بكفايتهم ، وابتذال نفسى لهم ، ومبرى عليهم ،
وتمفحى ما توسلوا به ، وانتحلوه من العقول والآداب ،
والحماية والكفاية ، فمن ثبت له دعواه أنزلته تلك المنزلة
ولم أتحيفه حقه ، ولانقصته حظه ، ومن قمر عما ادعى كانت
منزلته منزلة المقصرين ، ولم أخيب أمله من مقدار
(١)
ما يستحقه " .

(١) فى هذا النص فصل الحسن بَيِّن إذا وجوابها بفواصل طويلة
"إذا كان الملك محتجبا عن الرعية ... امتزج التدبير"
لكنى لأراه عيبا مخرلا لاتصال جملة الجواب بشرط إذا
اتملا وثيقا .

(٢) تأتي هذه الوصية على خلاف المتوقع فهو هنا يذكر احتجاب الوزير عن الرعية احتجاجا "لاتكون رسائل الناس اليه أنفسهم" ألا ما أجمل هذه المياغة المهدبة المنطوية على انكار الشفاعات ، وتقديم أصحاب الحرمات لما فيها من وهن أسباب الملك .

(٣) وليس الحسن غرا ينخدع بالزائف عن الصحيح ، وإنما هو فى مكانه من سياسة الحكم عقل راجح ، وعين بصيرة ، فاذا أتاه خبر فلا يسمع إلا ممن تنسم بنفسه ، وتوصل بفهمه ، وتوصل بكفايته ، ومع ذلك فهو يبتذل نفسه مع من يأتية بالأخبار ، لأن ذلك أدعى ألا يكتم عنه المخبر شيئا ، ثم هو يصير عليه ، وفوق ذلك فلا يكتفى بما يسمع بل يتمفحه ويعرض ماسمعه على عقله ليعلم صدقه من كذبه هذا الدهاء فى سياسة الحكم اذا واثته مقدرة بلاغية كان من آثارهما أسلوب متميز ، بدقة اختيار الالفاظ وتنوع وجدة فى التراكيب ، وهو ما يرقى بالنثر الفنى ، ويجنبه السطحية ، ومط العبارات فى غير طائل .

كانت هذه الاسرة تعنى الدور المنوط بها ، والآمال الملقاة عليها فأحسنّت السيرة بفضل ماتزينت به من أخلاق الاسلام الحميدة ، فامتلكت بجليل أعمالها ، وجميل أقوالها أزيمة الناس وأعنتهم .

كتب الحسن لرجل كتاب شفاعه ، فجعل الرجل يشكر ويدعو له ، فقال الحسن يا هذا علام تشكرنا ؟! انا نرى الشفاعات زكاة مروءاتنا .

وكتب فى آخر شفاعه : "انه بلغنى أن الرجل يُسأل عن

(١)

فضل جاهه يوم القيامة كما يسأل عن فضل ماله " .

ومن أخلاقياتهم قول الحسن أيضا :

"الاطراف منازل الاشراف ، يتناولون مايزيدون بالقدرة ،

(٢)

وينتأبهم من يريدهم بالحاجة " .

وتعرض له رجل فقال له : من أنت ؟ قال : أنا الذى

أحسننت الى يوم كذا وكذا ، فقال : "مرحبا بمن توسل الينا

(٣)

بنا " .

(*)

ومنها قوله لعلى بن موسى الرضا مواساة فى مصابه :

"أنا لم نأتك معزين بل جئناك مقتدين ، فالحمد لله

(٤)

الذى جعل حياتكم للناس رحمة ، ومصائبكم لهم قدوة " .

ومن ثلاثات الحسن قوله :

الآداب عشرة ، فثلاثة شرجانية ، وثلاثة أنو شروانية ،

وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن .

فأما الشرجانية ، فضرب العود ، ولعب الشطرنج ، ولعب

المولج .

وأما الأنو شروانية ، فالطب ، والهندسة ، والفروسية .

وأما العربية ، فالشعر ، والنسب ، وأيام الناس .

(١) القالى ، الأمالى ١٢٨/٢ .

(٢) الحميرى ، زهر الآداب ٢٥٥/١ .

(٣) المصدر نفسه ٢٥٥/١ .

(٤) المصدر نفسه ١٣٣/١ .

(*) على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، أبوالحسن ،

الملقب بالرضى ، شامن الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ،

ولد فى المدينة سنة ١٥٣هـ ، وكان أسود اللون ، أمه

حبشية ، أحبه المأمون وعهد اليه بالخلافة من بعده ،

وزوجه ابنته ، وضرب اسمه على الدينار والدرهم ، وغير

من أجله الزى العباسى من السواد الى الخضرة . مات

سنة ٢٠٣هـ فى حياة المأمون ودفنه الى جانب أبيه

الرشيد .

الأعلام ٢٦/٥ .

وأما الواحدة التى أربت عليهن : فمقطعات الحديث ،
والسمر ، وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس^(١) .
وهذا دليل صريح على شمول ثقافة أفراد هذه الأسرة مما
أكسبهم رقيا فى مكانتهم التى وصلوا اليها عن طريقها .
وقال الحسن : وجدت للقمان الحكيم ثلاثة لا يصلح فسادهن
بشئ من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ،
والركاكة فى الملوك . وثلاثة لا يستفسد ملاحهن بنوع من المكر
العبادة فى العلماء ، والقنوع فى المتبصرين ، والسخاء فى
ذوى الأقدار ، وثلاثة لا يشبع منهن : الحياة ، والعافية ،
والمال^(٢) .

(١) الحمصى ، زهر الآداب ١٩٦/١ .
(٢) الماوردى ، قوانين الوزارة ص ٧٦ .

أفقت بنا دراسة هذه الأسرة ، إلى استخلاص النتائج
الحالية :

(١) توحيد السمات الفنية ، والخصائص الأسلوبية ، بين كتابة
آل سهل ، والبرامكة ، ومرد ذلك يعود إلى قوة الصلات
والعلائق بينهما ، فالسهليون كانوا يترسمون طريق
البرامكة في شتى ميادين الحياة ، وليس في الكتابة
فقط مما حدا بابن طباطبا في أن يعد آل سهل أسرة
مصغرة من البرامكة وذلك لقوة الشبه بينهما .. هذا
الامتزاج بينهما مع وحدة الأمل والثقافة لون خصائصهم
الفنية بلون واحد .

(٢) حلم إعادة الكسروية كان يراود آل سهل أيضا ، يؤكد
هذا مقولة الفضل بن سهل المشهورة ، وبعض اشارات
الشعراء ، غير أن أطماعهم أودت بهم إلى مصيرهم
المعروف :

(٣) وصل البرامكة إلى الخلافة عن طريق مواهبهم الأدبية ،
وقدراتهم السياسية والعسكرية . أما السهليون فوصلوا
بمساعدة البرامكة مع مواهبهم الأدبية ، وقدراتهم
السياسية .

الباب الثالث

آل صول (٠٠٠ - ٢٤٣هـ)

الفصل الأول : تعريف بالأسرة .

- (أ) ١ - ملاتهم بالبرامكة وآل سهل
- ٢ - أرومتهم واتصالهم بالدولة العباسية
- (ب) آل صول عند معاصريهم الكتاب

الفصل الثانى : نشرهم الفنى ، وسماته .

- (أ) الرسائل
- (ب) التوقيعات
- (ج) الأقوال

الفصل الثالث : موازنة بين كتابى "أدب الكاتب" لابن

قتيبة ، و"أدب الكاتب" للمولى .

أبرز نتائج الباب .

الفصل الأول

تعريف بالأسرة

- (أ) ١ - ملاتهم بالبرامكة وآل سمل
٢ - أرومتهم واتصالهم بالدولة العباسية
(ب) آل مول عند معاصريهم الكتاب

(أ) تعريف بالأسرة .

(١) صلاتهم بالبرامكة وآل سهل .

أفقت دراسة الروابط بين الأسرتين السابقتين
(البرمكية ، والسهلية) إلى تأكيد عمق الملات بينهما أدبيا
وسياسيا واجتماعيا .

قام البرامكة برعاية آل سهل وتوجيههم الوجهة الصحيحة
وكان السهليون حريصين على متابعتهم ، والسير على خطاهم ،
حتى لقد عدهم بعض المؤرخين امتدادا للبرامكة .

أما المولليون فقد كانوا أشد حرصا في تكوين علائقهم مع
البرامكة حينما ، ومع آل سهل حينما آخر .

فعمر بن مسعدة اتجه الى البرامكة ، وكان شديد الولع
بالإيجاز ، وهو من أبرز سماته في الكتابة .

وإذا ما أردنا أن نفتش عن أستاذه في هذه الطريقة
فلانجد سوى جعفر بن يحيى البرمكى الذى شهر بهذه السمة ،
وكان لها أستاذا بارزا ، وكانت - كما ذكرت في موقعه -
شباع توقيعاته ، ويتسابق عليها البلغاء ، لما اشتملت عليه
(١)
من ابداع .

ولأستبعد أن يكون عمرو بن مسعدة أول المبتدعين ،
يؤكد هذا توجيه جعفر وحشه لعمرو بن مسعدة في الاتجاه صوب
هذه السمة ، يروى عمرو عن نفسه قال : "كنت أوقع بين يدي
جعفر بن يحيى البرمكى فرفع اليه غلمانه ورقة يستزيدونه في

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٧ ، أحمد صفوت ، جمهرة رسائل
العرب ٢٨٧/٤ .

رواتبهم ، فرمى بها الى ، وقال : أجب عنها ، فكتبت "قليل دائم خير من كثير منقطع" قال : فضرب بيده على ظهرى وقال :
(١)
أى وزير فى جلدك" .

إذا فاستاذية البرمكى وميته البعيد ، وتوجيهاته القيمة أثرت بشكل قاطع فى شخصية ابن مسعدة .. فهو لذلك يعد من أبرز أساتذته . ولاأجد حرجا فى تقرير ذلك وإثباته . ولاأنسى أن أذكر أن عمرو بن مسعدة كانت لديه الموهبة والاستعداد ، ومن ثم كان المقل والتشجيع من أساتذته ، فأبرزت هذه العوامل رجلا فذا ، وأديبا لايطاول .

ولأدري كيف غاب عن صاحب أمراء البيان حين أجهد نفسه فى البحث والتقى عن أستاذ عمرو بن مسعدة فلم يظفر بطائل ولعله أهمل دراسة العلائق بين عمرو وأقرانه الكتاب ، ولو فعل ذلك لأدرك أستاذية البرمكى لعمرو بن مسعدة دون عناء يذكر ، أو مشقة فى ذلك .

وتجدر الإشارة الى أن هذه الصلة الوثيقة بين عمرو بن مسعدة وجعفر بن يحيى لم تكن وليدة العمر الذى عاشا فيه ، فقد كانت متأصلة ولها جذورها ، فمسعدة والد عمرو كان على صلة وثيقة بعميد أسرة البرامكة خالد بن برمك فكان من كتابه ، وتعمقت هذه العلائق بعد ذلك ، ونمت بين الأحفاد كما رأينا .

آية ذلك ، أن آل مولى لم يكونوا بمنأى عن البرامكة بل عايشوها ، وأفادوا منها وأخص عمرو بن مسعدة الذى تشرب أسلوب

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٤٧٦/٣ .

(٢) كرد على ص ١٥٩ .

(٣) معجم الأدباء ١٢٧/١٦ .

جعفر ، وسار على نهجه . وليس معنى ذلك أنهم كانوا بمعزل
عن آل سهل ، فابراهيم بن العباس كان من منافعهم ، عرفوا
فضله فقدموه ، وأكرموه ، وماقمائده السابقة فى اطرائهم الا
دلالة على قوة الملة بيئه وبينهم ، لاسيما أنه لم يكن من
المتكسبين بالشعر كغيره من الشعراء .
ومن دلائل قوة هذه الملة أيضا ، مارواه ابن خلكان
والأمبهاى قالا :

"كان ابراهيم وأخوه عبد الله من منافع "ذى
الرياستين" اتصلا به ، فرفع منهما ، وتنقل ابراهيم فى
أعمال السلطان ودواوينه الى أن توفى وهو يتقلد ديوان
الضياع والنفقات "بسر من رأى" للنصف من شعبان سنة ثلاث
(١)
واربعين ومائتين" .

لهذه المنن كان ابراهيم المولى محبا للفضل بن سهل ،
ومن فرط حبه له عرض نفسه للهلاك حينما أخبر ابن سهل بما
قرر المأمون فى أمر قتله . ثم عفا عنه المأمون بشفاعه
(٢)
(٣)
هشام الخطيب .

ولأظن أن المولى يعرض نفسه لنقمة الخليفة فى سبيل
انقاذ الفضل الا اذا كان للفضل منزلة عظيمة عنده . وهذا
الوفاء يوضح قوة التلاحم بينهما .

(١) وفيات الأعيان ٤٦/١ ، الأغاني ٤٤/١٠ .

(٢) الفرغ بعد الشدة ٦٢،٦١/٤ .

(٣) الأغاني ٦٢/١٠ .

صفوة القول :

هذه الأسرة بمواهبها الأدبية ، واستفادتها من خبرات
البرامكة ، وآل سهل وثقاتهما ، كل ذلك كون لها شخصية
أدبية فذة ، شدت اليها الأنظار ، ولوت الأعناق إعجابا بها ،
وتقديرًا لدورها في إثراء الساحة الأدبية .

(٢) أرومتهم ، وبدء اتصالهم بالخلافة العباسية .

يتكئ الصوليون على تاريخ عريق ، لا يقل بحال عن عراقة
البرامكة تنتسب الى كبيرها (صول) ، يروى عنه صاحب الاغانى
قال :

"كان صول وفيروز أخوين ملكا جرجان ، وكانا تركيين
تمجسا ، وتشبها بالفرس ، فلما حضر يزيد بن عبد المطلب
جرجان أمهما ، فأسلم صول على يديه ولم يزل معه حتى قتل"^(١) .
من هذا النص يتبين أصلهم التركى ، ونشأتهم ،
وديانتهم ، وثقافتهم الفارسية فهى لذلك لا تختلف عن الأستين
السابقتين فى شئ كثير .

وكان اتصالهم بالخلافة العباسية عن طريق محمد بن صول
ابن صول المذكور ، تشير المصادر التى بين أيدينا الى أنه
كان من رجال الدولة العباسية ودعاتها وقوادها^(٢) .
وتولى لهم الموصل ونقل الى أذربيجان بعد أن عزل^(٣)
السفاح مجاشع بن يزيد . وهذا يؤكد اعراقها المبكر فى خدمة
الدولة العباسية مما أتاح لأحفادهم بعد ذاك التدرج فى
أعمال الدولة ودواوينها كما حصل لإبراهيم بن العباس ،
وعمر بن مسعدة .

(١) الأصبهاني ٤٣/١٠ .
(٢) المصدر نفسه ٤٣/١٠ .
(٣) المصدر نفسه ٤٣/١٠ .

(ب) آل صول عند معاصريهم الكتاب .

لسم تتمكن هذه الأسرة من سياسة الدولة وإدارتها كما كان الحال عند أقرانهم السهلين والبرمكيين ، ولعل ذلك يفسر لنا قلة مدائح الشعراء فيهم ، مما جعلنى أغفل عقد مثل هذا المبحث ، عكس مامضى فى الأسرتين السابقتين .

فقد كان لآل صول منزلة رفيعة عند معاصريهم من شعراء وكتاب ، بفضل ما وهبهم الله من فطنة ، وذكاء ، وموهبة ، سخروها لخدمة النثر الفنى فى عصرهم ، فجاء مأثورهم من شعر ونثر رائعا ، شريفا ، نبيلًا .

ومن تمام البحث تتبع آراء معاصريهم فى أدبهم شعرا ونثرا ، لنرى قدرات آل صول من خلال تلك الآراء .

وخير من نبدأ به إبراهيم بن العباس المولى فقد كثر اطراء معاصريه له ، وكان ذلك من ناحيتين شهر بهما ، وكان واحد زمائمه فى الابداع فيهما ، الشعر ، والكتابة .

(١) شاعريته عند معاصريه .

(٢) بيانته وبلاغته فى مكاتباته فى نظرهم أيضا .

(١) لسم يكن إبراهيم كاتبًا رائع الأسلوب ، سلس العبارة ، قوى السبك ، فحسب ، بل كان الى جوار ذلك شاعرا مجيدا من طراز نادر ، يشار اليه بالبنان ، تسنم ذروة المجد فيه ، ولمعاصريه فى الاعجاب بشاعريته آراء جميلة ، تحكى مدى ما بلغه من صيت فى هذا الفن .

وكان المولى يتكسب بشعره ، كما مر فى مدائحه لآل سهل ومدائحه فى على بن موسى الرضا لما عقد له المأمون على (١)

ولاية العهد من بعده .

(١) الاغانى ٥٢/١٠ .

وليه مدائح فى المتوكل وولاية العهد ، فمنحه المتوكل
مائة ألف درهم ، وأمر له ولاية العهود بمثلها ، ومدح أيضا^(١)
المعتز بالله .^(٢)

على أنه لم يكن يتكسب بالشعر ، كغيره من الشعراء ،
وهذا يفسر لنا قول دعبيل الخزاعى :
"لو تكسب ابراهيم بن العباس بالشعر لتركنا فى غير
شئ" .^(٣)

فكان ماقالبه المولى فى غرض المديح لا يعد شيئا بجانب
أغراضه الأخرى التى فضلها وتناولها ، وهذا حق ، ولهذا
الرأى دلالة التى لا تخفى ، من تمرس المولى واجادته لفن
الشعر فى شتى أغراضه ، ومختلف فنونه .
ويذكر المسعودى فى مروج الذهب أن ابراهيم المولى لم^(*)
يتكسب بالشعر الا فى حدائثه .

ماسبق ذكره يثبت أنه تكسب بشعره فى حدائثه وبعدها ،
ولكن بقدر ، لم يتخذ الشعر صناعة له ، لأن مناعته
الكتابة .

وأحمد بن يحيى كان من المعجبين بقدرات المولى^(**)

-
- (١) الأغاني ٦٤/١٠ .
(٢) الأغاني ٦٧، ٦٦/١٠ .
(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٤٦/١ ، معجم الأدباء ١٦٨/١
الأغاني ٤٤/١٠ .
(*) المسعودى هو : على بن الحسين بن على أبو الحسين
المسعودى ، من ذرية عبد الله بن مسعود ، مؤرخ رحالة
بحاجة ، من أهل بغداد ، توفى سنة ٣٤٦هـ .
الأعلام ٢٧٧/٤ .
(**) هو أحمد بن يحيى بن زياد بن سيار الشيبانى بالولاء ،
المعروف بشعلب ، امام الكوفيين فى النحو واللغة ،
كان راوية للشعر ، مشهورا بالحفظ ، ثقة حجة ، ولد
ومات فى بغداد (٢٠٠-٢٩١هـ) أشهر كتبه مجالس شعلب .
الأعلام ٢٦٧/١ .

الشعرية ، يقول : "كان أشعر المحدثين وماروى شعر كاتب
(١)
غيره " .

وكان يستحسن قوله :
لنا إبلٌ كَوْمٌ يَفِيقُ بها القفا
ويَفْتَرُّ عنها أرضها وسماؤها
فمن دونها أن تُسْتَبَاحَ دماؤها
ومن دوننا أن نُسْتَذَمَّ دماؤها
حمى وقرى فالَموتُ دُونَ مَرَامِهَا
وَأَيَسَّرَ خطبُ يومٍ حق فئاؤها
قال - مشيرا الى هذه الابيات - :

(٢)
"والله لو أن هذا لبعض الأوائل لاستجيد له " .

والمسعودى يستحسن شعر الصولى ، ويقول : "وله أشعار
حسان ، فمما استحسن من شعره الذى لم يسبقه عند جماعة أهل
الادب أحد من زمانه قوله " وأورد الابيات السابقة ، ومعها
(٣)
غيرها .

ويبدو أن المسعودى هذا كان شديد الولع بالصولى ،
معجبا بمأثوره ، يقول فى ذلك :
"ولابراهيم بن العباس ، مكاتبات قد دونت ، وفصول حسان
من كلامه قد جمعت وقد أتيننا على كثير منها فى الكتاب

-
- (١) معجم الأدباء ١٨٠/١ ، الاغانى ٩٥/١٠ ، وفى زهر الآداب
١٠٠٩٠/٤ وتغبر عنها .
(٢) معجم الأدباء ١٨٠/١ ، فى الاغانى ٥٩/١٠ أن تستباح
دماؤها .
(٣) مروج الذهب ١٠٨، ١٠٧/٤ .

(*) (١)
الأوسط .

والأصبهاني أيضا يمدح المولى في عرض مدحه لابن الزييات
يقول :

"كان محمد شاعرا مجيدا ، لا يقاس به أحد من الكتاب ،
وان كان ابراهيم المولى مثله في ذلك ، فان ابراهيم مقل ،
(٢)
وماحب قمار ، ومقطعات" .

ورأى الأصبهاني فيه شيء من التجنى على ابراهيم بن
العباس ، وهو مخالف لأراء كثيرة تنصف المولى ، وهي صادرة
من أهل علم بهذا الفن ، ودراية به ، كلها تؤكد مقدرة
المولى الشعرية ، وتقدمه على أقرانه .

ولا اعتقد أن ابن الزييات مع علمه وأدبه ، يرقى إلى
مرتبة ابراهيم المولى ، هذا ما تقرره القمة التي أوردتها
صاحب الأغاني نفسه ، يقول :

"أخبرني عمي ، قال : اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن
(**)
عبد الملك وابن برد الخيار في مجلس عبيد الله بن سليمان
قبل وزارته ، فجعل هارون ينشد من أشعار أبيه محاسنها ،
ويفضلها ، ويقدمها ، فقال له ابن برد الخيار :

(*) الكتاب الذي أشار اليه المسعودي من الكتب التي ضاعت
ولم يعد لها وجود ، غير أن محقق مروج الذهب ، محمد
محيي الدين عبد الحميد يذكر أن في مكتبة اكسفورد
نسخة منه . مقدمة مروج الذهب ٨/١ .

(١) مروج الذهب ١٠٧/٤ .

(٢) الأغاني ٤٧/٢٣ .

(**) هو ابن وهب ، عبد الله بن سليمان بن وهب الحارثي ،
أبو القاسم ، وزير ، من أكابر الكتاب ، استوزره
المعتز بالله العباسي ، وأقره المعتز ، واستمرت وزارته
عشر سنين إلى وفاته ، هو ابن وزير ، ووالد وزير
(٢٢٦-٢٨٨هـ) .
الأعلام ١٩٤/٤ .

ان كان لأبيك مثل قول ابراهيم بن العباس :
اسد ضار اذا هيجهته وأب يسر اذا ماقدرا
يعرف الأبعد ان أثري ولا يعرف الأدنى اذا ماافتقرا
أو مثل قوله :

تلج السنون بيوتهم ، وترى لهم
عن جار بيتهم ازورار مناكب
وتراهم بسيوفهم وشفارهم
مستشرقين لراغب أو راهب
حامين أو قارين حيث لقيتهم
نهب العفاة ، ونهرة للراغب
فذاكره ، وافخر به ، الا فاقبل من الافتخار والتطاول
(١)
بما لاطائل فيه ، فحجل هارون" .
فمكانة المولى أعلم من أن تجهل ، وأشهر من أن تدرس ،
وعبيد الله بن سليمان يقول :
"العمري صافى الكتاب أشعر من أبى اسحاق ، وأبى على
(٢)
يعنى عمه الحسن بن وهب" .
ومن هؤلاء الكتاب الذين أعجبهم شعر المولى وأشار
(*)
عواطفهم ، محمد بن داود الجراح فى كتابه "الورقة" يقول
فيه :
"ابراهيم بن العباس بن محمد بن مولى ، أشعر نظرائه

(١) الأغاني ٦٥/١٠ .

(٢) الأغاني ٦٥/١ .

(*) هو محمد بن داود بن الجراح أبو عبد الله ، أديب من علماء الكتاب ، من أهل بغداد ، وهو عم على بن عيسى الوزير ، وكان صديقا لعبد الله بن المعتز ، ووزر له يوم خلافته ، وقتل ببغداد سنة ٢٩٦هـ .
الأعلام ١٢٠/٦ .

الكتاب ، وأرقهم لسانا ، وأشعاره قصار ، ثلاثة أبيات ونحوها الى عشرة ، وهو أنعت الناس للزمان ، وأهله غير مدافع ... " (١) .

وقول ابن الجراح يعزز قول الاصبهاني السابق ، حين وصف شعره بالمقطعات ، وهذا النهج من طرائقه فى كتابة الشعر ، وسنرد عليه ان شاء الله .

وكانت لابراهيم الصولى معان جيدة مبتكرة ، يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :
(*)

"لايعلم لقديم ، وللمحدث فى قصر الليل ، أحسن من قول ابراهيم بن العباس :

وليلة من الليالى الزهرى قابلتُ فيها بدرها بـبدرٍ
لم تك غير شَفَقٍ وفجرٍ حتى تولت وهى بكر الدهرِ
وكانت علاقة الصولى بأبى تمام جيدة ، قال له ابراهيم الصولى وقد أنشد شعرا له فى المعتصم : ياأبا تمام ، أمراء الكلام رعية لاحسانك ، فقال له أبو تمام : ذلك لائى أستضىء بك ، وأرد شريعتك " (٢) .

وهذا القول اذا جردناه من المجاملة فلا يخلو من بعض الصحة .

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٤٥/١ .
(*) هو عبيد الله بن عبد الله بن الحسين الخزاعى ، أبو أحمد ، وقد يعرف بأبى طاهر ، أمير من الأدباء والشعراء ، انتهت اليه رئاسة أسرته ، ولى شرطة بغداد ومولده ووفاته فيها ، وكان مهيبا ، رفيع المنزلة عند المعتضد ، له براعة فى الهندسة ، والموسيقى ، وله مراسلات مع ابن المعتز ، جمعها فى كتاب (٢٢٣-٣٠٠هـ) .
الأعلام ١٩٥/٤ .
(٢) الأغاني ٦١،٦٠/١٠ .

وقول الأصبهاني وابن الجراح السابقين ، يدلان على نهجه
فى الشعر ، يؤكد ذلك ياقوت الحموى فقد أشار الى طريقته
مراحة ، يقول :

"وكان ابراهيم بن العباس ، وأخوه عبد الله من وجوه
الكتاب ، وكان عبد الله أسنهما ، وأشدهما تقدما ، وكان
ابراهيم أدبهما ، وأحسنهما شعرا ، وكان اذا قال شعرا
اختاره ، وأسقط رذله ، وأثبت نخبته " (١)

أى أنه كان ينفصل شعره ، وينفى غشه ، فعل الشعراء
الكبار ، ويضيف الأصبهاني الى ذلك قوله :

"... فلا يدع من القصيدة الا اليسير ، وربما لم يدع
منها الا بيتا أو بيتين" (٢)

والحق أن الصولى بذأقرائه الكتاب ، بما وهبه الله
من قريحة مواتية واستعداد منه لذلك ، فتسئم ذروة الشعر
كما هو فى الكتابة .

(٢) بيانه فى مكاتباته ، واعجاب معاصريه ببلاغته

وحسن بيانه .

لاشك أن الصولى كان بارعا فى الكتابة الفنية ، كما
كان فى الشعر ، نستبين ذلك من مآشوره ، ومن آراء أقدان
الكتاب فى نشره ، معاصرين ، ومن تلاهم .

نستفتح هذه الآراء التى تكاشفنا بحقيقة منزلته عند
أهل هذه الصنعة ، باعجاب المتوكل به ، لما كتب له الرسالة
التالية :

(١) معجم الادباء ١٦٧/١ .

(٢) الاغانى ٤٣/١٠ .

"أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه
بما يقوم به من أود ، وعدل به من زيغ ، ولم به من مختشر ،
استعمال ثلاث يقدم بعضهن أمام بعض ، أولاهن : مايتقدم به من
تبذية وتوقيف ، ثم مايستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التي
لايقع حسم الداء بغيرها .

أثناء فإن لم تغن عقب بعدها

(١)

وعيدا فإن لم يغن أغنت عزائم

عجب المتوكل من ذلك وأومأ الى عبيد الله أما تسمع ؟

فقال : يا أمير المؤمنين : "ان ابراهيم فضلة خبأها الله لك
(٢)
واحتبسها على أيامك" .

فاعجاب المتوكل وجواب وزيره ، يعطيان فكرة عن منزلته
عند الخلفاء والوزراء وتقديرهما لأدبه ، واجلالهما لموهبته .
ومع ابداعات المولى المتكررة ، تتزايد أصوات معاصريه
اعجابا بما يكتب ، واقتناضا بما يقول .

وأبو زيد البلخي من معاصريه ، المعجبين بفنه ، يقول

في ذلك :

(٣)

"كان من أبلغ الناس في الكتابة ، حتى مار كلامه مثلاً" .

ويقول فيه ياقوت الحموي :

"وكان ابراهيم كاتباً ، حاذقاً ، بليفاً ، فصيحاً ،

(٤)

منشأ ... " .

-
- (١) معجم الأدباء ١/١٨٧، ١٨٨ .
(٢) المصدر نفسه ١/١٨٧، ١٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ١/١٩٤ .
(٤) المصدر نفسه ١/١٦٨ .

وعلى هذا المنوال تواردت آراء معاصريه ، وغيرهم ، فى التعبير عن اعجابهم به وبمأثوره . يقول ابن خلكان فى ترجمته :

"وله نثر بديع ، فمن ذلك ماكتبه عن أمير المؤمنين ، الى بعض البغاة الخارجين ، يتهدهم ، ويتوعدهم :

(أما بعد ، فان لأمير المؤمنين أناة ، فان لم تغن عقب بعدها وعيدا ، فان لم يغن أغنت عزائمه ، والسلام)" .

ويذكر ابن خلكان أن هذا الكلام مع وجازته كان فى غاية الابداع ، فانه ينشأ منه بيت شعر :

أناة فان لم تغن عقب بعدها

(١)

وعيدا ، فان لم يغن أغنت عزائمه

وهكذا تسنم المولى الشعر والكتابة فى آن معا ، بفضل مأمحه الله من موهبة واستعداد لذلك ، ومامتاز به من بيان ، ورقى أسلوب ، حتى كان وحيد زمانه فيهما .

وابداعه ما هو الا ثمرة حرصه على صنعة ، واهتمامه بها تتأمل اجابته لأبى الفيث قال : كنت عند ابراهيم بن العباس وهو يكتب كتابا فنقطت القلم نقطة مفسدة فمسحها بكمه ، فعجبت ، فقال : لاتعجب ، المال قرع ، والعلم أمل ، ومن هذه السواد جاءت هذه الثياب ، والامل أحوج إلى المراعاة من الفرع ، ثم فكر قليلا وقال :

إذا ما الفكرُ ولّدَ حُسْنَ لفظٍ

وأسلمَهُ الوجودُ الى العيان

ووشاه فممنمه بيسان

فصيح فى المقال بلا لسان

ترى حلل البيان منشرات

(١)

تجلى بينها حلل المعانى

فمجده الذى حققه فى الكتابة والشعر ، لم يتأت له من فراغ ، وماكان ليبلغه لولا هذا الحرص المتناهى فى اعطاء صنعته حقها ، والاخذ بأسبابها ، وعدم رضاه الا ببلوغ منتهاها ، مع ماغرسه الله فيه من حس مرهف ، وموهبة مواتية واستعداد منه لكل ذلك ، فكان له من المنزلة مارأينا .

(١) الحموى ، معجم الأدباء ١٨١/١ ، الأصبهاني ، الاغانى ٦١/١٠ ، المولى ، أدب الكتاب ص ١٠٢ .

يلى ابراهيم المولى عمرو بن مسعدة كاتب المأمون ،
وهو ابن عم ابراهيم هذا . وكان عظيم القدر ، رفيع المنزلة
عرف الخلفاء مكانته فأدثوه من أنفسهم ، وقربوه . لم يشهر
عمرو بن مسعدة بالشعر شهرته بالكتابة . وقد ذكر له
المرزبانى فى الموشح بعض أبيات منها :

ومستعذب للهجر ، والوصل أعذب

أكاتمه حبى ، فيئأى وأقرب

إذا جدت منى بالرضا جاد بالجفا

ويزعم أنى مذنب وهو أذنب

تعلمت ألوان الرضا خوف هجره

وعلمه حبى له كيف يغضب

ولى غير وجه قد عرفت طريقه

(١)

ولكن بلاقلب الى أين أذهب ؟

وقوله هذا يدل على شاعرية فذة ، وموهبة صادقة ، غير

أنه لم يكثر منه ، ولعل مشاغله فى الدولة أخذته بعيدا عن
الشعر وعالمه الرحب .

وقد يكون ذلك من غلبة عقله على وجدانه غلبة جعلته
يؤثر الكتابة على الشعر ، ثم ان الكتابة فى زمنه هذا كانت
سبيلا الى الرياسة ، وليس كمثلها الشعر ، على أنى لأعزو
اقلاله الى سبب واحد ، فقد تتفاقر الأسباب ويصعب رد الاقلال
الى سبب بعينه .

أما فى الكتابة ، فكان مثالا فريدا ، وطرازا نادرا
لامثيل له ، متقد الذهن ، ظاهر الموهبة ، ميالا الى الايجاز
شغوبا به . لنطالع الآن قطوفا من بيانه ، يروى هو ، قال :

(١) الموشح ص ٢٥٥ ، الحموى ، معجم الادباء ١٣١/١٦ .

"كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكى فرفع اليه
غلمانه ورقة يمتزيدونه فى روايتهم ، فرمى بها الى ، وقال
أجب عنها ، فكتب :

(قليل دائم خير من كثير منقطع) ، فضرب بيده على ظهرى
وقال : أى وزير فى جلدك ؟" (١)

وهذا التقييم من جعفر يدل على تأصل موهبة عمرو بن
مسعدة لاسيما أنه صادر من امام هذا الفن .

وتوقعه فيه من الايجاز البليغ ماتحاشى به الاطناب
والحشو على طريقة جعفر البرمكى ولعله كان متأثرا به .
وهذه السمة كانت ملازمة له حين لا يقتضى الحال الاطالة .

كتب الى المأمون :

"كتابى الى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر
أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند
تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، واختلت
لذلك أحوالهم ، والتأثت معه أمورهم" (٢)

فقال المأمون فى سياق اعجابه بهذا الكتاب ، سمعت
الرشيد يقول : البلاغة التباعد عن الاطالة ، والتقرب من
معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على المعنى
وماكنت أتوهم أن أحدا يقدر على المبالغة فى هذا المعنى
حتى قرأت هذا الكتاب . (٣)

واستحسن المأمون لهذا الكتاب بعثه على اعطاء جنده
أرزاقهم لسبعة أشهر ، وعرف فضل ابن مسعدة ومكانه . (٤)

(١) ابن خلكان ، الوفيات ٤٧٦/٣ .

(٢) المصدر نفسه ٤٧٨/٣ .

(٣) المصدر نفسه ٤٧٨/٣ ، الحصرى ، زهر الاداب ٨٩٤/٣ مع
تغيير بعض ألفاظ الرسالة وفيها خاطب المأمون كاتبه
أحمد بن يوسف : ألا ترى يا أحمد الى ادماجه المسألة فى
الاخبار ، واعفاء سلطانه من الاكثار

(٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٤٧٨/٣ .

ويظهر من الاستقراء ميل المأمون الى الايجاز ، وحببه له
ولعل ذلك يفسر اعجابه بعمر بن مسعدة المرة تلو الأخرى .
قدم على المأمون رجل من أبناء الدهاقين وعظمائهم من
أهل الشام ، على عدة سلفت له من المأمون من توليته بلده
وأن يضم اليه مملكته ، فطال على الرجل انتظار خروج أمير
المؤمنين ، فقصد عمرو بن مسعدة ، وسأل ايصال رقعة
الى المأمون من ناحيته ، فقال : اكتب بما شئت فانى موصله
قال : فتول ذلك عنى حتى تكون لك نعمتان ، فكتب :

"ان رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عدته من ربة
المطل ، بقضاء حاجة عبده ، والاذن له بالانصراف الى بلده
(١)
فعل موفقا " .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرا وجعل يعجب من حسن
لفظها ، وايجاز المراد منها ، فقال له عمرو فما نتیجتها
يا أمير المؤمنين ؟-

قال الكتابة له فى هذا الوقت بما سأل لئلا يتأخر فضل
استحساننا كلامه ، وبجائزة تفى دناءة المطل .
(٢)

من هنا كان المأمون تستهويه البلاغة ، وللبیان مفعول
السحر على عقول الناس البلغاء وعواطفهم "وان من البيان
لسحرا" ، واشتملت الرسالة على وجاهتها ادماج الطلب مع
التذكير بالوعد ، والاذن بالانصراف ، كل ذلك بأدب جم ،
وألفاظ شريفة نبيلة .

وكان للفعل بن سهل رأى فى بلاغته ، قال فيه :
"هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد اذا سمع كلامه

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ٤٣٠/٣ .

(٢) المصدر نفسه ٤٣٠/٣ .

ظن أنه يكتب مثله ، فإذا رآه بعد عليه ، وهذا كما قيل
لجعفر البرمكي : ما حد البلاغة ؟ فقال : التي إذا سمعها
الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رآها استمعبت
عليه " (١) .

وخلاصة القول أن عمرو بن مسعدة ببيانته ، ولباقتة ،
وحسن تصرفه استطاع أن يبني لنفسه مجدا ، وعن طريق هذه
المناعة استطاع أن يصل إلى بلاط الخلافة وهو شرف يسعى إليه
كل طموح .

والحق أن الفضل بعد الموهبة يعود إلى البيئة التي
اكتنفته ، فقد كان أبوه كاتباً محنكاً ، كتب لخالد البرمكي
ثم كتب لأبى أيوب الصرياني وزير المنصور على ديوان
الرسائل . (٢)

وابن عمه إبراهيم الصولي ، فكل هذه عوامل مهدت له
الطريق بجانب ما تمتع به في خاصة نفسه من ذكاء متقد ،
واستعداد ، وموهبة .

حقيقة وزارته :

كثير من المصادر لم تعده من وزراء المأمون ، فصاحب
الأحكام السلطانية المختص في هذا الفن لم يذكره في وزراء
المأمون . (٣)

وياقوت الحموي يحاول إجلاء الحقيقة بشيء من الوضوح ،
يقول :

"قد ولى للمأمون الأعمال الجليلة ، وألحق بذوى

(١) معجم الأدباء ١٦/١٢٩، ١٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٦/١٢٧ .

(٣) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٢ وما بعدها .

المراتب النبيلة ، وسماء بعض الشعراء وزيرا ، لعظم منزلته
لأنه كان وزيرا ، وهو قوله :

لقد أسعد الله الوزير ابن مسعدة .

(١)

وبث له فى الناس شكرا ومحمدا

فينكر صراحة أن يكون عمرو بن مسعدة ولى الوزارة فى
زمن المأمون ، ويثبت فى ذات الوقت منزلته السنية عند
ال خليفة المأمون ، هذه المكانة التى قاربت مكانة الوزراء
مما خول لبعض الشعراء أن يدعوه بالوزير ، تكريما له ،
واعترافا بمكانته فى دولة المأمون وتقديرا لجهوده ، واجلالا
لموهبته .

(٢)

أما ابن خلكان فيثبت وزارة ابن مسعدة للمأمون . وأرى
ماقاله الحموى أقرب للصواب ، للأسباب الآتية ، ولأن عمرو بن
مسعدة نفسه قد أوضح ذلك بطريق غير مباشر ، تأمل تعريفه فى
كتابه الى المأمون يستشفع لرجل من بنى ضبة للزيادة فى
منزلته ، فكتب :

"أما بعد ، فقد استشفع بى فلان يأمير المؤمنين
... لتطولك على ... فى الحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون
به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب
المتشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته ، والسلام" .
(٣)

فلا يعقل أن يكون وزيرا ، ولا يكون من سلطته الحاق الرجل
بنظرائه ، أو على أقل تقدير أن يكون فى مراتب المستشفعين .
صحيح نال عمرو حظوة عند المأمون جعلته فى مرتبة
الوزير ، وإن لم يكن كذلك رسميا .

(١) معجم الادباء ١٢٩/١٦ .

(٢) وفيات الاعيان ٤٧٥/٣ .

(٣) ابن الاثير ، المثل السائر ٧٥/٣ .

أبو بكر المولى .

لم يذهب أبو بكر المولى طريق أسلافه فى الكتابة الفنية ، وكان اهتمامه منصباً على تتبع أخبار الناس ، والتأليف ، ولعب الشطرنج .

فبهذه الأشياء شهر ، وبها عرف ، لدى الخاصة والعامة ، غير أن الأولى (أخبار الناس) غلبت على فنونه ، واستحوذت على تفكيره ، وكانت تمثل حياته ، ورواياته متناثرة فى ثنايا كتب الأدب والتاريخ ، وقل أن تجد كتاباً إلا وله فيه ذكر ، وكان لذلك بيته مملوءاً كتباً من سماعه ، وكان يقول :
(١)
"هذه كلها سماعى" .

ولمعاصريه آراء فى فنونه هذه ، قال أبو سماعة العقيلي فى كتبه التى أولج فيها أخبار الناس :

انما المولى شيخٌ	أعلم الناس خزانة
ان سألناه بعلمٍ	طلباً منه إبانهِ
قال يا غلمان هاتوا	رزمة العلم فلانه

وهذه الأبيات تدل على أنه أفنى عمره فى حب الاطلاع ، ومعرفة أخبار الناس وأسس من وراء ذلك مكتبة كلها من سماعه يقول صاحب تاريخ بغداد عنه ، فى الفئتين الأولى والثانى :
"وكان واسع الرواية ، حسن الحفظ للآداب ، حاذقاً بتصنيف الكتب ، ووضع الأشياء منها مواضعها ، ونادم عدة من

(١) ابن خلكان ، الوفيات ٣٦٠/٤ ، الحموى ، معجم الأدباء ١١١، ١١٠/١٩ ، تاريخ بغداد ٤٣٢، ٤٣١/٣ .
(٢) ابن خلكان ، الوفيات ٣٦٠/٤ ، الحموى ، معجم الأدباء ١١١، ١١٠/١٩ ، تاريخ بغداد ٤٣٢، ٤٣١/٣ .

الخلفاء ، وصنف أخبارهم وسيرهم ، وجمع أشعارهم ، ودون أخبار من تقدم وتأخر من الشعراء ، والوزراء ، والكتاب ،
(١)
والرؤساء " .

وإذا ما أردنا أن نبحث عن مصادر سماعه ، فإننا نجد البغدادى قد ذكر بعضهم ، وهم من أهل العلم والادب ، يقول :
حدث المولى عن :

"أبى داود السجستاني ، وأبى العباس شعلب والمبرد ،
(*)
(**) وأبى العيناء محمد بن قاسم ، وأبى العباس الكريشى ، وأبى عبد الله محمد بن زكريا الغلابى ، وأبى زريق عبد الرحمن بن خلف الضبى ، وإبراهيم بن فهد الساجى ، وعباس بن الفضل الاسقاطى ، وأحمد بن عبد الرحمن المجرى ، ومعاذ بن المثنى
(٢)
العنبرى ، وغيرهم " .

وابن خلكان يذكر أنه روى عن كثيرين منهم ، الشاعر
(*)
(****) أبو الحسن على بن محمد بن منصور بن نصر بن بسام البسامى .

-
- (١) البغدادى ٤٢٧/٣ .
(٢) تاريخ بغداد ٤٢٧/٣ .
(٣) الوفيات ٣٦٣/٣ .
(*) المبرد : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الشمالى ، امام العربية ببغداد فى زمانه ، وأحد أئمة الادب والأخبار ، مولده بالبصرة ، ووفاته ببغداد (١٠٠-١٣٤هـ) .
الاعلام ١٤٤/٧ .
(**) أبى العيناء : محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمى ، أديب فصيح من ظرفاء العالم ، اشتهر بنوادره ، ولطائفه ، حسن الشعر ، مليح الكتابة (١٩١-٢٨٣هـ) .
الاعلام ٣٣٤/٦ .
(***) الغلابى : محمد بن زكريا بن دينار ، مولى بنى غلاب ، اخبارى امامى ، من أهل البصرة ، من كتبه أخبار فاطمة
الاعلام ١٣٠/٦ .
(****) البسامى : على بن محمد بن نصر بن منصور أبو الحسن شاعر هجاء من الكتاب ، عالم بالادب والأخبار ، من أهل بغداد ، نشأ فى بيت كتابة (٢٣٠-٣٠٢هـ) .
الاعلام ٣٢٤/٤ .

والصولى أبو بكر ، كان شديد الولع بالشعر والشعراء ،
وتماثيفه فى هذا المجال كثيرة ، وتدل على بالغ اهتمامه
بالشعر . ومن جهوده فى هذا المجال ، أنه رتب ونظم شعر أبى
تمام على الحروف الهجائية ، واعتنى بشعر أبى نواس مع
مجموعة من الفضلاء ، ورتب شعر ابن الرومى على الحروف
الهجائية أيضا .^(١)
^(٢)
^(٣)

والصولى كان فاهما لمعانى الشعر ، محيطا بأسرارها ،
نلمح ذلك من نقده لأحمد بن يوسف الكاتب فى سرقته لمعنى أبى
نواس حين كتب إلى الفضل بن الربيع يعزيه بوفاة الرشيد
ويهنئه بولاية العهد للأمين كتب يقول :

تعز أبا العباس عن خير هالك

بأكرم حى كان أو هو كائن

حوادث أيام تدور صروفها

لهن مساو مرة ومحاسن

وفى الحى بالميت الذى غيب الثرى

^(٤)
فلأنت مغبون ولا الموت غابن

وفيه يقول أبو نواس أيضا من جملة أبيات :

وليس على الله بمستذكر أن يجمع العالم فى واحد

قال الصولى فى نقده : "وقد أخذ أحمد بن يوسف هذا

المعنى وزاد عليه ، وكتب الى بعض اخوانه ، وقد ماتت له

ببغاء ، وله أخ كثير التخلف يسمى عبد الحميد :

(١) الوفيات ١٧/٢ .

(٢) المصدر نفسه ٩٦/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٣٥٨/٣ .

(٤) المصدر نفسه ٤١،٣٩/١ .

أنت تبقى ونحن طرا فداكا
أحسن الله ذو الجلال عزاك
فلقد جل خطب دهر أتاكا
بمقادير أتلقت ببغاك
عجا للمنون كيف أتها
وتخطت عبد الحميد أخاك
كان عبد الحميد أصلح للمو
ت من البغاء وأولى بذاكا
شملتنا المميين جميعا
(١)
فقدنا هذه ورؤية ذاك

واكتشاف المولى لهذه السرقة ، رغم خفاها ، يدل على
تمرسه ومعاشته للشعر لفظا ومعنى واحتمال السرقة قائم
لأن أبا نواس أسبق من أحمد بن يوسف وأشهر في قرض الشعر ،
وكل الأنظار كانت تتجه إليه أعجابا بما يقول .
أما الملكة الشامية التي اكتسبها مع كثرة مطالعته
الشعر ، فهي انشاء الشعر ، رغم أنه لم يشمر بها ، ولم يمل
الى مكانة قريبه إبراهيم الصولي ولم يقاربه ، وذكر
البغدادى في تاريخه بعض أبياته منها قوله بداهة :
إذا شكوت هواه ، قال : ماصدقا
وشاهدُ الدمع في خدي قد نطقا
ونار قلبي في الأحشاء ملهبة
لولا تشاغلها بالجسم لاحترقا

(١) الوفيات ٤/٣٩٠ ، ٤٠٠ .

ياراقد العين لا تدرى بما لقيت

عين تكابد فيك الدمع والارقا

يكاد شخصى يخفى من ضنى جسدى

(١)
كأن سقى من عيذك قد سرقا

أشرت فيما مضى الى أن المولى كان مولعا بتتبع أخبار
الناس ومنها استطاع تصنيف كتبه ، وهى كلها من سماعه كما
ذكر هو ، منها ما أورده صاحب "الوفيات" وصاحب "معجم
الأدباء" .

"كتاب الوزراء ، وكتاب الأوراق ، وكتاب أدب الكتاب ،
وكتاب الأنواع ، وكتاب أخبار أبى تمام ، وكتاب أخبار
القرامطة ، وكتاب أخبار الغرر ، وكتاب أخبار أبى علاء ،
وكتاب العبادة ، وكتاب أخبار ابن هرمه ، وكتاب أخبار
السيد الحميرى ، وكتاب أخبار اسحاق بن ابراهيم" (٢) .

وجمع أشعار جماعة من الشعراء ، ورتبها على حروف
المعجم ، وكلهم من الشعراء المحدثين كما ذكرت ذلك فى
تبيان جهوده الأدبية .

ومن مصنفاته أيضا كتاب الأوراق فى أخبار آل العباس
وأشعارهم ، وكتاب أخبار ابراهيم بن المهدي ، وكتاب الحلاج
وشعر أبى نواس والمنحول عليه ، ووقعة الجمل (٣) .
ومنها أيضا (كتاب الشطرنج) ، وسنذكر ان شاء الله
ولعه بلعب الشطرنج ، وآراء معاصريه فى ذلك .

(١) تاريخ بغداد ٤٣١، ٤٣٠/٣ .

(٢) ابن خلكان ٣٥٧، ٣٥٦/٤ ، ياقوت الحموى ١١١/١٩ .

(٣) الأعلام ١٣٦/٧ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣٨٨/١٤ .

ولعل أشهر مصنفاته (كتاب الأوراق) ، يقول صاحب
"الفهرست" ان شهرته بدأت من كتابه هذا .^(١)

غير ان صاحب "الفهرست" يطعن في أمانة المولى ، ويرى
أنه عول في تأليفه على كتاب "المرثدي" بل يتهمة أشد
الاتهام حين يقرر بأنه نقله نقلا ، وانتحله .^(٢)

وأخيرا (صاحب دائرة المعارف الاسلامية) لايعده من
المؤرخين المبرزين أصحاب المواهب ، ويعده من الممنفين ،
يقول :

"ولايستطيع في جميع الاحوال أن يميز كتابه من كتاب
غيره ، على أن ذلك لايمس ماكان له من أثر في عالم
التأليف"^(٣) .

الشطرنج .

كان المولى مغرما بالشطرنج ، تفوق فيه ، وأكسبه شهرة
قربته من الخاصة كالخلفاء . يقول ابن خلكان في وصف موهبته
هذه :

"كان المولى أوحده زمانه في لعب الشطرنج ، لم يكن في
عصره مثله في معرفته والناس الى الآن - أى الى زمن ابن
خلكان - يضربون به المثل في ذلك ، فيقولون لمن يبالغون في
حسن لعبه (فلان يلعب الشطرنج مثل المولى)"^(٤) .

(١) ابن النديم ، الفهرست ص ١٥٠ ، دائرة المعارف الاسلامية

٣٨٨/١٤ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست ص ١٥١، ١٢٩ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ٣٩١، ٣٩٠/١٤ .

(٤) الوفيات ٣٥٧/٤ .

ومن الآراء التى قيلت فى هذا الجانب من حياة المولى
ماحكاه المسعودى قال :

"أتى الامام الراضى بالله فى بعض منتزهاته بستانا
مونقا ، وزهرا رايقا ، فقال لمن حضره ممن كان من ندمائه :
هل رأيتم منظرا أحسن من هذا ؟ فكل أشنى ، وذهب فيه الى
مدحه ، ووصف محاسنه ، وأنها لايفى بها شيء من زهرات الدنيا
فقال الراضى لعب المولى بالشطرنج أحسن من هذا ، ومن كل
ماتصفون" (١) .

وهو رأى جميل ، والشطرنج كان عاملا قويا فى تقريبه من
ال خلفاء ، واحتل به منزلة رفيعة عندهم ... أقام المكتفى
فى حضرته مباراة جمع فيها المولى والماوردى وانتصر فيها
المولى فأعجب به المكتفى ، وعرف قدراته ومواهبه ، فقدمه
عنده ، وكان قبل ذلك معجبا بالماوردى . (٢)

والعجيب أن لعب الشطرنج كان يجد له أشياء من الخاصة
كالخلفاء وعلية القوم والعلماء ومن شاكلهم ، والمولى كان
واحدا من أولئك الذين أتقنوه وبرزوا فيه ، ولقى من ورائه
خيلا كثيرا ، والتماقا بالخلفاء كما مر .

(١) مروج الذهب ٣٢٤/٤ ، معجم الادباء ١١٠/١٩ .
(٢) المسعودى ، مروج الذهب ٣٢٤/٤ .

الفصل الثاني

نشرهم الفني ، وسماته

(أ) الرسائل

(ب) التوقيعات

(ج) الاقوال

نهضت هذه الأسرة بالنشر الفنى ، ونهض بها ، أعطته جل اهتمامها ، وأولته فائق عنايتها ، فأعطاه المجد والسؤدد وقربها من بلاط الخلفاء ، فعاشت ترفل فى نعيم الحياة بسببه .

ويمكن للباحث أن يفتش عن دوافع اتجاه الموليين الى النشر ، ولعلها لا تخرج عن :

(أ) ادراكها - وهى تنسب الى غير العرب - أن طريقها الوحيد للظهور سيكون من بوابة الادب ، وعلى وجه الخصوص الاهتمام بالنشر الفنى لغة الحضارة ، والنضوج الفكرى لاسيما أن الخلافة العباسية فى أمس الحاجة الى جهود (الكتاب الافذاذ) وذلك بعد ترامى أطرافها .

(ب) الدافع الثانى (الموهبة) لا يمكن اغفالها بحال من الأحوال ، فهى مع الطموح تمنعان من الانسان فذا لانظير له ، وقد تحقق فى الموليين الموهبة والطموح .

(ج) كانت تنظر الى البرامكة وآل سهل على أسام من المثالية ، فهما القدوة ، فاقتفت طريقتهما ، وتلمست معالمها ، حتى وصلت الى مكانة مرموقة فى الدولة .

(د) كان لهذه الأسرة تاريخ عظيم فى جاهليتها ، فلم تكن تحب أن تعيش فى عصرها هذا على هامش التاريخ ، فكان ذلك دافعا قويا للاتجاه صوب النشر ، لاسترداد جزء من مكانتها .

فهذه جملة دوافع جعلت الموليين يتجهون كلية الى النشر وفنونه .

فنون النشر عند الصوليين .

تشعب نشرهم الفنى وخاض فى كثير من فنون القول ،
ويأتى فى طبيعتها (الرسائل) وهى - كما قدمت - لون من
ألوان النشر الفنى ، له أصوله وبداياته وأقسامه المتعارفة
وقد ألمحت فيما مضى ، الى رسائل الرسول - صلى الله عليه
وسلم - الى بعض الملوك يدعوهم فيها الى الدين الحنيف .

بل ان الرسائل قد وجدت قبل ذلك عند الجاهليين ،
فهناك رسائل مدونة ذكرتها المصادر والمراجع الأدبية .^(١)

وهكذا شاع هذا الفن وتدرج حتى وصل الى قمة النفع
الفنى فى العصر العباسى ، ولاشك فى أن البيئة العباسية بما
اشتملت عليه من تحضر فى شتى شئون الحياة ، كان لها الأثر
الكبير فى ازدهار الرسائل وتطورها ، وذلك بتعدد أغراضها ،
واختلاف اتجاهاتها ، وعمق معانيها .. لأنها انعكاس صادق
لكثير من أحداث المجتمع العباسى ، فالمحرك لها والدافع
لأنشائها الأحداث أيا كانت .

وعلى ضوء هذه الحقيقة تباينت أغراض الرسالة عند آل
صول ، فمنها ما هو رسمى يمدد عن الديوان فى أمور تخص سياسة
الدولة ، فالرسالة فى هذه الحالة تكون أداة مهمة لحمل
سياسة الدولة ، وقضاء احتياجاتها فى أمر ونهى ، وتعيين
واقالة الى آخر ماتقتضيه سياسة الدولة ، ونظام الحكم .

ومثل هذه الرسائل يقل فيها عطاء الموهبة والافتنان
غالباً ، وكثيراً ما يميزها وضوح الفكرة ، ومباشرتها

(١) غانم جواد رضا ، الرسائل الفنية فى العصر الإسلامى
ص ٣٠ ومابعدا .

واشباعها ، وهى تراعى التقاليد الحكومية ، والدقة فى الامر والنهى وغيرهما ، وغالبا مايميزها الطول لما فى ذلك من تفصيل الامور التى يحترز من وقوع الاشكال حولها مما لاحتتمله سياسة الدولة .

أما (الرسائل الاخوانية) فقد شاعت فى أدب آل مول وهى من افرازات المجتمع المتحضر ومن متطلباته ، ولعل مرد نشوء الرسائل الاخوانية يعود كما ذكر غانم جواد رضا الى "اتساع نطاق الفتوحات الاسلامية واستمرارها ، وماتباع ذلك من استقرار العرب المسلمين واستيطانهم فى تلك البقاع النائية التى فتحوها ، يضاف الى ذلك تباعد بعضهم عن بعض ، فكان ذلك حافزا قويا لتبادل الرسائل الخاصة بينهم ، فشرعوا يكتبون رسائل الاشواق التى يبشون فيها مايعتلج فى نفوسهم من حنين وتطلع الى لقاء " (١) .

وعلى كل فهذا الدافع ليس كافيا لنشوء هذه الرسائل ، بل ان هنالك ما هو أهم منه وأجدر بالمتابعة ، فهذا النوع من الرسائل يمثل الطفرة الحضارية والفكرية والادبية فى الحياة العباسية المترفة ، والا فبماذا نفسر انشاء هذه الرسائل بين الامدقاء وهم فى مدينة واحدة ، وربما كانا متجاورين لاتباعد بينهم فى المسافة .

وتناولت هذه الرسائل الكثير من الشئون الاجتماعية - مادة هذه الرسائل - من تهنئة ، وتعزية واستعطاف ، وعتاب ومدح ... الى آخر مناهل هذه الرسائل وروافدها .
وأبرز مايميزها ، التحرر من القيود ، ويجد فيها

(١) الرسائل الفنية فى العصر الاسلامى ص ٢٩٢، ٢٩٣ .

القارئ المرتفع الخصب واللمسات البيانية الابداعية ،
وتتجلى فيها السمات الادبية التي تندر في غيرها ، لانها
تصدر من يد الى يد ، اذ ينعدم التكلف بين الائداد ، وذلك
هو الحافز في تحليقها في جو الابداع والجمال .

الرسائل الاخوانية .

يأتى في مقدمة آل مولى ، ابراهيم المولى فقد أكثر من
هذا اللون ، وتعددت مقاصده وفقا لمقتضيات الأحوال .
فمن رسائله هذه ما كان في (الاستعطاف والعتاب) ،
و (الاستنجاد) ، و (شكوى الزمان) ، ومنها (التهانى والتعازي)
على لسانه ، وعلى ألسنة الخلفاء وولاة العهد .

(أ) الاستعطاف :

قبل أن ندلف الى مطالعة هذه الرسائل ، يجدر بالباحث
أن يشير الى سبب هذه المناقرة بين الكاتب وابن الزيات ،
التي كانت الدافع القوي ، والمذهل العذب وراء انشاء هذه
الاستعطافات ، يذكر أبو بكر المولى في كتابه "أدب الكتاب"
الى أن ابن الزيات قد انتقم ابراهيم المولى عما يستحقه من
الدعاء ، فلم تحتمل نفسه ورياسته وموضعه من الصناعة
والدولة ، فعاتبه في ذلك فلم يعتبه ..^(١)

وابراهيم يشير الى ذلك في كلام له جاء فيه : "... ولى
هذا الأمر فما ظن أن الرياسة تنجذب لإلاليه ... ولا أن العز
يتحمل له إلا بحط اخوته عن منزلتهم ونقصهم عن مرتبتهم ،

(١) أدب الكتاب ص ١٦٠ .

فبخسنى فى المكاثبة ، وأسأئنى فى المعاملة ... " .
كتب إبراهيم الى ابن الزيات بعد عزله عن الأهواز ،
وبعد أن حجب عنه :

"جُعلتُ فداءك ، بالحنين وقعت ، والا فمن كان أعز بحالة
رضيتها فى نفسه وعند اخوانه منى ؟ ومن كان واحدك اذا حصلت
واحدا ؟ وواحدى اذا خفت من زمان نَبُوة ؟ أما والله لو
أمنُّتْكَ لقللت ، ولكنى أخاف منك حالة لا تحتملها لى ، وأتوقى
منك عتبا لا تنصفنى فيه ، وما قدر فقد كان ويكون ، وعن كل
حادث أبدوثة ولا أقول والله - أعزك الله - انى غلطت على
نفسى ، فتبدلت بحالة كنت مغبوطا فيها ، حالة أنا فى
مكروهما ، بل أقول : انى قُهرتُ ، فلما قزعت الى ناصرى الذى
كنت أعد ، وجدت من قهرنى أقل نية فى ظلمى ، ممن استنصرت
فى نمرى ، وتسببت للمقادير أسبابها ، وتجلت عما تجلت عنه
فى امرى ، وأحمد الله وأشكره " .

وكتب فى آخرها :

(*)
وكنْتَ أخى باخاء الزمان فلما نبا صرت حربا عوانا
وكنْتَ أذمَّ اليك الزمان فأصبحت منك أذم الزمان
(١)
وكنْتَ أعدك للنائبات فهانا أطلب منك الأمانا

والظاهر أن هذه الرسالة رغم ما اشتملت عليه من خضوع ،
واستعطاف ، وصدق فى الاحساس والاعتذار تارة ، والعتب أخرى
الا أنها لم تحرك مشاعر ابن الزيات ولم تغير من موقفه
العدائى تجاه المولى ، وهذا ما جعل الكاتب يعيد الكرة

(*) فى الطبرى ١٦٠/٥ فلما نبا عدت حربا عوانا .
(١) الجمهرة ٤/٣٩ ، الأغانى ٥٦/١٠ مع نقص فيها .

مرارا طمعا فى تحريك مشاعره ، ونيل رضا ، ورضا غيره ممن كانوا يخافون سطوة ابن الزييات فيمما لو نصرخوا المولى وأعانوه .

كتب أيضا ، وقد بلغ به الاذى كل مبلغ من أثر هذه القطيعة ، وما سببته له من آلام أصابته فى مقتل ، فهجره الأصدقاء ، وتخلّى عنه الأصحاب ، خوفا من ابن الزييات وتحسبا منه ، وكثر أعداؤه ارضاء للوزير ، وتقربا منه .

"كتبت وقد بلغت المديّة المحز ، وعدت الأيام على بعد عدواى بك عليها وكان أسوأ ظنى ، وأكثر خوفا ، أن تسكن فى وقت حركتها ، وتكفّ عند أذاتها فصرت أضرب على مذهبها ، فكف المديق عن نصرتى خوفا منك ، وبادر إلى العدو تقربا اليك .

وكتب تحت ذلك :

أخُ بينى وبين الدهـ	ر صاحب أينا غلبا
مديقى ما استقام وان	نبا دهرى على نبا
وثبت على الزمان به	فعاد به وقد شبا
ولو عاد الزمان لنا	لعاد به أخا حديبا (١)

هاتان الرسالتان ، تمثلان حالة ابراهيم المولى التى عاشها فى مرحلة من حياته ، فهى انعكاس صادق لواقع مؤلم .. حاول الكاتب جاهدا الفكاك منه بما حياه الله من قدرات بيانية ضمنها هذه الاستعطافات الا أن شيئا من ذلك لم يغير

(١) معجم الأدباء ١٧٠/١ ، ١٧١ ، الأغاني ٥٦/١٠ مع تغيير فى بعض الألفاظ .

من واقع حياته شيئاً .

ويقينى لو أنها وجهت لغير ابن الزيات لأعملت فيه مفعولها ، لما اشتملت عليه من صدق الاحساس ، وقوة العاطفة فالرسالتان تخبران القارئ حالة حل بها الكاتب بعد نعمة ، تستراوح الرسالتان بين الاستعطاف والعتاب بأسلوب شائق مؤثر ألفاظها امتازت بالسلاسة والسهولة ، لأن المقام لا يحتمل تفخيم اللفظ وغريبه .

ولأن مقصدهما استعطافى ، نجد جل ألفاظها تدور حول الخضوع والاذلال رغبة من الكاتب فى اظهار ضرره الذى حل به من قطيعة ابن الزيات له وأملا فى استدناء ابن الزيات واستمالة عطفه ، ونيل عفوه .

هذه الألفاظ الحزينة المكسوة برداء الكتابة هى السمة المجللة على الرسالتين ، وفى الرسالة الاولى لاتخرج ألفاظها عن (... الحين ... وقعت ... خفت ... نبوة ... لو أمنتك ... أخاف ... لاتحتملها ... أتوقى ... عتبا ... لاتنصفنى ... وغلظت ... فتبدلت ... كنت مغبوطا ... مكروهاها ... قهرت ... فزعت ... قهرنى ... ظلمى ... استنصرت ...) .

وهى تشى بالحالة النفسية السيئة التى عايشها المولى والضرر الذى حل به من وراء قطيعة الناس له .
والرسالة الثانية كالاولى من حيث ألفاظها ومعانيها ، فالأسى والحزن يخيما برداءه الأسود على ألفاظها ، وتتعمق معانيها مخبرة بحال الكاتب معبرة عما يختلج فى نفسه من آلام .

(... بلغت ... المحز ... أسوأ ظنى ... خوفى ... فكف ... نصرى ... خوفا ... بادر ... العدو ...) .

فالمولى تائق فى اختيار ألفاظه ومعانيه المؤثرة ،
 حسب المقام ، وهو ما يسمى بحسن التأتى ، وقد أبدع فيها^(١)
 الصولى ، وذيلهما الكاتب بآبيات من انشائه ، دفعا لمضمون
 الرسالة ، وتوكيدا لما جاء فيها وذلك لتجد مداها عند ابن
 الزيات وتعمل أثرها بما جند لها من مؤثرات ومن سماتها هذه
 الكناية البديعة ، يقول : "... وقد بلغت المدينة المحز .."
 فهو يجسم حجم مأساته ، ولاشك أن هذا التصوير الجميل قد
 أعطى من المعنى المؤثر الدقيق مالاتعطيه صفحات من الوصف
 والتحليل .

ويكثر الكاتب من الدعاء لابن الزيات تارة ، والحلف له
 تارة أخرى لتبرئة ساحته ، وهما من أساليب مثل هذه
 الرسائل .

وعلى كل فمعاناة الكاتب وقلقه على حياته ومستقبله قد
 أبرز قدراته الابداعية ، كما أبدع يحيى بن خالد قبله فى
 استعطافاته ، وهذا هو الابداع لا يأتى الا بعد معاناة .

ولما أعيته الحيلة ، وزاد عليه الكرب ، وانقطع أمله
 ورجاؤه من ابن الزيات اتجه ببعض رسائله الى بعض أصدقائه
 طلبا للمعونة والنصرة ، الا أنهم تخلوا عنه خوفا من سطوة
 ابن الزيات ، يقول فى كتابه الى عمرو بن فرج :

"ولست أعزك الله واحدا من عدد تحملهم وتقدمهم على
 نفسك فى أمرى ، أنا والله واحدك بالاسباب التى تجتمع لى
 فيك وبك ، ولا تجتمع فى غيرى ، من أخ ولا ولد ولا محب ، ولقد

(١) انظر ماكتبه القلقشنذى فى ذلك ١٦٥/٩ ، الرسائل
 الغنية ص ٢٩٥ .

كنت تدخرنى - أعزك الله - لطاعتك والوفاء لك ، فقد والله فعلت غير ممثن بذلك ، وقد كنت أرجو ألا أضم فى جيرتك ومعك فلاتخذلنى ، فانى فى حالة ان أخليتنى فيها من نصرتك لم يرجع على من ذلك مقدار فى نعمتى ونفسى ، الا رجع اليك أكثر (١)
منه فى نعمتك ، وقدرك ، والسلام " .

وهى لا تختلف فى كثير عن سابقتها ، فالألفاظ موحية ، والمعانى مؤثرة (... أضم ... تخذلنى ... أخليتنى ...) ، يميزها صدق العاطفة ، وتسلسل الأفكار ، ويغلفها نبرة الحزن والأسى من جراء صالحه من الذى .

وفى هذا المنسوخ الذى أحاط بالكاتب كتب فى شكوى الزمان :

"ياأخى أشكو الى الله واليك تحامل الأيام على ، وسوء أشر الدهر عندى . وانى معلق فى حبال من لا يعرف موضعى ، ولا يحلو عنده موقعى ، أطلب منه الخلاص فيزيدنى كلفا ، وأرتجى منه الحق فيزداد به ضنا ، فالشواء شواء مقيم ، والنية نية ظامن ، وبزمام الرأى مرتحل ، ماأذهب الى ناحية فى الحيلة الاوجدت دونها من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع الى الله بالشكر ، وأسأله جميل العقبى وحسن (٢)
الصبر" .

لايزال الكاتب يعانى من مأساته ، يبحث فى هذه الرسالة ما يخلج فى صدره من ألم القطيعة ، من هجر الأصدقاء والأصحاب .

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ٣٨/٤ .
(٢) د . نبيه حجاب ، بلاغة الكتاب ص ٩١ .

والصولى يحمل الزمان تبعة ماحل به ، فيصوره بصورة
وحسن أحكم قبضته عليه قلم يدع له مجالا للنفاذ .

(ب) التهنئة والتعزية :

وهما من أغراض الشعر من قبل ، نقلها الكتاب الى
النثر بجدارة واحكام ، واستطاعوا من خلالها مشاركة اخوانهم
فى أفراحهم وأحزانهم ، وهذا المقصد من الرسائل الخاصة
دليل رقى الحياة العباسية وترفها ، ولهذين الغرضين صدى
مدوٍ فى رسائل المولىين .

كتب عمرو بن مسعدة الى الحسن بن سهل على لسان
المأمون يهنئه بمولود :

"أما بعد ، فان هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين ،
وزيادته اياك فى عددك زيادة له فى عدده ، لمحك عندده ،
ومكانك من دولته ، وقد بلغ أمير المؤمنين ، أن الله وهب
لك غلاما سوريا ، فبارك الله لك فيه ، وجعله بارا تقيا ،
(١)
مباركا سعيدا زكيا" .

يظهر للباحث من الرسالة :

(١) مكانة الحسن بن سهل فى دولة المأمون وقد مر ايضاح
ذلك فى مكانة من البحث ، وأكدده عمرو على لسان
ال خليفة هنا .

(٢) التهنئة بالولد مظهر اسلامى ، وأثر من آثاره ، وهى
دليل على اللفة بين الناس .

(٣) تأخذ مثل هذه الرسائل طريقة تكاد تكون موحدة فى معظم

رسائل التهنئة بالولد ، فيوضح الكاتب أن هبة الله للحسن هي هبة للخليفة نفسه ، لمكان الحسن من الدولة . ثم يدعو لسلامه بالملاح والسعادة .

(٤) لم تعين الرسالة بالصور الفنية ، ولعل ذلك يعود الى أنها أخذت الصفة الرسمية لأنها على لسان الخليفة الى عامل من عماله في الدولة (الحسن) ، وسفري البون الشاسع بين هذه الرسالة وأخرى للكاتب نفسه ، كانت مشبعة بغنون البيان والابداع ، لأنها كانت من الاخوانيات (الشخصية) الخالصة شكلا وموضوعا . ويتطلب المقام أحيانا التهنئة والتعزية في آن معا ، كما في رسالة ابراهيم الصولى الى الواثق يعزيه بأبيه ، ويهنئه بالخلافة .

كتب :

"ان أحق الناس بالشكر من جاء به عن الله ، وأولاهم بالصبر من كان سلفه رسول الله ، وأمير المؤمنين - أعزه الله - وآبأؤه - نصرهم الله - أولو الكتاب الناطق عن الله بالشكر ، وعثرة رسوله المخصوصون بالصبر ، وفي كتاب الله أعظم الشفاء ، وفي رسوله أحسن العزاء ، وقد كان من وفاة أمير المؤمنين (المعتصم بالله) ومن مشيئة الله في ولاية أمير المؤمنين (الواثق بالله) ، ماعنا عن أوله آخره ، وثلاقت بدأته عاقبته ، فحق الله في الأولى الصبر ، وفرضه في الأخرى الشكر فان رأى أمير المؤمنين أن يستنجز ثواب الله بصبره ، ويستدعى زيادته بشكره ، فعل ان شاء الله تعالى

(١)
وحده " .

(١) الحموى ، معجم الأدباء ١/١٨٩ ، ١٩٠ ، أحمد صفوت ،
الجمهرة ٤/٣٦ ، ٣٧ .

يظهر فى هذه الرسالة مواساة الواثق بوفاة أبيه
المعتصم ، وتهنئته بالخلافة ويغلب على هذه الرسالة نبرة
الحزن لما اشتملت عليه من :

(أ) وعظ وتذكير كما فى قوله : "... وأولاهم بالصبر من كان
سلفه رسول الله ، وأمير المؤمنين ... عترة رسوله
المخصوصون بالصبر " .

أبان الكاتب مكانتهم من رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وما يجب عليهم من الاقتداء برسوله صلى الله عليه
وسلم فهم أولى الناس بالتحلى بالصبر ، لقربهم منه .

(ب) وتوجيه وإرشاد ، فالكتاب يوجه الواثق الى كتاب الله
لتلخيص الشفاء (... وفى كتاب الله أعظم الشفاء ..) .
وقد اقتضت مراسم الدولة العباسية مواساة قوادها
وعمالها المبرزين ، ولأن الصولى كان كاتباً لكثير من
الخلفاء وولاة العهد ، رأينا له سبلاً من المراسى ، لا يمكن
حصرها ، موجهة الى عليّة القوم ، منها رسائله الى طاهر بن
عبد الله ، كتب عن المنتصر بالله المتوكل ، الى طاهر
بعزيه عن محمد بن اسحق .

"أما بعد ، تولى الله توفيقك وحياطتك ، وما يرتضيه
منك ويرضاه عنك ، ان أفضل النعم ثلثيتُ بحق الله فيها
من الشكر ، وأوفر حادثة ثواباً حادثة أدّى حق الله فيها من
الرضا والتسليم والصبر ، ومثلك من قدم ما يجب لله عليه فى
نعمة فشكرها ، وفى مصيبة فإطاعه فيها ، وقد قضى الله
سبحانه وتعالى فى محمد بن اسحق مولى أمير المؤمنين - عفا
الله عنه - قضاءه السابق والمتوقع ، وفى ثواب الله ورضا

أمير المؤمنين - أدام الله عزه ، وتقديماً ما يقدم مثله أهل
الحجا والفهم ، ما اعتاضه معتاض ، وقدمه موفق فليكن الله
عز وجل ، وما طعته به ، وقدمت حقه فيه أولى بك فى الأمور
كلها ، فأنك ان تتقرب اليه فى المكروه بطاعته ، يحسن
ولايتك فى توفيقك لشكر نعمه عندك" .^(١)

وأردف برسالة أخرى عن المعتز ولى العهد الى طاهر بن
عبد الله أيضا ، فى محمد بن اسحق ذاته ، كتب :
"فان أولى حق خصمتُ به وقدمتُ ، حَقك ، بمحك الذى أُجِلُّ
به ، ومكانك الذى لسك عندى ، ولله عليك نعمة أنت حقيق
بشكرها ، واستراء فريدة بها ، والله فى خلل نعمه مُلَمَّات ،
مثلك قدم طاعته فيها فرضى مستدعيا بالرضا شوابه ، وسلم
مستدعيا بالتسليم ما يقربه منه ، وقد قضى الله عز وجل فى
محمد بن اسحق قضاءه الآتى على ماضى ، والمكتوب على مابقى
حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، فارض
بشواب الله عوضا من مصيبتك ، وارجع الى ما وهب لك من
خليفته - أدام الله تأييده - من ايثاره واختصاصه ، فاجعل
ذلك أولى ما عزاك عن مضائيك ، وقدمت به الشكر فى حق الله
عنيك ، واستصحب فى أمورك كلها نية الشاكر عند النعمة ،
والراضى عند المحنة ، تزد وتكف ان شاء الله" .^(٢)

وكتب عن المؤيد فى عزاء محمد بن اسحق أيضا :
"فان من حق الله على أهل النعم تقديم طاعته عند
مما ثبتهم ، والتقرب اليه فيما يعرفهم منها بالرضا والتسليم

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ١٥٩/٤ .

(٢) المصدر السابق ١٦٠، ١٥٩/٤ .

وقد قضى الله عز وجل فى محمد بن اسحق - عفا الله عنه - قضاءه فى جميع خلقه حتى يبقى ويرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، فتلق - أمتع الله بحسن توفيقك - قضاء ربك بالتسليم له ، وتعز عن مصابك بطاعته ، فإن مثلك من اكتفى بما فهم ، من أن يعزى ، واستغنى بما علم ، عن أن يوعظ ان شاء الله ، والسلام" .^(١)

فهذه رسائل ثلاث للكاتب نفسه ، فى عزاء عبد الله بن طاهر عن المنتصر بالله المتوكل وعن المعتز ، وعن المؤيد . ومنها يمكن للباحث استنتاج مايلى :

(أ) تنتهج هذه الرسائل منهجا شبه موحد ، وتأخذ أسلوبا متقاربا فى عزاء ابن طاهر فى وفاة محمد بن اسحق . فلا تكاد تجد مزية فى رسالة عن الاخرى ، ولعل مرد ذلك عائد الى كثرة رسائل المولى فى عزاء ابن طاهر ، والى كونها رسمية من حيث موقع صدورها وهذان عاملان يحدان الكاتب عن مشاركة عبد الله بن طاهر فى قتل ابن اسحاق مشاركة وجدائية نابعة من عاطفة صادقة .

لذا يرى الباحث أن انشاء مثل هذه الرسائل لا يعدو أن يكون واجبا وارضاء لابن طاهر لخطر موقعه فى الدولة .
(ب) تنحو هذه الرسائل فى عزاء ابن طاهر الى عناصر واحدة لا تختلف :

١ - الحز على التسليم بالقدر ، والصبر على ذلك ، ويشير الكاتب الى ضرورة الموازنة بين الاخراج والاتراج ، فكما يتوجب شكر الخالق عند النعمة ،

يتوجب أيضا الصبر والتسليم والرضا عند المحن والنوازل .

٢ - يعمد الكاتب الى تسليية ابن طاهر بتذكيره بمنزلته الرفيعة عند أمير المؤمنين وبما وهبه الله من نعم .

٣ - لم يكن التشابه فيما سبق من وسائل محصورا في معانيها وعناصرها فحسب بل جاوزته الى الاشتراك اللفظي أحيانا ، من مثل اشتراك الرسالتين الأخيرتين في قوله : ... حتى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ... وغيرها من اللفاظ والتراكيب المتقاربة .

وهكذا نجد ابراهيم المولى برسائله هذه ، يشارك غيره الاحزان ، ويشاطرهم في المصاب وهذه المشاركات الوجدانية تزيد من أسهم المداقة ، كتب عن نفسه الى طاهر بن عبيد الله يعزيه :

"أما بعد ، فان أحق من أُرضى الله في نعمته بشكره ، وفي مصائبه بالتسليم له ، من فهم صافى شكر النعم من استدعاء تمامها ، ومافى التذلل من استحقاق رضوانه ، وقد جعل الله محلك من الحالتين جميعا محل المتقدم بنيته ومعرفته ، والله يمتع أمير المؤمنين فيك بمالح قسمه فيمن مفى ، والجارى على من بقى ويبقى ، حتى يؤدى الفناء الذى لابقاء معه ، الى البقاء الذى لا فناء بعده .

وأمير المؤمنين يعظك بالله ، وهو أحق من وعظ به ، ويرشدك من ايشار الله لما نديك له منه ، وسهل لعظيم نعمته

عليك فى هذه النازلة ، بما صحب به على بن طاهر مولى أمير المؤمنين أيامه ، ومضى عليه من بصيرته وطاعته فقدم حق الله عليك بطاعته له فيما أمرك به ، واثق الله فى مواقع أقداره بك ، تقتضى بذلك من ثواب الله أفضل عوض الصالحين ، وبارك الله لعل فيما أصاره اليه ، وأحسن الله لما قربك منه توفيقك ، وعلى أرضاه عنك عونك ، والسلام" (١) .

لازال الكاتب يدور حول فكرة الفناء والبقاء ، ليميل منها الى تهوين أمر الدنيا فى عين طاهر بن عبد الله وأخذ العبرة من موت هؤلاء .. فالبقاء لله وحده .

وهذا المسلك من المناسب ذكره فى رسائل العزاء ، غير أن ابراهيم الصولى اتخذ ديدنا له فى جل رسائله ان لم يكن كلها .. وهو مدخل مهم لتهدئة النفس وترويضها بالاضافة الى تذكيرها بالمصير الذى ستؤول اليه .

ومن سمات رسائل العزاء عند الصولى الإشارة الى أن الشكر عند النعمة توازى الصبر عند المحنة ، لأنها من عند الله عز وجل ، وهو بذلك يريد النفاذ الى نفس الإنسان وتذكيرها بحقيقة الأمر ، فكما يستحب الشكر عند النعمة ، يستحب - أيضا - الصبر عند المحنة .

وهذه المرثية تلامس النفس الجريحة الباكية وتلاطفها بالعظات ، وتخفف من هول النازلة وهى فى كل ذلك تشد من أزر عبد الله بن طاهر وتحثه على اكتساب فضيلة الصبر وشوابه . ولازال الخبير بعلات النفس البشرية - ابراهيم الصولى - يضمن جراح عبد الله بن طاهر فى صديق آخر هو اسحاق بن ابراهيم ، كتب اليه :

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ٤/ ١٦٠، ١٦١ .

"أما بعد ، فإن الله عز وتعالى توحيد بتقدير عباده ،
وامضاء ارادته فيهم ، وجعل لكل منهم نهاية اليها يجرى بهم
منقلبهم ومتصرفهم ، فإذا جاء أمر الله ، وانقضت مدة
البقاء ، سعد أهل الحق بحقهم ، وكانت العاقبة للمتقوى ،
وخسر الملحدون .

وان اسحاق بن ابراهيم مولى أمير المؤمنين - أبقاه
الله - وأحسن سعيه وعمله ، كان عبدا من عباد الله أيد
الله به خلفاءه ، وخليفته كنف ، فصحب عمره ذابا عن دين
الله ، محافظا عليه ، مطيعا لله فى حقه ، ناصرا له متقربا
الى الله فى خلفائه بما يرضاه منهم ، ويرضيهم به عنه ،
الى أن قبضه الله على أحسن حالاته التى تسره ، أيام لقائه
من طاعة ومفاسحة وإخلاص عمل فكانت المصيبة به - عفا الله
عنه - مصيبة خَصَّ أمير المؤمنين موقعها ، ثم وصلت من بعد
أمير المؤمنين الى من وصلت اليه فيك من ولده وأهله .

وأمير المؤمنين يعزى نفسه عن اسحق بما سبق من اختيار
الله له فى مثله من أوليائه وذوى اخائه ، ثم يعزى عنه
إذا كانت مصيبتك به أولى مصائبك بأن ترمضك جلالة وموقعها ،
وأولى مصائبك بأن يعزى فيك فيها إذ كنت منها بين شواب الله
ورضا خليفته ، ولو استغنى ذو نازلة ومصيبة عند أمير
المؤمنين عن تعزيتة بفضل ما جعله الله عنده ، كنت بما منحك
الله عن ذلك غنيا ، ولولا أن أمير المؤمنين أوجب لك حق
التعزية ، لكان فى علمه ما أغناه عن تناولك بها . متع الله
أمير المؤمنين بك ، ووفقك لرشدك بهذه النازلة الواقعة بحق
الله فيها عليك ، وارض شواب الله منها عوضا ، وما جعل الله

لك عند أمير المؤمنين خلقا كريما ، وقعت به مقادير الله من ذلك ، بحيث اختار المطيع لربه ، والمقدم لغده ، والراضى مارضى الله له عند انتهاء الخبر اليك ، مؤيدك^(١) ومسددك .

(١) القضاء والقدر عنصران تتمحور حول كل رسائله السابقة ، وهى توطئة ممتازة لتذكير الانسان بمصيره المحتوم .. وعليه الايغتر بمباهج الحياة لانها الى زوال ، وان يؤمن بقدر الله ، وتسكن اليه نفسه .

(٢) عظم فقد اسحاق بن ابراهيم ورثاؤه بذكر محاسنه ومزاياه ، ومنها يتضح قدره عند الخليفة ومكانه .

(٣) الدعاء لطاهر بن عبد الله والتخفيف عنه من هول الفجيرة .

وهى عناصر تكاد لاتخلو منها رسالة من رسائله ... ويحسن القارئ معها بهوان الدنيا وقصرها ، وبالاخرة وديمومتها .

(٤) ومن سمات هذه الرسالة بالاضافة الى طولها هذا الحسن الخفى الذى يتعمق فى النفس وينتشلها من أوهام البقاء وتصحو معه النفس مرتدة الى الصبر والرضى .

وهكذا تخطو جل مرثياته تعالج النفس الباكية وتبصرها - فى غمرة ذلك - بمصيرها المحتوم ، وعندئذ تهدأ وتطمئن للقضاء والقدر .

ومن مراثيه ، رسالته الى عبد الرحمن بن خاقان يعزيه فى أبى زكريا يحيى بن خاقان :

(١) المرجع السابق ١٦١/٤ ، ١٦٢ .

"أما بعد ، فقد جرى من قضاء الله فى وفاة يحيى بن خاقان - على أحسن ما يتوفى عليه ذو طاعة ونصيحة وقيام بحق امامه وسلطانہ ورعيته - ماجرى على الأولين وهو جار على الآخرين ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وأمير المؤمنين يأمرك بالرجوع الى أمر الله ، والرضا بقضائه ، وتلقى النعمة برضا الله عن يحيى ، وما تبه من الدعاء ، وخلفه فى عقبه بما يستديمها به من الصبر والتسليم ، وبالشخص الى باب أمير المؤمنين اذا ورد عليك كتابه هذا ، بعد أن تخلف فى عملك من يقوم فيه مقامك ، منبسط الأمل ، منفسح الرجاء ، واثقاً بما يرضى أمير المؤمنين منك بنفسه فى طاعته وموالاته ، وأسبابك ، والسلام " .

ووقع أمير المؤمنين فى هذه التعزية :

"يا عبد الرحمن ، ثق بالله وبالذى عند أمير المؤمنين وطب نفساً ، ولا تحمل على نفسك من الغم ما لا ينفك ، لا بل يضرك ويغتم به أمير المؤمنين ، وهذا خط أمير المؤمنين اليك (١) والسلام " .

يتبادر الى ذهن الباحث بالحاج ، لماذا لم تختلف هذه الرسائل فى أكثر ألفاظها ؟ أو فى معانيها ؟ أو فى أسلوبها ؟ أو حتى فى العناصر التى سادت جميعها ؟ فيحقق كلها تحطت فى جبل واحد ، وتسير على نهج واحد ، ولا تختلف فى كثير أو قليل عن بعضها بعضاً فى الأغلب الأعم . وكأنى بها نموذجاً موحداً لا تختلف الا فى ذكر اسم

المتوفى ولعل مرد ذلك يعود الى كونها رسمية من حيث صلة المتوفى بالخليفة ، وصلة المرسل اليه أيضا ، فهي ديوانية المراسم والامول ، اخوانية الموضوع (التعزية) كما أشرت الى ذلك فى صفحات سابقة ، ولاشئ غير ذلك مطلقا ، فكانت لذلك تخطو فى طريق له أسسه وأصوله المتعارفة فخلت من التفاوت الأسلوبى والابداعى بين كل رسالة وأخرى .

ومن أجود ماكتبه ابراهيم الصولى ، رسالته فى قتل اسحاق بن اسماعيل :

"... وقسم الله عدوه أقساما ثلاثة : روحا معجلة الى عذاب الله ، وجثة منسوبة لأولياء الله ، ورأسا منقولا الى دار خلافة الله ، استنزلوه من معقل الى عقاب . وبدلوه آجالا من آمال ، وقديما غدت المعصية أبناءها ، فحلبت عليهم من درها مرضعة ، حتى اذا وثقوا فأمنوا ، وركبوا فاطمأنوا ، وانقضى رماع وآن طعام ، سقتهم سُماً فجرت مجارى ألبانها منها دما ، وأعقبتهم من حلو غذائها مرا ، ونقلتهم من عز الى ذل ، ومن فرحة الى ترحة ، ومن مسرة الى حسرة ، قتلا وأسرا ، وغلبة وقسرا ، وقل من أوقع فى الفتنة مُرَّجَا ، واقتحم لهبها مُؤَجَّجا ، إلّا استلحمتة آخذة بمخنقه ، وصوهنة بالحق كيده ، حتى جعلته لعاجله جزرا ، ولأجله خطبا ، وللحق موعظة ، وعن الباطل مزجرة ، أولئك لهم خزي فى الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر ، وماربك بظلام للعبيد" .^(١)

يبرز فى هذه الرسالة خصائص الكتابة الفنية وابداعها

(١) مروج الذهب ٣٨٣/٢ ، رسائل العرب ١٥٤/٤ ، معجم الادباء ١٩٤/١ مع نقص واضح فيها .

رغم تكلف الكاتب فى بعض أجزائها ، باعتراف الصولى نفسه ،
قال فى موضع آخر : "... ما اتكلت فى مكاتبتى قط الا على
ما يجلبه خاطرى ، ويجيش به صدرى ... الا قولى فى رسالة
- ويعنى هذه الرسالة - (فأنزلوه من معقل الى عقل ،
وبدلوه آجالا من آمال .. فانى ألعمت بقولى "آجالا من آمال"
بقول مسلم الأنصارى وهو :

سوف على مَهَجٍ فى يوم ذى رهج
كأنه أَجَلٌ يسعى الى أمل

وفى المعقل والعقال :
فان باشر الاصحار فالبيض والقنا
قِرَاءَةً ، وأحواضُ المنايا مناهله
وَأَنْ يَبْنِ حَيْطَانًا عَلَيْهِ فَانْمَا
أولئك عُقْسَلَاتُهُ لامعاقله
والا فاعلمه بآنك ساخط

(١) عليه فان الخوف لاشك قاتله

رغم ما أشار اليه الكاتب من تكلفه فى الجملتين الا أن
القارئ لها لا يحس بذلك ، ولا يغش من حسن موقعها فى
الرسالة .

ومن أبرز سماتها هذا التوزيع الموسيقى الأخاذ الحامل
من السجع تارة ، ومن التوازن أخرى ، فى مثل قوله : ...
قتلا وأسرا ، وغلبة وقسرا ... فحلبت عليهم من درها مرضعة
وبسطت لهم من أمانيتها مطمعة ... الى آخر ما تحلت به

(١) الحميرى ، زهر الآداب ١٠٩٠/٤ ، ابن خلكان ، وفيات
الأميان ٤٥٠٤٤/١ .

الرسالة من بديع الصياغة مما أكسبها روعة وجمالا .
 بدأ الصولى رسالته بهذا التقسيم الجيد "وقسم الله
 عدوه أقساما ثلاثة : روحا معجلة الى عذاب الله ، وجثة
 منسوبة لأولياء الله ، ورأسا منقولا الى خلافة الله " وهذا
 التقسيم من أجود الأنواع إذ لا تصور لها رابعا .
 ومن سماتها الأسلوبية أيضا ، اعتمادها على الاستعارة
 الممكنة لايمال المعنى وإيضاحه كقوله ... وقديما غدت
 المعصية أبناءها ، فحلبت عليهم من درها مرضعة ... ولم
 يغفل المطابقة فى بعض جوانبها بغية التأشير وإبراز
 المعنى ... من عز الى ذل ... من فرحة الى ترحة ... من
 مسرة الى حسرة .

وصفوة القول يمكن للباحث أن يقول أن الصولى مارس
 قدرته الفنية بما منحه الله من موهبة بيانية وإبداعية فى
 صياغة هذه الرسالة ، وقد أغناها بما قد تدرس به من فنون
 القول ومعانيه ، فأضفى عليها من طريقتة وأسلوبه شكلا خاصا
 وقالبا متميزا فهى تعج بالحياة .

والمواساة ليست خاصة فى عزاء الميت كما سبق ، لأنه قد
 يعتري الإنسان ضيق ويعروه كدر ، لأمر من أمور الدنيا ،
 فيثقل عليه ، ويحزنه ، فيحتاج الى وقفة المديق ومواساته ،
 كما ورد فى كتاب عمرو بن مسعدة الى بعض الرؤساء وقد تزوجت
 أمه ، فأساءه ذلك ، فكتب يواسيه :

"الحمد لله الذى كشف ستر الحيرة ، وهادانا لستر
 العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من عضل
 الأمهات ، كما منع من واد البنات ، استنزالا للنفوس الابية ،

عن الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرض لجزيل الأجر من استسلم
لواقع قضائه ، وعوض جليل الذخر من صبر بلائه ، وهناك الذي
شرح للتقوى صدرك ، ووسع فى البلوى صبرك ، والهمك من
التسليم لمشيبته والرضا بقضيته ، ماوفقك له من قضاء
الواجب فى أحد أبويك ، ومن عظم حقه عليك ، وجعل تعالى جده
ماجرعته من أنف ، وكظمته من أسف ، معدودا فيما يعظم به
أجرك ، ويجزل عليه ذخرك وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعلها ،
المنتظر من ارتصاصك بدفنها ، فتستوفى بها المصيبة ،
وتستكمل عندها المثوبة ، فوصل الله لسيدي مااستشعره من
الصبر على عرسها ، مايستكسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه
من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ماينعم به
عليه بعدها من نعمة ، معرى من نقمة ، ومايوليه بعد قبضها
من منحة ، مبرا من محنة ، فأحكام الله تعالى جده ، وتقدست
أسماءه جارية على غير مراد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار
لعباده المؤمنين ما هو خير لهم فى العاجلة ، وأبقى لهم فى
الآجلة ، أختار الله لك فى قبضتها اليه ، وقدمها عليه ،
ما هو أنفع لها ، وأولى بها ، وجعل القبر كفوا لها ،
(١)
والسلام " .

اختلفت هذه الرسالة كثيرا عن رسائل العزاء الأخرى ،
رغم أنها تتشارك فى عنصر المواساة .
والرسالة - كما هو ظاهر - تنحو منحى الطرافة
والفكاهة فى بعض أجزائها ، فعمرو بن مسعدة يحاول تسلية
معزيه والتخفيف عنه لما اعتراه من حزن وألم لزواج أمه

(١) ابن خلكان ، الوفيات ٤٧٦/٣ ، ٤٧٧ .

بهذا الأسلوب الطريف .

ولعل العرب كانت تأنف من زواج أمهاتهم . لذا كانت هذه المواساة من عمرو لذلك الرئيس بهذا النهج الفكاهي .. كما فى قوله : ... وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعلها ، المنتظر من ارتماضك بدفنها ، فتستوفى بها المصيبة ، وتستكمل عنها المثوبة ... ومثل ... وعوضه من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ... ثم ختمها بقوله : ... اختار الله لك فى قبضها اليه ، وقدومها عليه ماهو أنفع لها ، وأولى بها ، وجعل القبر كفؤا لها .

ولم يشأ عمرو أن يخرج عن موضوع رسالته حتى فى المقدمة ، بدأها بتحميد مناسب لما جاء فى طلبها ... الحمد لله الذى كشف ستر الحيرة ، وهادانا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من غفل الأمهات .. خلقت الرسالة فى أجواء الموسيقى ممثلة فى هذا السجع الرائع الذى يحس معه القارئ هذه السلاسة ، فلا أثر للتعمل فيه .

... قضاؤه ، بلائه ... مدرك ، مبرك ... أنف ، أسف ... بفعلها ، بدفنها ... فرشها ، نعشها ... نعمة ، نعمة .

(د) ومن مقاصد الرسائل الاخوانية فى أدب الموليين (العتاب والحض على المكاتبة) .

ومنها ماكتبه عمرو بن مسعدة الى صديق له ، يعتب عليه جفائه وتأخر كتبه سطر رسالة آية فى الروعة والجمال ، يقول فيها :

"وصل الى كتابك ، على ظمئ منى اليه ، وتطلع شديد ،

وَبَعْدَ عَهْدٍ بَعِيدٍ ، وَلَوْ مَنَى عَلَى مَامَسْتَنَى بِهِ مِنْ جَفَائِكَ ، عَلَى كَثْرَةِ مَا تَبَعْتَ مِنَ الْكُتُبِ ، وَعَدِمْتَ مِنَ الْجَوَابِ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا سَبَقَ إِلَى مِنْ كِتَابِكَ السُّرُورَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، أَنَسَا بِمَا تَجَدَّدَ لِي مِنْ رَأْيِكَ فِي الْمَوَاصِلَةِ بِالْمَكَاتِبَةِ ، ثُمَّ تَضَاعَفَ الْمَسْرَةُ بِخَبَرِ السَّلَامَةِ ، وَعَلِمَ الْحَالُ فِي الْهَيْئَةِ ، وَرَأَيْتُكَ بِمَا تَظَاهَرَتْ مِنَ الْإِحْتِجَاجِ فِي تَرْكِ الْكِتَابِ ، سَالِكًا سَبِيلَ التَّخْلُصِ مِمَّا أَنَا مُخْلَمٌ مِنْهُ ، بِالْإِغْضَاءِ عَلَى الزَّامِكِ الْحُجَّةِ فِي تَرْكِ الْإِبْتِدَاءِ وَالْإِجَابَةِ ، وَذَكَرْتَ شُغْلَكَ بِوُجُوهٍ مِنَ الْأَشْغَالِ كَثِيرَةٍ مُتَظَاهِرَةٍ مَمْلُةٌ لِأَجْشَمِكَ مُتَابَعَةِ الْكُتُبِ ، وَلَا أُحْمِلُ عَلَيْكَ الْمَشَاكِلَةَ بِالْجَوَابِ ، وَيَقْنَعُنِي مِنْكَ كُلَّ شَهْرٍ كِتَابٌ ، وَلَنْ تَلْزِمَ نَفْسَكَ فِي الْبَرِّ قَلِيلًا ، إِلَّا أَلْزَمْتَ نَفْسِي مِنْهُ كَثِيرًا ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أُسْتَكْثِرُ شَيْئًا مِنْكَ ، أَدَامَ اللَّهُ مَوَدَّتَكَ ، وَثَبَّتَ إِخَاءَكَ ، وَاسْتَمَاحَ لِي مِنْكَ ، فَرَأَيْكَ فِي مُتَابَعَةِ الْكُتُبِ وَمَحَادَثَتِي فِيهَا بِخَبْرِكَ ، مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ " .^(١)

رَقَّةُ الْإِلْفَازِ وَسَلَاسَتُهَا ، وَعَذُوبَةُ الْمَعَانِي وَتَدْفِيقُهَا ، مَعَ صَدْقِ الْعَاطِفَةِ ، وَدَفَاءِ الْمَشَاعِرِ سَمَاتٍ بَارِزَةٍ انْتَشَرَتْ فِي ثَنَائِهَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ .

وَالْعَتَبُ الرَّقِيقُ الْمَادِقُ يَغْطِي جُلَّ الرِّسَالَةِ بَلْ كُلِّهَا ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ ... وَذَكَرْتَ شُغْلَكَ بِوُجُوهٍ مِنَ الْأَشْغَالِ كَثِيرَةٍ .. لِأَجْشَمِكَ مُتَابَعَةِ الْكُتُبِ .. وَيَقْنَعُنِي مِنْكَ كُلَّ شَهْرٍ كِتَابٌ ، فَالرِّسَالَةُ صَادِقَةٌ نَاطِقَةٌ بِمَا احْتَوَتْهُ مِنْ مَشَاعِرٍ وَأَحَاسِيْسٍ ، فَعَمُرُو بَيْنَ مَسْعَدَةٍ يَتَعَطَّشُ لِرِسَائِلِ صَدِيقِهِ ، وَيَسْعَدُهُ التَّوَامِلُ بَيْنَهُمَا ، لَذَا مَلَأْتُ بَعْتَبَ رَقِيقٍ وَبِإِلْفَازِ سُلْسَلَةٍ لَيِّنَةٍ وَمَرَدَ ذَلِكَ يَعُودُ إِلَى طَبِيعَةِ هَذَا الْفَنِّ مِنْ فَنُونِ الْقَوْلِ ، وَلَوْ تَأَمَّلْنَا هَذِهِ الرِّسَالَةَ

وما امتازت به من سلاسة - كما هو ظاهر - ورسالة أخرى للكاتب نفسه لأدركنا بجلاء الفروق الواضحة فى الألفاظ والمعانى والأسلوب . كتب عمرو بن مسعدة الى أبى الرازى :

"انه قد بلغ أمير المؤمنين ماكان من الزيادة وخلعك اياها اذ كانت من قريش ، فمتى تحاكت اليك العرب - لأم لك - فى أنسابها ؟ ومتى وكلتك قريش بيا بن اللخفاء بان تلمق بها من ليس منها ، فخلّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زياد من قريش انه لابن سمية ، بغى عاهرة ، لايفتخر بقرابتها ، ولايتطاول بولادتها ، ولئن كان ابن عبيد لقد باء بأمر عظيم اذ ادعى الى غير أبيه لحظ تعجله ، وملك قمره " (١) .

فالفرق بين الرسالتين كبير ، والمقام فى الرسالة هذه هو الذى استدعى ألفاظا غاضبة تصم الأذان من شدتها ... أما الأولى فكانت سلسة ليونة قريبة الى النفس .

الشفاعة :

وهى من مقاصد الرسائل الاخوانية المهمة ، لها فى أدبهم صدى ، وليس من شك فى أن وجاهتهم ، ومكانتهم فى الدولة العباسية ، قد يسرت الطريق لهم لخدمة الناس من هذا الجانب .

وهى كما يقول القلقشندى : "تمدر غالبا عن ذوى الرتب والأخطار ، والمنازل والأقدار ، الذين يتوسل بجاههم الى نيل المطلوب ، ودرك الرغائب" (٢) .

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ٤٣٤/٣ .

(٢) صبح الأعشى ١٢٧/٩ .

ومن أبرز سمات الشفاعات عند الصوليين ، الإيجاز البليغ ، والتأثير وذلك من ناحية تخير اللفاظ ، وانتقاء المعانى ، ومن ناحية ذكر محاسن المستشفع له ، كما جاء فى كتاب ابراهيم بن العباس ، كتب يستشفع لرجل الى بعض اخوانه "فلان ممن يزكو شكره ، ويحسن ذكره ، ويعيننى أمره ، والصنيعة عنده واقعة موقعها ، وسالكة طريقها .

وذيلها بهذا البيت :

وأفضل مايتيه ذو الدين والحجا

(١)
أصابة شكر لم يفع معه أجر"

ولعمرو بن مسعدة شفاعات تداولتها كتب الأدب ، وقد كانت آية فى الدقة وحسن اختيار اللفظ ، مع ماامتازت به شفاعاته من لباقة ظاهرة ، وحسن تصرف من بديع ماكتب ، شفاعته الى المأمون فى رجل من بنى فبة ، يستشفع له بالزيادة فى منزلته ، وجعل كتابه تعريضا ، جاء فيه :

"أما بعد ، فقد استشفع بى فلان يأمير المؤمنين يتطول فى الحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته ، والسلام" (٢) .

وكانت سمة التعريض عند ابن مسعدة من أدق خصائص أسلوبه ، وكان المأمون لها معجبا ، وبرؤيتها كلفا .. ومن شفاعاته التى امتازت بأسلوب ممتاز وموهبة ظاهرة مايرويه صاحب الجهرة له أيضا يقول : قدم على المأمون رجل من

(١) الأصبهاني ، الاغانى ٥٣/١٠ .

(٢) ابن الأثير ، المثل السائر ٧٥/٣ .

أبناء الدهاقين وعظمائهم من أهل الشام ، على عدة سلفت له من المأمون من تولية بلده ، وأن يضم اليه مملكته فطال على الرجل انتظار خروج أمر أمير المؤمنين ، فقصد عمرو بن مسعدة وسأله إيصال رقعة الى المأمون من ناحيته ، فقال : اكتب بما شئت فاني موصله ، قال : فتول ذلك عنى حتى تكون لك نعمتان ، فكتب :

"أن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عدته من ربة المَطل ، بقضاء حاجة عبده ، والاذن له بالانصراف الى بلده ،
(١)
فعل موفقا " .

وكان من اعجاب المأمون بهذه الرسالة أن أصدر أمره بتحقيق رغبة الرجل ، ومنحه مكافأة عوضا عن المطل . وهكذا كانت تتزين شفاعاتهم بشوب الايجاز ، بل قد لا تتجاوز بعض رسائلهم بضع كلمات كما فى رسالة عمرو بن مسعدة الى بعض اخوانه ، يستشفع لشخص يعز عليه ، كتب :
"أما بعد ، فموصل كتابى سالم ، والسلام " .

يقول ابن خلكان : أراد قول الشاعر :
يُديروننى عن سالم وأذيرُهُم
وجلدة بين العين والائف سالم
(٢)
أى يحل منى هذا المحل .

وكتب عمرو بن مسعدة أيضا بأمر من المأمون لشخص الى بعض العمال يومى به ويعنى بأمره :
"كتابى اليك كتاب واشق بمن كتبت اليه ، معنى بمن كتب

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ٤٣٠/٣ .
(٢) وفيات الأعيان ٤٧٧/٣ .

(١)(*)

له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية موصلة ، والسلام " .
والباحث يعتبر ابن مسعدة أستاذ هذا الفن ، لما اتمصف
به الرجل من كياسة ولباقة ، وأسلوب مؤثر جميل ، ولا يعنى
ذلك مطلقا اغفال غيره من الكتاب فى مختلف العصور ، ولكن
ابن مسعدة قد بذأ أقرانه ، وتفوق عليهم ، ومن فرط ذكائه قد
يجعل شفاعاته أحيانا تعريضا لتجد لها جوابا كما حصل مع
المأمون .

التحميدات :

اشتهر ابراهيم الصولى بتحميداته حتى غدت من أبرز
سماته الكتابية ، ولعله كان يقتضى طريقة عبد الحميد
الكتاب مبتدع هذا الفن ، الذى ترمى صيته وكان له باع فى
الكتابة ، يقول عنه المسعودى :

"... وهو أول من أظال الرسائل واستعمل التحميدات فى
فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده " .
(٢)

وتبعه ابراهيم الصولى فى ذلك ، لأنه كان متأثرا به ،
ولأدلى على ذلك من قوله بعد أن ذكر عبد الحميد عنده "كان
والله الكلام معانا له ، ماتمنييت كلام أحد من الكتاب قط أن
يكون لى مثل كلامه " .
(٣)

وفيه يظهر اعجاب الصولى بعبد الحميد وبكلامه ، مما
هدا به الى أن يترسم طريقته وبالذات فى التحميدات التى

-
- (١) وفيات الأعيان ٤٧٥/٣ .
(*) يروى ابن خلكان ٤٧٥/٣ ، ٤٧٦ أنه قيل أن هذا الكلام
للحسن بن وهب ، ويقول أيضا ، والاول أصح وأشهر .
(٢) مروج الذهب ٢٦٣/٣ .
(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٢٢٩/٣ .

أصبحت فيما بعد من أخص خصائص الصولى ، وأغلب ما خلفه الرجل من تجميدات كانت فى الفتح وذلك عائد الى قوة الخلافة آنذاك ، وتمكنها من الانتصارات المتتالية ، وقمع الخصوم والخارجين .

من بديع ما كتبه ، تحميد له فى فتح اسحق بن اسماعيل :
 "الحمد لله معز الحق ومديله ، وقامع الباطل ومزيله ، الطالب فلايفوته من طلب ، والغالب فلايعجزه من غلب ، مؤيد خليفته وعبيده ، وناصر أوليائه وحزبه ، الذى أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه ، وأدال بهم حقه وجاهد بهم أعداءه ، وأثار بهم سبيله ، حمدا يتقبله ويرفاه ويوجب أفضل عواقب نصره ، وسوابغ نعمائه " (١) .

التحميد هنا مناسب لحال النصر ، فالالفاظ تتراقص طربا وفرحا من مثل : معز ... وقامع الباطل ومزيله ... والغالب ناصر ... وأعلى ... وأظهر ... وجاهد .

ولم تختلف أساليب التجميدات فى ذاتها من حفاوة ظاهرة بالموسيقى تتمثل فى هذا التوازن بين بعض الجمل ، كما فى : معز الحق ومديله ، وقامع الباطل ومزيله ، مؤيد خليفته وعبيده ، وناصر أوليائه وحزبه .

وفى هذا السجع الذى يأتى عفو الخاطر فتطرب له الأذان مستمتعة بعذوبة اللحن وجمال الأداء ، مما أفضى بهذه القطعة الى الجمال الموسيقى فى غير كلفة .

وحين ننتقل الى تحميد آخر للكاتب نفسه ، نجده لا يختلف فى كثير عن سابقه ، وهذا أمر طبيعى ، فرفته طبيعة الموضوع

(١) أحمد صفوت ، جمهرة رسائل العرب ١٥٤/٤ .

وتوافق الحال .

كتب فى فتح أيضا :

"أما بعد ، فالحمد لله الذى حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأعز دينه ، وأكرم بطاعته أوليائه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، فجعل جنده منهم المنصورين ، وحزبه منهم الغالبين ، نهج بهم سبيله ، وأقام بهم حجتة ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهر بهم حقه ، وقمع بهم الباطل وأهله ، وأعلى كلمتهم ، وأيد نصرهم ، وألف لهم وبهم ، ومكن لهم فى الأرض فجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المعز لدينه ، المظهر لحقه ، الناصر لخلفائه ، الممكن لحزبه ، المنتقم بهم من مدفع عنه ، مؤيدا دينه بالنصر ، ليظهره على الأديان ، وحفه بالعز ، فلائتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، وجنوده بالفلج ، فهم الأعلىون ان استنصر بهم ، والأعزون ان كاد بهم ، والأقربون منه اخلاصا وعملا ، حمدا يوازي نعمه ، ويمتري بمثلته فواضلُه ومزيده" (١) .

وهى لاتختلف عن سابقتها ، بدأها الكاتب بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى على نصرته لدينه ، وخلفائه ، وجنده .

وعلى هذا النحو تتوالى تحميداته كلما توالى الانتصارات والفتوحات ، كتب فى فتح ابن البغيث لما ظهر به :
"أما بعد ، فالحمد لله ناصر أنبيائه وخلفائه ، وهادى

(١) أحمد صفوت ، الجهرة ١٥٦/٤ .

أوليائه ، أولياء الحق وحزب الهدى ، الذين أقام بهم سبل
الرشاد ، ونصب بهم مناهج الدين ، فأظهره على الدين كله
(١)
ولو كره المشركون" .

فتحميداته تسير على نهج واحد وذلك أمر طبعى لكون
المقام والحال عاملا مشتركا فيها جميعا .

قال أيضا في مناسبة مماثلة :

"الحمد لله الغالب ذى القدرة ، والقاهر ذى العزة ،
الذى لم يقابل بالحق باطلا فى موطن من موطن التحاكم بين
عباده ، الا جعل أولياء الحق منهم حزبه وجنده ، وجعل
الباطل بهم فلا منكوبا ، ودحيضا زهوقا ، ان نهض به أولياؤه
كانت مراصد عواقبه مفرقة مآجمع ، ومبترة مآعد ، وقائدة
بأشياعه الى مصرع الظالمين ، حتى يكون الحق الطالب الاعز ،
والبساطل المطلوب الازل ، وأولياء الحق الاعلىين يدا وأيدا ،
وأشياع الضلال الآخرين أعمالا وكيدا ، قضاء الله وسنته ،
وعادة الله واراادته فى الفئة المنصورة ، أن تعز فلاترام ،
وأن يمكن لها فى الأرض كما مكن للذين من قبلها ، وفى الفئة
الناكبين عنه ، أن تذلل ، فتكون كلمتها السفلى ، وكلمة
(٢)
الله هى العليا والله عزيز حكيم" .

ومن سمات هذه التحميدات بسط المعانى وتأكيدها وذلك
بتكرير الجمل المتقاربة فى مغزاها ومدلولها .

فالكساتب يحمد الله على نصرته لدينه وخليفته وجنده ،
وفى المقابل يحمد الله على اذلال البغاة الخارجين على

(١) أحمد صفوت ، الجمهرة ١٥٦/٤ .

(٢) المصدر نفسه ١٥٥/٤ .

الدولة بهزيمتهم ، مستخدما ذات الأسلوب فى بسطه للمعانى وتكريره للجمل التى تصب فى اناء واحد ، وهذه السمة البيانية شاعت فى تحميدات المولى وفيمن أتوا بعده وخاصة كتاب القرن الرابع كما أشار زكى مبارك .

ومن سمات هذا التحميد جنوحها الى موسيقى اللفظ عن طريق السجع بين بعض كلماتها كما فى سجعه بين : فلا منكوبا ودحيفا زهوقا .

وهذه المقابلة الرائعة بين قوله : "حتى يكون الحق الطالب الأعمز" ، وبين "والباطل المطلوب الأذل" ، ولاتخلو هذه الفقرة من الموازنة وذلك بين الأعمز ، والأذل ففيهما اعتدال فى الوزن دون التقفية .

وتنطوى هذه التحميدات على تأكيد الثقة بالله ، واطهار نعمه وفضله ، كتب فى فتح ، قوله :

"فالحمد لله المزيل لما يمهّد المبطلون ، ويمكر به الماكرون ، ويكيد به الملحدون ، تمكينا لعبده وخليفته ، وذبا عن دينه وحقه ، واطهارا لأوليائه وحزبه ، وامضاء لعزائمه وقدرته ، منعمسا قادرا ، وممليا ممهلا ، عدلا اذا استدرج ، متفضلا اذا أنعم ، حمدا يستنزل به نصره ، ويبلغ به رفوانه ، ويمتري بمثله فواضل مزيده" (١) .

لم يأت الكاتب بشئ مغاير عما فى رسائله السابقة ، سوى هذا التقديم فى الدعاء على هؤلاء الخارجين ، وأعقبه بالدعاء والحمد لله على نصرته لخليفته ودينه وجنده ، وهو كما تعود يميل الى اشباع الفكرة بتكرار الجمل ذات

المدلولات المتقاربة ، وحين النظر فى الهيكل البنائى اللفظى ، نجد ألفاظها جزلة فى غير اغراب ، ومنتقاة فى غير تكلف .

وهى فوق ذلك مفصلة للنصر وما يتبعه من حمد وثناء للناصر ، معبرة عن الحال موحية به ، نشتم من تراقص ألفاظها عذوبة النصر ، وحلاوة قمع الطاغين وهزيمة المتمردين .

وكتب فى فتح أيضا :

"الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأيد جنده وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل ، وإزالة عائد ، وإبادة عائد ، وإقالة مستقيل ويسأل الله أمير المؤمنين مسألة العبد سيده ومولاه ، رغبة اليه ، متذلا له ، أن يصلى أفضل صلواته عند أكرم أنبيائه " (١) .

هذه بعض الرسائل التحميدية لابراهيم المولى أنشئت حمدا لله ، وشكرا له لعظيم فضله ، وكريم منه ، لنصرته للفئة الصالحة ، وهزيمته للفئة الطالحة .

وهذه الرسائل تمثل واقع الحياة السياسية والحربية للخلافة العباسية فى زمن الكاتب وما كانت عليه من قوة ومنعة جعلتها تجتاح الخارجين ، وثفتك بالمارق عن سلطانها .

التوقيعات .

وبعد أن ألقى الباحث الضوء على فن الرسائل ، واستجلى ما اشتملت عليه من خصائص ، وما امتازت به من سمات ، آن له أن ينتقل الى فن قريب من سابقه ، وشديد الصلة به ، هو فن التوقيعات ، وهذا الاتصال بينهما يعود الى أن التوقيعات ماهى الا تعليقات لما يرد فى تلك الرسائل غالبا .

لذا فهى لاتصدر الا عن صاحب مكانة فى الدولة ، كالخليفة ، أو وزيره ، أو من يفوضانه من أصحاب المواهب الأدبية .. ولهذا السبب أيضا ندرت توقيعات الموليين وقلت مقارنة بالبرامكة وآل سهل ، فالبرامكة وزراء الرشيد وتحملوا العبء السياسى ردحا من الزمن ، فليس غريبا أن تكثر توقيعاتهم لكثرة ما يرد عليهم من رسائل فى شئون الدولة وأحوالها ، وآل سهل وزراء المأمون وكان لهم من الأمر والنهى ما رأينا فى بداية عصر المأمون ، وهذا مبرر مهم لكثرة ما أثر عنهم من توقيعات .

أما حال آل صول فيختلف كثيرا عن الأسرتين السابقتين اذ لم يتولوا الوزارة ولم يكن لهم مراكز قيادية ، وبالتالي قل ما أثر عنهم من توقيعات ، يؤكد هذا القول صاذهب اليه القلقشندي فى ايضاح أهمية التوقيع وعمن (١)
يصدر .

(١) انظر ص ٢٢٥ من بحثنا .

من روائع هذا الفن فى أدب الصولييين ماسطره عمرو بن مسعدة على لسان جعفر البرمكى بعد أن رفع اليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم ، كتب فى ذلك :

(١)
"قليل دائم خير من كثير منقطع" .

وهذا التوقيع الذى بلغ حدا من البلاغة ، مع ما اشتمل عليه من مقابلة لطيفة بين (قليل وكثير) و (دائم ومنقطع) أجلت المعنى فى حلة رائعة ، إضافة الى قوة الأسلوب الإقناعى فى الحث على القناعة ، والرضا بالقليل ، فرائحة المثل (القناعة كنز لا يفنى) تفوح منه .

أما ابراهيم الصولى فقد راوح بين الإيجاز والاطناب فى توقيعاته ، فمن بليغ ما كتب تعليقه على كتاب ورد عليه بدم رجل ومدح آخر .

"إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه ، وللمسئ من النكال ما يقمعه ، بذل المحسن الواجب عليه رغبة ، وانقاد المسئ للحق رهبة" .

(٢)

وهذا التوقيع على وجازته اشتمل على سجع موسيقى بين (يقنعه ، ويقمعه ، ورغبة ورهبة) وعلى مقابلة ممتازة بين (للمحسن ، وللمسئ) ، وعلى استعارة مكنية اذ صور الجزاء

(١) ابن خلكان ، الوفيات ٤٧٥/٣ ، ٤٧٦ .

(٢) الحميرى ، زهر الآداب ١٠٩٠/٤ .

رجلا يقنع المحسن ، والنكال رجلا يقمع الممسء ... لينقاد كل
منهما للخير اما رغبة كما فى الاولى أو رهبة كما فى
الثانية . فكل هذه الصور الادبية تداخلت بفن راق فى هذا
التوقييع الموجز .

ومن توقيعاته التى تحلت بسمة الايجاز ، توقيعه لرجل
مك اليه بحرمة :

"تقدمت بحرمة مألوفة ، ووسيلة معروفة ، أقوم بواجبها
(١)
وأرعاها من جميع جوانبها" .

ورغم ابداعه فى توقيعاته الموجزة ، الا أنه قد يفطر
الى بسط القول ، فتبلغ مقدار الرسالة ، كتوقيعه فى كتاب
عامل له يعتد بحسن اثر ، ويمت بمقام محمود كتب :

"يا هذا لست أشك أن لك أشرا فى التوفير ، كان من
تقدمك مقصرا عنه ، وأنتك معنى ومحتاط ، غير أنك عفيت على
ما أحمدت منك ، بما يتناهى الى عنك على ألسن المتظلمين ،
وأصحاب الاخبار .

وذكر قلان ماجرى بينك وبين أخيه مما كثر وصفه له ،
وقام منه وقعد ، وتالله لاكونن الباحث عليك ، والمطالب لك
دونه ، لاقدامك على شيخ ابن ستين سنة ، بما أقدمت به عليه
وأف لدنيا اضطرت اليكم ، فكنتم خيار من يعمل فيها ! وأبرا
الى الله من أعمالكم التى رجعتم بها الى أنفسكم
(٢)
وتبعاتكم" .

(١) الحمري ، زهر الآداب ١٠٩٠/٤ .
(٢) أحمد صفوت ، الجمهرة ١٦٥/٤ .

واتبع المولى ذات النهج فى توقيعه الى محمد بن الحسن
ابن الفياض وقد حمل مالا ، كتب :
"اذا جرى الله وليا ، بئداء الفرض عليه ، وتأدية حق
الشكر عن نفسه خيرا ، فأحسن الله جزاءك ، فبالله لئن كنا
قدمنا حسن الظن بك ، لقد وصلت ذلك بكفاية حسنة ، وأثر
صالح ، وأمور أقلل منها يزيد فى الثقة بك وانى أرجو أن
يسرك الله به ان شاء الله ، ووافقت الاموال حاجة منا اليها
ومؤننا تراجعت ، أمان الله على أكثرها بعنايتك وتسويدك ،
(١)
والسلام " .

(١) أحمد موفوت ، الجمهرة ١٦٥/٤ .

هذا وقد كان لهم فى كل فن أثر يحكى عظمة هذه الأسرة
الادبية وينبىء عن مكانتها ، ومن بين هذه الفنون فن
(القول) وهو غنى بالحكم ، ملئ بالعظات ، ولا يمدد الا عن
مغرب خبر الناس وتشرب الحياة فأحكمتها الايام ، وصقلت
التجارب ، فأفرز عمارة تجربته يانعة يفيد منها من أراد
الافادة .

حدث عن ميمون بن هارون عن أبيه ، قال : قلت لابراهيم
ابن العباس ان فلانا يحب أن يكون لك وليا ، فقال : أنا
والله أحب أن تكون الناس جميعا اخوانى ، ولكنى لاأخذ منهم
الا من أطيع قضاة حقه ، والا استحالوا أعداء ، وما مثلهم الا
كمثل النار ، قليلها مقنع ، وكثيرها محرق" (١)
ولهم أقوال كثيرة ، ولعل ما ذكرته يكون دالا على
ماورائه من حكم تلبست بها أقوالهم .

(١) معجم الادباء ١٨٨/١ .

الفصل الثالث

بين كتابي

"أدب الكاتب" و "أدب الكاتب"

توطئة :

كان للشعر قبل هذه الحقبة التى نحن بصدد دراستها مكانة لاتوازيها مكانة النثر ، فكثرت الاهتمام بالشعر والشعراء ، وكثرت النظرات النقدية التى جالت فى ميادينه ، وأبرزت مزاياه كما أظهرت معاييه ، وهى فى كل ذلك ترشد الشاعر الى مواطن الابداع ، ومايجب أن يلتزمه من محاسنه ، ويتجنب مساوئه .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى بدايات العصر العباسى على وجه التقريب ، هذا العصر الذى أولى النثر جل اهتمامه لحاجتهم اليه ، وادراكهم لاهميته فى تسيير دفة أمور دولتهم ، فنال حظه من العناية ، وأصبح الكاتب ذا مكانة عظيمة عند الخاصة والعامة .

فصارع الكاتب الشاعر فى المكانة ولا أقول ساواه . ففى ظل هذا الالتفات للنثر والعناية به برزت على الساحة الادبية آنذاك شمار هذا الاهتمام من كتب صنفها أهل هذا الفن والمهتمين به ، وهى فى كل ذلك تتنافس فى تقنين مايجب على الكاتب أن يأخذ به نفسه من عامة الثقافة وخاصتها .

من أبرز هذه الكتب التى أشرت اليها "أدب الكاتب" لابن قتيبة ، و"أدب الكتاب" للمولى ، وهما موضوع بحث هذا الفصل وبالإضافة اليهما هنالك "احكام صنعة الكلام" للكلاعى ، و"المثل السائر" لابن الأثير ، و"صبح الأعشى" للقلقشندي .

وقبل هؤلاء جميعا رسالة عبد الحميد الكاتب فى توجيهاته للكتاب ، وقد ذكر فيها وجوب اهتمام الكاتب بتعدد

ثقافته ، فهو مطالب أكثر من غيره بتزويد نفسه بالعلوم العربية والشرعية ، ومستجدات العصر ، وشدد عبد الحميد على أخلاقيات الكاتب ورأى ضرورة تحلى الكاتب بها قبل غيره يقول :

"وليس أحد من أهل الصناعات كلها ، أحوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب...".^(١)

وأخذ يسرد هذه الصفات كالحلم ، والاقدام ، والعفاف ، والعدل ، والانصاف وكنتم السر ، والوفاء ... وغيرها مما ذكره من كريم الشماثل التى يتزين بها الرجال وبخاصة الكتاب منهم لخطر موقعهم ورفعة شأنهم فى الدولة ، فهم كما قال عبد الحميد فى ناحية من رسالته هذه : "فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون...".^(٢)

إذا فعبد الحميد قد اهتم بناحيتين هامتين ، يرى ضرورة توافرها فى الكاتب قبل غيره .

أولهما : ثقافة الكاتب ، وهى ركيزته التى يعتمد عليها .

ثانيهما : المعيار الأخلاقى للكاتب .

وقد أوردت مفاد هذه الرسالة لعدة أسباب :

(١) رسالته فى الجمهرة ٢/٤٥٥-٤٦٠ ، مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) رسالته فى الجمهرة ٢/٤٥٥-٤٦٠ ، مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٨ وما بعدها .

(١) لكونها صادرة من أديب كاتب ، ولتوجيهاته أهمية لا يمكن تجاهلها أو اغفالها .

(٢) لأنه أسبق زمنيا وفكرة في توجيه الكتاب ، وفي تحديد معايير فنية للكتابة ، وخلقية للكاتب .

ومن خلالهما يمكن لى الكشف عن الطريق الذى سلكه ابن قتيبة والمولى فى كتابيهما ، هل سلكا الطريق نفسه ؟ بمعنى هل اهتمما بكلتا الناحيتين أم اقتصرا على واحدة دون الأخرى ؟ هذا ماأحاول ان شاء الله رؤيته والكشف عنه .

وقبل الخوض فى الموازنة بين الكتابين اوشر التنويه بسبب عقد مثل هذه الموازنة والفائدة المرجوة من ورائها ، وتقدير هذين الكتابين على غيرهما .

أما عن السبب الأول فى عقد هذه الموازنة ، فيعود الى عدة نقاط :

(١) أن الكتابين يتحدشان عن ثقافة الكاتب ، ومامن شك فى أن هذه الأسر قد اهتمت بهذه الثقافات تأثرا وتأثيرا .

(٢) من خلال الموازنة يمكن لقاء ضوء على الحدود التى انتهت اليها المعايير النقدية للنثر الفنى .

ان "أدب الكتاب" للمولى يمثل فى تصورى معلما نقديا مهما بالنسبة للكتابة الفنية بعمامة ، وبالنسبة لهذه الأسر الثلاث التى حملت لواء الكتابة فى ثلاثة عهود متلاحقة ، باعتبار المولى أحد عمد هذه الأسر .

أما "أدب الكاتب" لابن قتيبة فورا اختياره طرفا شانيا لعقد هذه الموازنة أمور :

أولها : عامل السبق زمنيا وفكرة فى تأليف مثل هذا السفر .

ثانيها : نقد المولى لهذا الكتاب ، وهذا يثبت افادة
المولى منه ، يقول :

"فانى رأيت من صنّف مثل هذا الكتاب ونسبه هذه النسبة
ولم يحصل له منه الا تسميته دون تجسيمه ، وتعميته دون
ايفاحه وتقريبه من المعنى الذى أليسه اياه ، ونسبه اليه ،
فكان كما قال النابغة الذبياني :

أتاك بقول هلهل النسج كاذب

(١)

ولم يأت بالحق الذى هو ناصع"

ثالثها : شهرة كتاب ابن قتيبة فقد نال ما لم ينله
غيره من نادر الكتب وجيدها ، وهو من أعمدة الأدب .
رابعاً : اتفاقهما فى الموضوع .

فكل هذه الأسباب مجتمعة ، جعلتني أختار "أدب الكاتب"
لابن قتيبة وموازنته بكتاب "أدب الكاتب" للمولى .

(١) المولى ، أدب الكاتب ص ٢١، ٢٠ .

(١) "أدب الكاتب" لابن قتيبة ت : ٢٧٦هـ .

وأبدأ بالقاء الضوء على ثلاث نقاط :

(أ) المؤلف سيرته وبعض مؤلفاته .

(ب) محتويات كتابه .

(ج) المنهج الذى سار عليه .

وهى من الأهمية بحيث لا يحسن إهمال أى منها ، فالموازنة الجادة بين كتابين تستلزم من الباحث النظر فى الأمور السابقة مجتمعة ، فهى لاشك ستبرز أوجه الاختلاف والائتلاف وغيرها من أمور ستجلى عند الدرس ان شاء الله .

(أ) ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) :

هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ولد فى بغداد ، وأقام بالدينور وولى قضاء الدينور .

ويعد ابن قتيبة من المؤلفين المكثرين .. من كتبه التى ذاع ميتها وشاع "غريب القرآن" ، و"غريب الحديث" و"مشكل القرآن" و"مشكل الحديث" و"عيون الأخبار" و"كتاب المعارف" (١) .

ومنهما أيضا : الشعر والشعراء ، الرد على الشعوبية ، فضل العرب على العجم ، المشتبه من الحديث والقرآن ، العرب وعلومها ، الميسر والقداح ، تفسير غريب القرآن ، المسائل والأجوبة ، النبات ، الألفاظ المعربة بالألقاب المعربة (٢) .

وليس هذا استقصاء لما كتبه ابن قتيبة ، فلعل له

(١) تاريخ بغداد ١٠/١٧٠ .

(٢) الأعلام ٤/١٣٧ .

غيرها ، وانما ذكرت من كتبه ما ذاع بين الناس وشاع ، ولابن أنه خبير بالتأليف ، بصير بدقائقه ، كاشف لأسراره . . قد أفرغ جهده وصبره في هذا المجال ، فانتج هذه الثمار الطيبة ومن بينهما "أدب الكاتب" فما محتويات هذا السفر ؟ هذا ماسأله في الفقرة التالية :

(ب) المحتوى :

قسم ابن قتيبة كتابه الى أربعة أقسام رئيسة ، وسمى كل قسم منها بالكتاب ، وهي :

- ١ - كتاب المعرفة
- ٢ - كتاب تقويم اليد
- ٣ - كتاب تقويم اللسان
- ٤ - كتاب الابنية

(١) ونبدأ في استعراض ما جاء في الكتاب الأول ، ويجدر بنا أن نشير الى أن كتاب المعرفة من أهم أقسام كتابه على الإطلاق ، ولا جاوز الحقيقة اذا قلت أن هذا القسم هو الذي حمل ابن قتيبة على تأليف هذا السفر بعاملته ، وذلك لما وجد من أخطاء الكتاب ما هاله وأذهله ، يقول في ذلك :

"فاني رأيت كثيرا من كتاب أهل زماننا كسائر أهلهم قد استطابوا الدعة واستوطؤا مراكب العجز ، وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير" الى أن يقول : "وأي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسهه ، فقرأ عليه يوما كتابا وفي

الكتاب "ومطرنا مطرا كثر عنه الكلا" فقال له الخليفة
 ممتحنا له : وما الكلا ؟ فتردد فى الجواب وتعثّر لسانه . . .^(١)
 وأخذ ابن قتيبة يعدد بعض سقطات الكتاب الناتجة عن
 جهلهم للغة كل ذلك ليبين أهمية هذا الكتاب للكتاب فى الأخذ
 بيدهم الى جادة الطريق وتسهيل ماصعب أو خفى عليهم من
 معميات الكتابة .

ويندرج تحت كتاب المعرفة عدة أبواب ، أولها باب
 معرفة ما يضعه الناس فى غير موضعه ، ويتحدث المؤلف فى هذا
 الباب عن الأخطاء الشائعة ، ويصحح بعد ذلك ما تخطئ فيه
 الناس . . ومن هذه الأخطاء التى يقع فيها الناس عادة
 استخدام كلمة "الطرب" للفرح دون الجزع .
 والصحيح أن "الطرب" خفة تصيب الرجل لشدة السرور أو
 لشدة الجزع ، وعلى هذا المنوال يورد الكثير من الأخطاء
 ويقوم بتعديلها وتمحيحها مستندا فى ذلك الى آيات قرآنية
 أو أحاديث نبوية أو أقوال العرب .
 ويلى الباب السابق ، "باب تأويل ما جاء مثنى فى
 مستعمل الكلام" ، وهو باب من أبواب المعرفة لا يجدر بالكاتب
 وغيره أن يجعله ، وتأويلات ابن قتيبة فى هذا الباب جد
 رائعة .

من هذه التأويلات الممتازة ، تأويله لقولهم "أهلك
 الرجال الأحمران" فالأحمران الخمر واللحم ، ومثل تأويله
 "الأمفران" بالذهب والزعفران ، فى قولهم "أهلك النساء
 الأمفران" . . وهكذا يخطو فى تأويلاته لما جاء مثنى .

(١) مقدمة أدب الكاتب ص ٧٠٦ .

ويعقبه باب "تأويل المستعمل من مزدوج الكلام" ، وهو قريب من الباب السابق الى حد ما ، فيفسر "الطم" بالبحر ، و"الرم" بالثرى ، فى قولهم "له الطم والرم" وهكذا ينهج فى بقية تأويلاته للمزدوج من الكلام .

ولا يزال ابن قتيبة يعقد الباب تلو الباب فى تفسير الكلام وتأويله ، أملا منه فى تفوير الكاتب وعقله من أجل تلافى الحرج والوقوع فى الخطأ . والكاتب أحوج الى سعة المعرفة والى الصواب من غيره ، لموقعه من الدولة ومكانته فيها . ويعقد هنا بابا أسماه "باب ما يستعمل من الدعاء فى الكلام" وهو لا يختلف كثيرا عما سبقه ، فيقوم بتأويل بعض الادعية المستعملة من مثل قولهم ... "أرغم الله أنفه" فيفسره بقوله ، أى ألزقه بالرغام وهو الستراب ، ومنه تأويله لقولهم "سخم الله وجهه" أى سوده من السخام ، وهو سواد القدر .

وهكذا تتوالى تأويلاته فى هذا القسم ومنها "باب تأويل كلام من كلام الناس مستعمل" يورد بعض كلام الناس ويفسره كما تعودنا ذلك منه ، ومن هذا الباب ، تفسيره لقولهم "حلب فلان الدهر أشطره" أى مرت عليه صروفه من خيره وشره ، ومثل تأويله لقولهم "كما تدين تدان" فسر به بقوله : كما تفعل يفعل بك ... وهكذا .

ثم ينتقل ابن قتيبة الى مجال آخر من مجالات المعرفة ، هذا المجال هو البحث فى "أصول أسماء الناس" ، ويبدأ ابن قتيبة جهدا شاقا فى تقصى أصول الاسماء ، ويقسمه المؤلف الى أقسام عديدة :

(١) المسمون بأسماء النبات ومثل لهم "بثامة" و"طلحة" و"سيابة" وغيرهم .

(٢) المسمون بأسماء السباع ومثل لهم ب"عئيس" و"حيدرة" و"أوس" وغيرهم .

(٣) المسمون بأسماء الهوام ومنهم "جندب" .

(٤) المسمون بالصفات ، مثل "النجاشي" و"الأخطل" ، وفسره بقوله : والأخطل استرخاء الأذن ، و"ذو الرمة" وهو الحبل البالى .

وأعقب الباب السابق "بباب معرفة ما فى السماء والنجوم والأزمان والرياح" وبدأه بتعريف السماء ، قال : هى كل ما علاك فأظلك ، واستدل على ذلك بقوله تعالى {ونزلنا من السماء ماء مباركا} يريد السحاب .

وابن قتيبة لا يكاد يدع شيئا من الأزمنة ومسمياتها والكواكب والنجوم والرياح ومسمياتها ، وتعليل ما يمكن تعليله الا وقد أوردته فى هذا الباب ، وكأنى به يبحث الكاتب على الامام بكل هذه الامور حتى يكون محل ثقة عند الخليفة وعند الناس اذ لا يحسن به جهلها .

ومن معارف ابن قتيبة المهمة التى أوردتها فى هذا القسم من كتابه "النبات" عقد له بابا ، تحدث فيه عن أطوار النبات ، والفروق بينها ، ومسميات كل نوع ، مثل تفريقه بين "الشجر" و"النجم" فالشجر كما قال : ما كان له ساق ، و"النجم" عكسه ، ما لم يكن له ساق ، واستدل فى تفريقه هذا بقوله تعالى : {والنجم والشجر يسجدان} ، ولم يفته الإشارة الى ألوانها .

وتحدث بعد ذلك عن "أسماء القطنية" وفسر بعض الكلمات من مثل : البلس : العدس ، الفول : الباقلا ، الجلجلان : السمسم ، وذكر "النخل" ومسميات أجزائها . وبعد ذلك عقد بابين ، باب ما يعرف واحده ويشكل جمعه ، والآخر باب ما يعرف جمعه ويشكل واحده .

وهو فى ذلك يحث على تتبع بنى الكلمات ومعرفة الشاذ منها ، فلا يَحتمل خطأ الكاتب فى جمع كلمة وان كانت من المشكل ، ويأتى بعدة أمثلة ليزيد فى توضيح هذا الباب ، من المجموع التى أوردها فى الباب الأول "دواخن" جمع "دخان" ، و"نفاس" جمع "نفساء" .. ومن أمثلة الباب الثانى : "مصران" مفرد "مصارين" ... وهكذا يأتى بأمثلة لكلا البابين ليتنبه اليها الكاتب ويعيها .

وتسلاه بآبواب عدة ، تحدث فيها عن الخيل وما يستحب من خلقها ، وقد أطلال فيه ، ولعل ذلك يعود الى أهميتها والى ماتعنيه الخيل فى حياة العربى قديما ، فذكر ما يستحب فى كل جزء من أجزائها .. ما يستحب فى الأذنين وفى الناصية ، وفى الخد ، وفى الجبهة ، وفى العين ، وفى المنخر ، وفى الفم ... ويستشهد لذلك بشعر الشعراء فى كل جزء على حدة . وتحدث أيضا عن "عيوب الخيل" وهو عكس السابق تماما .

ولا يزال ابن قتيبة حريصا كل الحرص على تتبع دقائق أسرار الخيل وما قد يطرأ عليها من متغيرات ، فيورد بابا أسماء "شيات الخيل" وهو يبحث فى هذه المتغيرات الطارئة ومسمياتها ، فاذا أبيض رأس الخيل يسمى "أصقع" ، واذا أبيض قفاه فهو "أقنف" ... وهكذا يورد التسميات حسب الوضع المستجد .

ويذكر بعد هذا الباب عدة أبواب منها "باب ألوان الخيل" وباب الدوائر فى الخيل وما يكره من شياتها والدوائر كما أوردها ثمانى عشرة دائرة ، وختم المؤلف كلامه عن الخيل بالسوابق منها وأسمى أولها السابق ، ثم المصلى وذلك أن رأسه عند صلا السابق ، والعاشر "السكيت" و"الفسكل" الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل .

ومن المعارف التى أوردها فى هذا القسم ، "باب فى معرفة نافي خلق الانسان من عيوب" وذكر عيوباً فى كافة الجسم ومنها "الفقم" وهو عيب فى الفم ، ومثل عيب الفأفة و"الشطور" عيب فى العينين ... وعلى هذا النحو يستطرد فى بقية عيوب الجسم الانسانى .

ثم مال به ابن قتيبة أن عقد باباً هاماً ، أسماه "باب الفروق" وبدأه ، بالفروق التى تكون فى خلق الانسان ، فجاء الانسان من رأسه وسائر جسده تسمى "البشرة" وباطنه "الادمة" وكذلك شخص الانسان اذا كان قاعداً أو نائماً "جثة" ، فاذا قام تسمى "قائمة" ، والوفرة الشعر الى شحمة الاذن ، فاذا ألفت بالمنكب فهى لمة ، و"الأنزع" الذى انحسر الشعر عن جانبى جبهته ، ... وهكذا يورد المسميات حسب وضعية الشعر . ومن فروقه "الفروق فى الأسنان" يتعرض فيه لأسنان الانسان وعددها ، ويتجاوزها الى غيره من الحيوانات ويذكر أطوارها ، واسم كل طور حسب أسنانه زيادة ونقصاناً ، ولم يفته أن ينبه الى الفروق فى الأقواف ، وفى ريش الجناح ، والفروق فى الأولاد ، فأشار الى أن اسم ولد السبع "جرو" ، وولد كل ذى ريش "فرخ" ، وهكذا لصغار الحيوانات أسماء تعرف بها وتختلف من حيوان لآخر .

وذكر أيضا الفروق في "السفاد" ومسميات ذلك من حيوان الى غيره ، واذا حصل السفاد فان هنالك الحمل والولادة ، وفيها فروق أوردتها ابن قتيبة .

ومن فروقه التي أتى بها "الفروق في الأصوات" ، فكل صوت اسم حسب مصدره ، ومن ذلك تسمية صوت الماء "بالخرير" وصوت القدر "بالغرغرة" .

وبعد أن انتهى من فروقه ، عقد بابا أسماء "باب معرفة مافى الطعام والشراب" وذكر مسميات الاطعمة حسب المناسبة ، أما الشراب فله مسميات أيضا كالفرات العذب ، والأجاج الملح .

وعاد ابن قتيبة الى فروقه مرة أخرى ، حين أنشأ بابا أسماء "باب فروق في أسماء الجماعات" ذكر فيه اسم كل جماعة فيقال لجماعة الأطباء والبقر "أجل" ، وجماعة الحمير "عانة" وينتقل بنا المؤلف الى باب آخر من أبواب المعرفة ، باب معرفة الآلات ، كالفأس ، وباب معرفة الثياب واللبس ، وباب معرفة السلاح وأسماء الصناعات .

وانتقل بنا الى باب من أبواب المعرفة جديد ، هو معرفة جواهر الأرض من ذهب وفضة وماشابه ذلك .

وعقد بابا للأسماء المتقاربة في اللفظ والمعنى وضرب لذلك عدة أمثلة ، منها تقارب "القبض" بجميع الكف ، و"القبض" باطراف الأصابع .

وأورد بعض النوادر من الكلام المشتبه ومثل لذلك "بالتحريظ" وهو مدح الرجل حيا ، و"القائبين" مدحه ميتا .

وختم ابن قتيبة هذا القسم بباب تسمية المتضادين باسم

واحد ، ومثل لذلك "بالجون" وذكر أن هذه اللفظة تطلق على الأبيض والأسود ، ومثل "المريم" الليل وتطلق على المبح . والجوالقى يذكر الأضداد ، ويستشهد بأقوال أهل هذا العلم كأحمد بن يحيى فى قوله "ليس فى كلام العرب ضد" ويضيف قائلا "لأنه لو كان فيه ضد لكان محالا ، لأنه لا يكون الأبيض أسود ، ولا الأسود أبيض" .

ولاخال استيعاب ابن قتيبة واستفاضة فى هذا القسم من باب المكاثرة بالمعرفة ، واطهار الاحاطة بالثروة اللغوية التى تستوعبها العربية ... انما كانت بواعثه فى تلموس آتية من طبيعة العمر ، والحاجة الماسة الى حركة تنوير لغوى ، فالقرن الثالث هو العهد الذى ترامت فيه أرجاء الدولة ، وتنافس فى خدمتها جم غفير من الشعوب الاسلامية ، التى لم تكن العربية لغتها الاصلية ، وفى الوقت نفسه ظهر طموحهم الى ولوج ميدان الكتابة ، وظهر جدهم فى تحصيل الثقافة الاسلامية ، وفى تحصيل العربية .

انتشر هؤلاء فى دواوين الدولة ، ومنهم من استطاع الوصول الى ديوان الانشاء ، وكان من الصق الدواوين بال خليفة ، وأكثرها تعاملًا مباشرًا معه .. والخليفة الى ذلك العهد عربى قح ، لاتزال وشائجه بلغته متينة .. فمن أقبح مايعاب به كاتب أن يجهل شيئًا فى اللغة بحضرة الخليفة ، وأن يذيع عنه هذا العيب فى بيئة لايزال سلطان العربية فيها قويا . ولاشك أيضا أن مع هذا الدافع غيرة ابن قتيبة على العربية فى ذاتها ، وضرورة صيانتها ، والتذكير بها ، والحفاظ عليها من فساد العجمة ، لأنها لغة القرآن والحديث

فبواعث ابن قتيبة تستهدف غاية تخويرية تعليمية فى المجال الذى اختاره فى كتابه ، وهى غاية تلتقى مع غيرها من غايات أخرى ظهرت فى العصر ذاته .

أما القسم الثانى من كتابه ، المسمى "بكتاب تقويم اليد" فإن موضوعه يتعلق بأصول الكتابة الصحيحة ، وهو من الأهمية بحيث لا يحتمل خطأ الكاتب فى شيء من ذلك ، لذا فإن المؤلف يجهد نفسه كثيرا فى تقنين القواعد الاملائية ، ومن قواعده التى جاء بها فى هذا القسم (طاوس) و(ناوس) و(داود) بواو واحدة وتحذف الأخرى لوجود دليل عليها وهى الضمة .

أما إذا انفتحت الواو الأولى فلم يجز إلا أن تكتب بواوين نحو "احتواوا" و"استواوا" و"اكتواوا" ، لأن الواو الثانية واو جماعة ولا يستغنى عنها ، أما الأولى فهى عين الفعل ، وهكذا يسير ابن قتيبة فى تقعيداته لأصول الكتابة ، من حيث رسم الكلمة .

وهذا يوحى بسأن الأساس فى الكتابة الصحيحة الإحاطة باللغة ، وبدلالة مفرداتها ، وبرسمها أيضا ، فرسم الهمزة فى الكلمة مثلا يحدده موقعها من الأعراب ، نحو "رداؤه طويل" و"رأيت بناءك" ، و"مشيت فى أرجائه" ... وكذلك الألف المقصورة فى الفعل الثلاثى المجرد ترسم بحسب أصلها ، فلو كانت عن واو ترسم ألفا نحو "دعا" وإذا كانت عن ياء رسمت ياءا نحو "رمى" ، فرسم الكلمة العربية له صلة بأعرابها وببنيتها .

ويليه القسم الثالث المسمى "كتاب تقويم اللسان" ، ويبحث هذا القسم فى تعديل ما تخطئ فيه العامة وتمحيجه ، وهو أقرب إلى "كتاب المعرفة" أول أقسام هذا الكتاب .

بدأ ابن قتيبة هذا القسم بباب أسماء "باب الحرفين يتقاربان فى اللفظ وفى المعنى ويلتبان ، فربما وضع الناس أحدهما موضع الآخر" .

ومثل لذلك ، بخلط الناس بين "الجُهد" الطاقة ، وبين "الجَّهد" المشقة ، والخلط الحامل بين "عُرض الشيء" احدى نواحيه ، وبين "عَرَض الشيء" خلاف طوله ، وقد أورد المؤلف كثيرا من أمثلة ذلك ، حرصا منه على تتبع الصواب ، ونبد الخطأ ، وإشارة منه الى التفريق بين الالفاظ التى تتقارب فى اللفظ والمعنى .

ويورد المؤلف أبوابا كثيرة ، يقوم فيها أخطاء العامة من أمثلة ذلك ما يكون مهموزا والعامة تدع الهمز ، والعكس من ذلك ، وباب مايشدد والعامة تخففه ، والعكس ، وباب ما جاء ساكنا والعوام تحركه ، والعكس ، ويسترسل ابن قتيبة فى تعداد أخطاء اللسان وتصحيحها على ضوء ما رأينا من طريقته فى ذكر الصحيح ، والاحتجاج له بالقرآن وبشعر الأواشل من الشعراء .

ويختتم المؤلف هذا القسم ببابين :

أولهما : ما يغير من أسماء الناس .

وثانيهما : ما يغير من أسماء البلاد .

من أمثلة الباب الأول "وهب" مسكن الهاء ولا يفتح ، و"كسرى" بكسر القاف ولا يفتح ، و"رؤبة" بالهمز ، و"بنو عائش" ولا يقال "بنو عائش" وهكذا ..

ومن أمثلة الباب الثانى التى أوردها ابن قتيبة "البصرة" مسكنة الصاد ، وكسرهما خطأ ، و"دمشق" بفتح الميم ومثل "فلسطين" بكسر الفاء ، و"إرمينية" بكسر الالف .

أما القسم الأخير ، والمسمى "كتاب الأبنية" فقد قسمه المؤلف الى قسمين :

(أ) أبنية الأفعال

(ب) أبنية الأسماء

(أ) ويقسمه ابن قتيبة الى أبواب كثيرة ، بداهه باب فَعَلْتُ وأَفْعَلْتُ باتفاق المعنى ، ومثل له بأمثلة عديدة من مثل

قوله "فأء القمر" و"أفأء" .

ويتلوه باب فَعَلْتُ وأَفْعَلْتُ ، باتفاق المعنى واختلافهما

فى التعدى . ومن أمثلة هذا الباب "رفقت به وأرفقته" .

ومن أبواب أبنية الأفعال ، "باب أفعلت الشئ عرضته

للفعل" وممثل لذلك بقوله "أقتلت الرجل عرضته للقتل" ،

و"أبعث الشئ" عرضته للبيع وكذلك "باب أفعلت الشئ وجدت

كذلك" ، أتيت فلاناً فأحمدته وأذممته وأخلفته ، أى وجدت

محموداً ومذموماً ومخلفاً .

ومن أبواب أبنية الفعل أيضاً "أفعل الشئ" حان ،

ومثال ذلك "أركب المهر" أى "حان أن يركب" .. وهكذا يسير

ابن قتيبة فى أبواب أبنية الأفعال .

وبعد أن أورد ابن قتيبة أبواب أبنية الأفعال ، يعقد

عدة أبواب أخرى يتحدث فيها عن معانى "أبنية الأفعال" ،

ويستعملها "باب فَعَلْتُ" ومواضعها ، يذكر أن هذا الوزن يأتى

بمعنى "أفعلت" كقولك "خبرْتُ وأخبرتُ" ، ويشير ابن قتيبة الى

أن "فعلت" تدخل على "أفعلت" اذا أريد تكشير العمل

والمبالغة مثل قولك "أجدت وجودت" .

وقد تسأتى "فَعَلْتُ" مضادة "لأفعلت" وذلك نحو "أمرفته"

بمعنى فعلت به فعلا مرض منه ، و"مرضته" بمعنى قمت عليه فى مرضه .

وعلى هذا المنوال يسير فى بقية معانى أبنية الأفعال ، التى أوردتها .

(ب) أبنية الأسماء :

وخطا فيها ابن قتيبة على نحو ما فعل فى "أبنية الأفعال" بدأ المؤلف أبنية الأسماء "باب ماجاء من ذوات الثلاثة فيه لغتان فَعَلٌ وفَعِلٌ" ، ومثل لذلك بقوله "طريق يَبَسُّ وَيَبَسُّ" ، واستشهد ابن قتيبة بقوله تعالى : {فأضرب لهم طريقا فى البحر ييبسا} (*) .

ومن الأبواب التى يوردها المؤلف فى "أبنية الأسماء" باب ماجاء على فعال وفيه لغتان بفتح الفاء وكسرهما ، وضرب لذلك عدة أمثلة منها "صَدَّاقُ المرأة ومِداقها" ، ومنه كذلك "باب ماجاء على مفعول وفيه لغتان" بفتح العين وكسرهما . ومثل لذلك بقوله "مَغْسَلُ الموتى" حيث يفسلون ، و"مَغْسَلٌ" ومن أمثلته أيضا "المَحْشَرُ" و"مَحْشَرٌ" .

وأورد المؤلف بابا لما يضم ويكسر ، ومنه "الْقُرْطُمُ" و"الْقِرْطُمُ" ، و"نِمْرَقَه" و"نَمْرَقَه" ، وذكر أيضا ما يضم ويفتح ، ومثل له بقوله "قوم كُسَالَى وكَمَالَى" ، وذكر كذلك "مايكسر ويفتح" ومثاله "مَنْجَنِيْقٌ" و"مَنْجَنِيْقٌ" .

ومن الأبواب الهامة فى "أبنية الأسماء" باب ما يقال بالياء والسواو ، ومن أمثلته ، قولك بينهما "بون" و"بين" وعلى هذه الشاكلة يسير فى أبواب قريبة منه .

ومن أبواب هذا القسم ، "باب ما جمعه وواحد سواء" وذلك مثل "الْفُلُك" السفن ، واحدها "فلك" ويستشهد بقوله تعالى : {فى الفلك المشحون} . (*)
أخيرا ، أود أن أنوه الى أن مذكرته ، ليس استقضاء لكل ما فى الكتاب من أبواب والا كان الأمر تلخيضا ، ولكنها اضاءة لأهم مواضعه وأبرزها .

(ج) المنهج الذى اتبعه ابن قتيبة :

بعد أن رأينا محتويات "أدب الكاتب" آن لنا أن نستشف المنهج الذى سار عليه ابن قتيبة فى إبراز هذه المادة .
(١) أول ما صنعه ابن قتيبة فى منهجه لهذا الكتاب ، تقسيمه الى أربعة أجزاء أسمى كل قسم منها "بالكتاب" وهى :

(أ) كتاب المعرفة

(ب) كتاب تقويم اليد

(ج) كتاب تقويم اللسان

(د) كتاب الأبنية

وهذا التقسيم يوحى بالترتيب لعرض محتويات الكتاب بطريقة تجعل الافادة منه سهلة وميسورة .

(٢) يباشر فكرته دون مقدمات ليدفع السأم عن القارئ كما ذكر هو فى مقدمة الكتاب .

(٣) اتكأ كثيرا فى منهجه على الاستشهاد بالقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وأقوال أهل اللغة ، وشعر الأوائىل من الشعراء .

وقد لا تخلو صفحة من صفحات هذا الكتاب الا وجدنا
استشهادا بآية أو شعر .. وكان ذلك من أبرز أساسيات منهجه
فى الاقتناع ، ودقة ما يأتى به من علوم ، ولكنه أكثر من
استشهاده بالقرآن فى حديثه عن الأزمنة والشهور ، كما أنه
عول كثيرا على شعر الشعراء فى ذكر أوصاف الخيل ، ولعل ذلك
يعود الى قوة الصلة بين العربى الشاعر وبين الخيل .

وقد يجمع بين الآيات القرآنية ، والشعر ، وأقوال أهل
اللغة ، والأحاديث النبوية فى الاحتجاج لما يراه موابا
والناس تخطئ فيه .

أمداء "أدب الكاتب" :

لقى هذا الكتاب من القبول والرضا ما لم يلقه غيره من
الكتب ، اذ عده شيوخ ابن خلدون من أعمدة الادب ، يقول ابن
خلدون فى مقدمته :

"وسمنا من شيوينا فى مجالس التعليم أن أصول هذا
الفن وأركانه أربعة دواوين ، وهى : "أدب الكاتب" لابن
قتيبة ، و"كتاب الكامل" للجبرد ، و"كتاب البيان والتبيين"
للجاحظ ، و"كتاب النوادر" لآبى على القالى ، وما سوى هذه
الأربعة ، فتوابع لها ، وفروع عنها" (١) .

وحكم شيوخ ابن خلدون على كتاب ابن قتيبة ، لم يرق الا
على أساس ثابت وقويم ، ومدر الحكم منهم عن اقتناع ودراية
به ، لأن "أدب الكاتب" من الكتب المبتكرة فى موضوعها ،
ولما احتواه من معارف جمة وعلوم أساسية ، لا يجدر بالكاتب

(١) المقدمة ص ٥٥٣، ٥٥٤ .

بعد ذلك تجاهله وإهماله ، فهو من القواعد الصلبة لتكوين ثقافة الكاتب .

ومن الأمثلة المباشرة لهذا الكتاب ، تلك الشروح التي تناولته بالدرس ومن أبرزها كتاب "الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب" لأبى عبد الله محمد بن السيد البطليوسى . (*)

قسم البطليوسى كتابه الى ثلاثة أجزاء رئيسية :
الجزء الأول : وتناول فيه خطبة ابن قتيبة بالشرح والتفصيل ، من أول كلمة فيها الى آخر كلمة ، ويشير الى دلالة الكلمات السوارة ، ويستشهد على صواب رأيه بالقرآن الكريم ، وأقوال أهل العلم .

ثم يختتم هذا الجزء بذكر أصناف الكتاب ، ومراتبهم ، وما يحتاجه كل فئة منهم من ثقافة ، يقول فى ذلك : "غرضى فى كتابى هذا ، تفسير خطبة الكتاب الموسوم "بأدب الكاتب" وذكر أصناف الكتب ومراتبهم ، وجل ما يحتاجون اليه فى صناعته" .

الجزء الثانى : وهو الأهم ، يبحث فى متن الكتاب ، ويقسم البطليوسى هذا الجزء الى عدة أقسام :
(١) ما غلط فيه ابن قتيبة .

فيشير البطليوسى الى ذلك ، وينبه على غلظه ومن أمثلة ذلك ، "المئاتم" يقول ابن قتيبة كما رأينا سابقا ، أن "المئاتم" النساء يجتمعن فى الخير والشر ، والبطليوسى يراه

(*) البطليوسى : عبد الله بن محمد بن السيد ، من العلماء باللغة والأدب ، ولد ونشأ فى بطليوس فى الأندلس وانتقل الى بلنسية فسكنها ، وتوفى بها ، من كتبه "الاقتضاب" و"المسائل والاجوبة" وغيرها . (٤٤٤-٥٢١هـ) .
الاعلام ١٢٣/٤ .

فى الرجال أيضا ، واستشهد بما حكاه كراع وابن الانبار عن
الطوسى ، وأنشد :

حتى تراهنّ لديه قُيما كما ترى حول الأمير المائما
ومن سقطات ابن قتيبة التى تقماها البطليوسى تفسيره
"للعرض" ، فسأبن قتيبة كما رأينا ، يذهب الى تخطئة الناس
فى قولهم أن سلف الرجل ، من آبائه وأمهاته .

يقول البطليوسى فى توضيح وتفصيل هذه المسألة :
"اختلف الناس فى حقيقة العرض . فقال قوم : عرض الرجل
آبؤه وأسلافه ، وقال قوم : عرضه : ذاته وهو الذى اختاره
ابن قتيبة " .

ويستكمل البطليوسى قوله :
وكان ينبغى له أن يختاره ، ألا ينكر قول من قال : انه
آبؤه وأسلافه لأن كل واحد من القولين صحيح له حجج وأدلة .
وهكذا يللم أدلته وحججه على صحة ماذهب اليه ، كدأبه
فى كثير من المسائل التى أوردها ابن قتيبة .
ومن المسائل التى لم يدقق فيها ابن قتيبة تفريقه بين
"الخلف" و"الكذب" قال : الكذب فيما مضى .. والخلف فيما
يستقبل .

قال البطليوسى ، هذا الذى قاله هو الأكثر والأشهر ..
وقد جاء الكذب مستعملا فى المستقبل ، ويستأنس بقوله تعالى
(*)
{ذلك وعد غير مكذوب} .

وهكذا يورد البطليوسى كثيرا من مسائل ابن قتيبة
ويفملها ويذكر الأوجه الأخرى التى أغفلها ابن قتيبة ،

وأحيانا يخطئه تماما ومن ذلك تخطئته لابن قتيبة فى تفسيره للاخطل ، قال ابن قتيبة : الاخطل من الخطل ، وهو استرخاء الاذنين .

قال البطلانيوسى فى بيان ذلك : "لا أعلم أحدا ذكر أن الاخطل كان طويل الاذنين مسترخيهما ، فيقال أنه لقب الاخطل لذلك ، والمعروف أنه لقب الاخطل لبذاءته وسلطة لسانه ، وذلك أن ابنى جعيل احتكما اليه مع أمهما فقال :
لعمرك إننى وابنى جُعيل وأُمّهما لاستارٌ لنّيم
فقليل له : انك لاخطل ، فلزمه هذا اللقب .

ومن المسائل الأخرى التى ذكرها ابن قتيبة قوله فى باب النبات .. "النَّور من النبات الأبيض ، والزهر : الأصفر ، يكون أبيض ثم يصفّر" .

والبطلانيوسى يعدها من سقطاته يقول : حكى أبو حنيفة : أن الزهر والنور سواء .

وهكذا يسير البطلانيوسى فى نقده ، وأغلب متآخذه على ابن قتيبة تتجلى فى إهماله للروايات الأخرى .. إذ لايعتد ابن قتيبة إلا بالرواية التى يذكرها غالبا .

ومن أقسام هذا الجزء بالاضافة الى القسم السابق ، صايلى :

(٢) أشياء اضطرب فيها كلامه ، فأجاز فى موضع من كتابه ، مامنع فيه فى آخر .

(٣) أشياء جعلها من لحن العامة ، وعوّّل فى ذلك على صارواه أبو حاتم عن الأصمعى ، وأجازه غير الأصمعى بن اللغويين كابن الأعرابى ، وأبى عمرو الشيبانى ، ويونس ، وأبى زيد ، وغيرهم .

ويستكمل البطليوسى كلامه قائلا : وكان ينبغي له أن يقول أن ما ذكره هو المختار ، أو الاصح ، أو يقول : هذا قول فلان ، وأما أن يجحد شيئا وهو جائز ، من أجل انكار بعض اللغويين له ، فرأى غير صحيح ، ومذهب ليس بسديد .

(٤) مواضع وقعت غلطا فى رواية أبى على البغدادي ، المنقولة إلينا ، يقول البطليوسى فلا أعلم أهى من ابن قتيبة ، أم من الناقلين عنه ؟

وقام البطليوسى بدراسة كتاب "أدب الكاتب" حسب أبوابه ويتضح من دراسته ، ما تمتع به البطليوسى من ثقافة وعلم غزيرين خولا له نقد كتاب من أشهر أربعة كتب ، هى أعمدة الأدب .

والجزء الثالث والآخر من كتاب "الاقتضاب" موضوعه الأبيات التى استشهد بها ابن قتيبة .. يقوم هذا الجزء على شرح غريبها ، وذكر قائلها ما أمكنه ذلك .. ويعد هذا الجزء من أكبر أجزاء الكتاب .

وأهم ما يلاحظ عليه ، دقة البطليوسى فى البحث والاستقصاء .

ويعد "أدب الكاتب" للمولى من أصداء كتاب ابن قتيبة ، فلسواه لما رأينا كتاب المولى ، ودلى على ذلك تعريف المولى بكتاب ابن قتيبة فى المقدمة كما أشرت فى صفحات سابقة .

(٢) "أدب الكاتب" للمولى .

ويمثل هذا الكتاب الشق الثانى لهذه الموازنة ،
وسأدرسه على ضوء النقاط السابقة التى استخدمتها فى دراسة
"أدب الكاتب" لابن قتيبة .

(أ) سبقت الإشارة الى المولى فى مقدمة الباب الثالث حيث
ذكرت فيها أهم الأمور التى شمر بها ، ومن أبرزها تتبع
أخبار الناس ، والتأليف ، ولاخفاء فى أن الثانية
امتداد للأولى ، أى أن أخبار الناس كانت مادة تمانيفه
وهذا يدل على أن مكانة المولى فى التأليف لاتقل بحال
عن مكانة ابن قتيبة ، فكلاهما مؤلف خبير ، قد عرّكته
التجربة ، وأنجحته الموهبة .

(ب) محتوى الكتاب :

قسم المولى كتابه الى ثلاثة أجزاء :

أولها : وتحدث فيه عن الكتابة ، وشرفها ، ورفعة
مكانتها ، وأخذ يورد بعض الآيات التى تبين ذلك من مثل قوله
تعالى : {اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ،
اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم
يعلم } (*) ، ومثل : {وان عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ،
يعلمون ما تفعلون} (**) ، وقد أورد بعض أقوال الشعراء ، زيادة
فى الترغيب ، كقول الشاعر :

(*) سورة العلق : ١-٥
(**) سورة الانفطار : ١١ وما بعدها

ان الكتابة رأس كل مناعة

وبها تتم جوامع الاعمال

فهو لم يترك طريقا الا وسلكه فى الدعوة لها وبيان
فصلها ، ورفع شأنها ، كل ذلك بأسلوب مشرق ، وهى بداية
مشهية للحض على اتقانها ، وانفاق العمر فى طلبها .

وبعد كلامه عن الكتابة وفضلها ، يعود الى ما قبل ذلك
بعدة قرون ، يبحث عن أول من كتب بالعربية ، ويذكر بعض
الروايات ولا يكاد ينتصر لرأى على آخر ، بل يتركها للقارئ
كما هى ، فرواية تقول انه آدم ، وأخرى تقول انه اسماعيل ،
والثالثة تذكر أنهم قوم من الأوائل ، والرابعة مرامر بن
مرة ... وهكذا . (*)

ثم أعقب ذلك بالبحث عن أصل كتاب بسم الله الرحمن
الرحيم وابتدائه ، فذكر كيفية اكتمالها بهذا الشكل ، وذكر
أيضا اجماع القراء وكتاب المصاحف على حذف الالف من "بسم
الله" ، واستنكاره لحذف السين .

ويتبع النقطة السابقة بحديثه عن "أما بعد" وأول من
قالها ، فرواية تقول انه كعب بن لؤى ، وأخرى تقول انه
داود النبى عليه السلام ، وهو فى ذلك يكتفى بعرض الروايات
دون الانتصار لرواية على أخرى كما هى عادته .

وأشار المؤلف الى مايتى من الدعاء بعد "أما بعد"
وترتيب ذلك حسب المقام .. فالدعاء للخليفة يختلف عن

(*) ولعل الرواة ، وأهل التحقيق لم يتبينوا حقيقة الأمر
فى بدء الكتابة ، فهذا المسعودى فى مروج الذهب
١٤٣/٢ يذكر بعض من ذكروا بأنهم أول من كتبوا
بالعربية ، ويعقب ذلك بقوله "وقد قيل غير ذلك ، على
حسب تنازع الناس فى بدء الكتابة" .

الدعاء لغيره من الوزراء .

ومن أهم ما أورده المولى فى هذا الجزء حديثه عن الخط واستشهاده بأقوال أهل هذه الصناعة ، من مثل قول يحيى بن خالد قال فى الخط : " الخط صورة روحها البيان ، ويدها السرعة ، وقدمها التسوية وجوارحها معرفة الفصول " . واستأنس بقول اقليدس قال : " الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية " .

وأكثر فيما أورده من الأوصاف النثرية فى الخط ، وأعقبها بما قيل فى حسن الخط من الشعر ، وكلها تدعو الكاتب الى الاهتمام به ، والرقى به الى مستوى الفن الذى يحتاج الى المنعة والصوابة .

وكما ذكر الأقوال النثرية والشعرية فى حسن الخط ذكر مثل ذلك فى قبح الخط ، لينفر منه ، لأنه منقصة تؤخذ على الكاتب ، وختم هذا المبحث بوجوب الاهتمام بالخط ، وما قيل فى ذلك .

ومن متعلقات الخط "النقط والشكل" ذكر متى يستحب الشكل ومتى يكره ، وبعض التمحيص الناتج عن ترك النقط والشكل ، مثل من صحف "حاصرطى" الى "جاصرطى" ومثل تمحيص "البريدى" الى "الثريدى" . . . وغيرها مما أورده من سقطات على أصحابها .

ولم يفت المولى الإشارة الى "الحروف التى شبهت الشعراء بها" .

والقلم لا يقل أهمية عن الخط ، لأنه الاداة التى يكتب
بها ، لذا أولاه المولى جزءا من اهتمامه ، فأورد وصف القلم
نثرا ، وأعقبه بما جاء فى وصفه شعرا ، ومن هذه الأوصاف
النثرية التى استأنس بها ليدلل على مكانة القلم عند
الكتاب ، قول ابن المقفع "القلم بريد القلب" ، ومن مثل
قول عمرو بن مسعدة "الأقلام مطايا الفطن" ، وقال المأمون
فيه : "لله در القلم كيف يحوك وشى المملكة " .
وغيرها كثير من الأوصاف التى أوردها المؤلف .
ويستأنس المولى بكثير مما ورد على ألسنة الشعراء من
وصف للقلم ، كقول أبى تمام :
لك القلم الأعلى الذى بشباته
تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه
وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل
وقد يشبهون أشياء أخرى بالقلم كقول الشاعر :
تزجى أغن كان ابرة روقه
قلم أصاب من الدواة مدادها
وأظننى المولى فى إيراد أقوال الشعراء فى وصف القلم ،
وصايحسب أن يكون عليه .

الجزء الثانى :

وقد استشهد بالحديث عن أدوات الكتابة ، وعادته يستشهد بما دارت به ألسنة الشعراء والكتاب ، ففى حديثه عن (الدواة) أول هذا الجزء يستأنس بقول بعض الكتاب فيها ، يقول :

قد بعثنا اليك أم المنايا والعطايا نجية الاحساب
تتزيا بصفرة وكذا الزنجر تزيا عجا بصفر الثياب
ريقها ريق نحلة مع صاب حين يجرى لعابها فى الكتاب
ويطيل فى ضرب الامثلة الشعرية لها ، ويتلوها
بمتعلقاتها مثل (الاقة/الدواة) ، و(الكرسف) ، ويأتى بما
قيل فيها دونما اطالة ، ويمل حديثه السابق بما يستأنس به
من أقوال بعض الكتاب فى وصف (الكرسف) و(الليقة) و(المداد)
يقول الكاتب فى ذلك :

"ليكن الكرسف فى نهاية ما يكون من السواد ، ولتكن الليقة التى فيها الكرسف فى نهاية اللين والنعمة ، والأجود أن تكون مستديرة ، فإن كانت كذلك أجزأ الكاتب أن يسميها روق القلم ، ولا يلحقه كلفة ولا إبطاء فى الاستمداد ، وإن حفر الموضع الواقع على الليقة من الغطاء ، وغشى بأرق ما يكون من الفضة حتى إذا أطبقت الدواة تجافى ذلك الموضع عن الليقة فلم ينله شيء من سوادها كان أدعى إلى النظافة والسلامة ، وأكثر (الدوى) لاتسلم ما لم تكن على ما وصفناه ، ويستأنس بقول القائل "المداد خضاب الرجال" .

ويُتحدث عن الحبر واشتقاقه ولايكاد يطيل فيه .

ثم ينقلنا الى أداة أخرى وهى القسطاس ويأخذ فى تعداد

أسمائه ، ويستشهد بقول العزيز المتعال فى تثبيت تلك
الأسماء ، وينتقل الى أوصافها فى الشعر دأبه فى استيفاء كل
موضوع على حدة .

واستكمل حديثه عن أدوات الكتابة ، ومنها "السكين"
واستأنس بقول الشاعر :

يامنتهى الفضل حليف الندى

وابن البهاليل الاكاريم

جد لى بسكينك ذاك الذى

(*)

لام لام ألف قاف لام ألف ميم

وبعد أن أنهى كلامه عن أدوات الكتابة ، انتقل الى
الأهم ، وهى الكتابة نفسها ، فتحدث عن الانشاء فعرفه ، قال
"انشاء الكاتب الكتاب ابتداء عمله على غير مثال يحتذيه"
واستأنس بقوله تعالى : {قل يحييها الذى أنشأها أول مرة}
(**)

ليؤكد ماذهب اليه فى تعريفه .

ومن أشر الكتابة "السطور" ولم يفته التنويه بها ،
وأعقبها بذكر "المشقة فى الكتاب" أى الاسراع فيه ، وهكذا
يتناول بعض متعلقات الكتاب كالزف ، وفن الكتاب ، والسخا
وهى القشر ، ويتحدث عن المحو فى الكتاب ، وعن عرض الكتاب
حتى لا يقع فيه خطأ ، وعن "الحن فى الكتاب" وأوضح أن اللحن
فيه أشنع بكثير من اللحن فى القول . ويستأنس المولى
بأقوال العلماء فى تأكيد فكرته ، يقول : قالت العلماء :
"أن اللحن فى الكتاب أقبح منه فى الخط" ، وأكثر العلماء

(*) الشطر الثانى من البيت الثانى يقمده به "اللاقلام" .
(**) سورة يس : ٧٦

يلحن فى كلامه لئلا ينسب الى الشغل والبغض .
وتناول بعد ذلك "التوقيع" بشئ من الايجاز ، واستشهد
بأقوال البلغاء فى الحث عليه ، من مثل قول جعفر بن يحيى
لكتابه : "ان استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا"
يريد بذلك حضم على الاجاز وطلبه .

وأشار الى التعليم فى الكتاب ، والاملاء ، والقصد منه
املاء الكتاب ، وعن طى الكتاب ودرجه .

ونقلنا المولى الى "الخاتم" وسببه وما قيل فيه ،
مشيرا فى هذا المبحث الى أن الرسول صلى الله عليه وسلم
اتخذ الخاتم فى مكاتباته الى ملوك الأرض ، وانتقل خاتمه
صلى الله عليه وسلم الى الخلفاء من بعده الى عثمان بن
عفان رضى الله عنه ، وأنشئ فيما بعد "ديوان الخاتم" فى
عهد معاوية .

وتحدث عن "العنوان" ، والعنوان عنده العلامة كأنك
علمته حتى عرف ، واستأنس بقول حسان بن ثابت فى رثاء عثمان
ابن عفان قال :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به

يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

قال المولى : قالوا : والأحسن فى عنوان الكتاب الى
الرئيس أن يعظم الخط ويفخمه .

ثم أعقب ذلك بذكر المقادير التى يكتب فيها من
القراطين .. فذكر أن الأئمة يوقعون فى السجلات ويكتب الامام
فى الثلثين من الطومار الى ملك الملوك ، ويكتب عماله اليه
فى مثل ذلك . ويكتبه وزيره فى النصف فى أمور العامة

الديوانية ، أما الإكفاء فى الأثلاث والأرباع ، وتحمل المودة
بينهم كل شيء ، والأسداس للتوقيعات ، وقد يكتب فى الظهر ،
وحذر المولى منها ، ولعل فيها من المغازى القبيحة
مالانحيطه تماما ، كقول القائل :

كتبت فى ظهر لعلى ومعرفتى بحبك للظهور

والمسح للدعاء فى المكاتبة ، وترتيبها ، والزيادة
والنقص فيه ، وفيه يشير الى اختلاف الادعية حسب المقام ،
فلكل مقام مقال - سبق أن تحدثت عنه فى الجزء الأول ،
ولأعلم سببا لتكراره سوى زيادة الإيفاح والتفصيل .

ويشير المولى الى ضرورة إعطاء كل ذى حق حقه من
الدعاء ، لأن النقص فى الدعاء يسبب التناقص كما حمل بين
ابن الزيات ، وإبراهيم المولى ، وذلك لأن ابن الزيات نقص
إبراهيم ما يستحقه من الدعاء .

وأورد المولى بعد ذلك ما يتكاتب به الناس فى عصره ..
وبين فيها الأصول المتبعة فى الادعية .

ومن مباحث الادعية التى أوردتها المؤلف فى هذا الجزء
على غير تنظيم "دعاء المكاتبات وأصوله وماحمد منه وذم"
فنجدها مبعثرة فى أنحاء .

وجاء قبله "تحرير الكتاب" وقراءته بعد كتبه ، وقد
أشار اليه فيما مضى والهدف من ذلك والحرص على توخى المواب
والنأى عن الخطأ .

وأشار الى ما جاء فى رد جواب الكتساب والحض على
التكاتب ، فيروى عن ابن عباس أنه قال : أرى رد الجواب كرد
السلام ، وذلك حض على أهمية الرد .

وذكر المولى من تعاطى الكتابة وادعاهما وهو لا يحسنها ،
واستأنس بقول القائل :

حمار فى الكتابة يدعيها كدعوى آل حرب من زياد
فدع عنك الكتابة لست منها ولو غرقت ثوبك فى المداد
فالكتابة كالشعر كلاهما لايجود ويجمل بغير موهبة .

ولم يهمل المولى التاريخ وما قيل فيه ، وذلك لأهميته
فى المكاتبات ، يقول : تاريخ كل شئ غايته ووقته الذى
ينتهى اليه . . . ثم يعود الى ذكر استخدام العرب النجوم
للتاريخ قديما ، ويشير الى أن العرب كانت تؤرخ بكل عام
يكون فيه حدث مشهور متعارف كعام الفيل مثلا .

وأشار الى الترجمة بايجاز ، وذكر "الديوان" وأصله
الفارسى ، وسبب انشائه فى عهد الصديق ، وختم هذا الجزء
بذكر تحويل الديوان من الفارسية الى العربية .

الجزء الثالث :

استهله ، بالحديث عن "وجوه الاموال التى تحمل الى بيت
المال ، وأصنافها ، ولمن تجب" .

وأخذ يعدد الاموال ، وقسمها الى ثلاثة أقسام :

(١) الفى ووجوه خمسة .

(٢) والمال الثانى "الخمسة" ووجوه أربعة .

(٣) والمال الثالث "الصدقة" ، وفصل القول فيها .

وتلاه بذكر أسنان الابل ، والغنم ، والبقر ، والخيول ،
على نحو من طريقة ابن قتيبة ولكنها هنا بايجاز ، ويعدد
أسماء كل نوع حسب عمره ومرحلته ، ويشير الى أن الكاتب
لايستغنى عن معرفتها .

وأعقبه بالحديث عن "أحكام الأرضين" وشرح أحكامها ،
وفصلها ، وذكر أن لها ثلاثة أحكام .

ثم ذكر "القطائع" واستأنس بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ، قال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطع جماعة من المهاجرين والأنصار من أموال بنى النضير ، وكانت صفيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يفته التذبيه عن "جزية رءوس أهل الذمة" وعلى من تجب ، وأشار إلى أنها تجب على الرجال من دون النساء ، وعلى تجارتهم . ويتحتم على المسلمين حمايتهم . وأخبرنا المولى إلى مبلغ ما كان يرتفع من الخراج .. فقد بلغ خراج الشام على عهد عمر رضى الله عنه خمسمائة ألف دينار . وذكر الجزية التي وضعها عمرو بن العاص على أهل مصر ، على كل انسان ديناران وثلاثة أراذب قمحا ، ونبه إلى السواد واختلاف الناس في خراجه .

وتحدث عن "القبلات" ، وهى عنده من التقبيل أى التأجير .

وفصل المولى وجوه صرف "مايفضل من المال" ، واستأنس بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده . ولازال المؤلف يتنقل بنا من مجال إلى آخر ، فذكر "مكاتبة المسلم وغيره" وأشار إلى السنة فى المكاتبة ، وهى أن يبتدىء المكاتب بنفسه على المكتوب إليه ، قال المولى : روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا كتب أحدكم فليبدأ بنفسه إلا إلى والد ووالدة أو إمام ، والكتابة إلى المسلم تختلف عن غيرها ، فيكتب إلى المسلم

"سلام عليك فانى أحمد الله الذى لآله الا هو" ، والى غير المسلم "والسلام على من اتبع الهدى" .

وعقد مبحثا ألحح فيه الى مدح الايجاز ، مستندا الى أقوال البلغاء فى ذلك من مثل جعفر البرمكى .

وأشار الى أصول مكاتبة الاخوان ، واستأنس بقول الحسن ابن وهب فى ذلك ، قال : كاتب رئيسك بما يستحق ، ومن دونك بما يستوجب ، واكتب الى صديقك كما تكتب الى حبيبك .

وقبل هذا ذكر الصولى مافى الانسان وغيره ، قال : وهذا شئ لايسع الانسان جهله ، ولذلك ذكرته ، وعدد مافى فم الانسان من أسنان على طريقة ابن قتيبة ، وهذا من الأدلة الكثيرة التى تدل على استفادته من كتاب ابن قتيبة .

وبعد ذلك عدد الأطعمة ومسمياتها حسب المناسبات على نحو ما ذكره ابن قتيبة أيضا .

وختم هذا الجزء بذكر القواعد الاملائية ، وأصول ذلك ، على طريقة ابن قتيبة ، غير أن الصولى أوجز فى ذكرها .

واهتمام النقاد بهذه القواعد ، التى تقوم على أسس كثيرة ، منها فهم اللغة وفقدها ، والنحو وعلله ، والمرف وببناء الكلمة ، كل ذلك يعطينا حقيقة ما ذهبت اليه فى أن الأساس الصحيح فى الكتابة الامام بكل تلك العلوم ومن ثم تأتى بعده الكتابة الخالية من الأخطاء .

(ج) طريقة عرض المادة "المنهج" :

(١) قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أجزاء :

أولها : واستهله بالكتابة وفضلها ، وتوابعها من ذكر

الخط .

ثانيها : أدوات الكتابة ، ومدى أهميتها للكاتب ،
وتعرض في هذا الجزء الى كثير من الموضوعات الأخرى ، ذكرتها
في مكانها من المحتوى .

ثالثها : أموال الدولة ، مصادرها ووجوه انفاقها ،
ومستحقوها ، وغيرها من موضوعات ذكرتها في مكانها أيضا .
يتفح من التقسيم السابق ، المنهج المرتب الذي انتهجه
المولى وهو أقرب الى المناهج الحديثة ، رغم أن وفاته كانت
في سنة ٣٣٦هـ ، وهذا الترتيب جعل الافادة منه سهلة وميسورة
دون عناء يذكر أو مشقة في ذلك .

(٢) وهو في أجزائه يميل الى الاختصار قدر ما أمكنه ، فيذكر
ما يراه ضرورة ملحة في ثقافة الكاتب ، ومن ذلك
مباشرة للفكرة دون ذكر السند غالبا لا كما تعودنا منه
من ذكر الاسانيد كاملة في كتب شتى .
يقول في ذلك :

"وقد اختمرت كتابي هذا جهدي ، غير تارك ما يحتاج اليه
فيه ولكنني أخرجت المعاني في أقواتها من اللفاظ ، وأسقطت
من أكثرها الاسانيد ، ليقرب على طالبه ، وينال بغير كلفة
(١)
ما أراد ، ولا تبعد أقطاره عنه " .

(٣) ومن أساسيات منهجه ، ميله الى اشباع الفكرة التي
يدعو اليها ، وذلك بتوكيدها نشرًا وشعرًا من أقوال
غيره ، كل ذلك حتى تتفح الفكرة وتنفجلى ، ويكون أدعى
الى بقائها في الذهن .

وقد لا يكتفى بذلك ، فيردف بعض الأشعار أو الأقوال التي يستأنس بها ، بأشعار له خاصة ، وكان هذا دأبه في كثير مما أورده في كتابه .

(٤) ومن أعمدة مذهبه ، ذكره للكثير من الروايات في الموضوع الواحد دون الانتماء لرأى على آخر ، بل يتركها كما هي ، يختار منها القارئ ما يراه مناسباً ، وهذه الطريقة تؤخذ عليه (في نظري) .

(٥) يغفل كثيراً ذكر أسماء الشعراء الذين استشهد بشعرهم ، وكذا الحال بالنسبة للكتاب ، ولا يذكرهم إلا لماماً .

(٦) بدأ المولى كتابه ببيان "فضل الكتابة" وشرفها ، ومكانتها ، معتمداً على ما ورد فيها من آيات وكلها تدعو إلى الترغيب فيها وهي بداية جيدة ، وتمهيد لما بعدها ، ولعلها أنسب ما يبدأ به في كتاب مثل هذا .

أوردت في الصفحات الأولى من هذا المبحث رسالة عبد الحميد إلى الكتاب وكان له في رسالته ، مسلكان مهمان : أولهما : شمولية ثقافة الكاتب .

ثانيهما : أخلاقيات الكاتب .

وهذان العنصران يكملان بعضهما البعض عند عبد الحميد ، ولا يحسن الاقتصار على أحدهما دون الآخر . فالتكامل بينهما ضرورة واجبة ، وتساءلت قبل هذا الموضوع هل سلك ابن قتيبة والمولى طريق عبد الحميد في الاهتمام بكل الناحيتين أم لا ؟

والاجابة تتلخص فيما يلي :

(أ) ابن قتيبة والمولى اهتما بثقافة الكاتب من الناحية اللغوية ، ولم نجد لديهما شمولية الثقافة كما وصى عبد الحميد الكاتب .

(ب) أغفلا تماما المسلك الثانى ، رغم أهميته ، فالأخلاق هى البناء السليم ، والركن الحصين ، وبه تكتمل شخصية الكاتب وغيره ، والعلم اذا كان بمعزل عن الخلق لا أتصوره يعطى أكله ، وتعم فائدته .

وليس معنى ما ذهب اليه أنهما ينكران الشمولية والأخلاق بل ربما يراها ضرورة فى الكاتب ، ولكن القصد أنهما لم يوردا شيئا من ذلك فى كتابين يعدان من أعمدة الكتب التى تبحث فى ثقافة الكاتب ، وهى أولا وأخيرا موجهة الى بناء ثقافة الكاتب ، وقد بذلا فيهما جهدا مشكورا .. وكان الأولى فى تصورى أن يهتما بها وذلك بايراد نماذج محدودة تدعو الى ذلك .

الموازنة .

الحق أن لكلا الكتابين قيمته الفنية والنقدية ، وقد وجدنا في ظل الاهتمام بالنثر ، حتى أصبح يسامق الشعر ، كيف وقد أضحت النثر لغة النضوج الفكرى والحضارى ، والمعياري القوى لتقدم الشعوب ورقيا .

واقامة هذه الموازنة بين كتابين يمثلان قمة الهرم الثقافى للكاتب فى حقبة من الزمن تعطينا دلائل فى غاية الاهمية .. ومن أبرزها نرى ما اذا كان النقاد متفقين على شقافة مقننة يلزمون الكاتب بها اذا ما اراد الرقى بفكره وصنعتة الى المستوى المطلوب ؟

أم أن ذلك الأمر غير متفق عليه ، ولا تحكمه معايير ، ولايسير على نهج ، بل كل ناقد يعدد من الشقافات ما يراها هو ومع ما يتفق وميوله وفكره ؟

ولاجابة على هذه التساؤلات ، يمكن القول أن كثيرا من النقاد متفقون على الخطوط الرئيسة فى شقافة الكاتب .

وقد تكون هنالك فروقات كل حسب ما يراه ، وأبرز ما يمثل هذه النقطة كتابى ابن قتيبة والمولى ، وسنتناولها بالدرس ان شاء الله .

الموازنة بين شيئين ، تعنى الاتفاق بينهما أو الاختلاف.

(١) أوجه الائتلاف والاختلاف فى النقاط التالية :

(أ) العنوان :

اتفقا فيه الى حد ما ، فكتاب ابن قتيبة "أدب الكاتب" وكتاب المولى "أدب الكتاب" .

فالإتفاق بينهما حصل فى كلمة "أدب" والاختلاف حصل فى الميغة فقط ، اذ استخدم ابن قتيبة ميغة الافراد ، والمولى صيغة الجمع ، والذى أميل اليه أن اختلاف الميغة بين الافراد والجمع يدلنا اىحاء على أن الافراد أنحى للغاية الفنية من ميغة الجمع . فابن قتيبة يصب اهتمامه على ما هو الصق بالحاجة الفنية للمنشء سواء من حيث الثقافة العامة التى يوجب الالمام بها أو من حيث اللغة فقها ودلالة ورسم .

أما المولى فميغة الجمع عنده اذا قارناها بما أورد فى بعض أقسام كتابه تشعرنا بأنه يصب اهتمامه على صنعة الكتابة بين كتاب الديوان ، وما ينبغى أن يكون عليه برى القلم ، والمداد ، وطول القرطاس وعرفه ، ومسطرته ، والخط ورسومه ..

لكن اذا كان "أدب الكاتب" أدخل بمحتواه فى طبيعة الكتابة الفنية ، "فأدب الكاتب" يدهشنا ويرومنا بما اشتمل عليه من تقاليد النسخ وآداب الكتابة .. لأن المعايير التى تحدث عنها المولى فى هذا المجال تقطع بحقيقة الرقى الحضارى الذى انتهت اليه صناعة الكتابة عموما ، وصنعة النسخ خصوصا فى تلك الحقبة ، انها مؤثر مهم لنوعية الصنعة وتقاليدها الكثيرة الدقيقة ، وللعفاوة البالغة بها فى زمن صار فيه للكتابة بضروبها المختلفة شأن عظيم .

(ب) المحتوى :

الاختلاف فى المحتوى يفوق كثيرا الاتفاق بينهما ، ولعل هذا مادفع المولى لانتقاد ابن قتيبة فى مقدمة كتابه .

التباين بين محتوى كتابيهما يمكن ايجازه فى النقاط

التالية :

- (١) لم يشر ابن قتيبة الى الكتابة وفضلها ، وأدواتها ، ولم يذكر كثيرا من متعلقات الكتابة .
 - (٢) وفى المقابل أهمل المولى ذكر بعض المعارف كالتي أوردها ابن قتيبة ، ولاشك فى أنها تفيد الكاتب وتشرى ثقافته . كما اهتم بأخطاء اللسان .
 - (٣) أغفل المولى الابنية بقسميها ، عكس ابن قتيبة الذى أفرد لها جزءا من كتابه ، واستوفاهما تماما .
- أما أبرز وجوه الخلاف بينهما فتتمثل فيما يلى :
- (١) ذكرا القواعد الإملائية ، وان كان ابن قتيبة قد أفرد لها جزءا كبيرا من كتابه ، عالج فيه الكثير من مسائله ، عكس المولى الذى أوردها بإيجاز فى آخر كتابه .
 - (٢) المولى خصص الجزء الثالث والآخر من كتابه ، فى الحديث عن الأموال ووجوه مرفها ، عكس ابن قتيبة فلم يعرها أى اهتمام .

(ج) المنهج :

الاختلاف بين منهجيتهما :

- (١) كلا المؤلفين كان خبيرا بالتأليف ، بصيرا بدقائقه ، لذا فأنى وجدت تشابها كبيرا بين طريقتيهما فى عرض المادة بشكل منظم ، فابن قتيبة يقسم كتابه الى أربعة أقسام ، والمولى الى ثلاثة أقسام .

(٢) يعتمد المؤلفان كثيرا على القرآن الكريم ، والاحاديث وأقوال أهل اللغة ، وشعر الأوائل فى التذليل على صحة ما يذهبان اليه ، وهذه الأمور من الوسائل الاقناعية المعتدة ، والموشوق بها .

(٣) ويميلان الى الاختصار ، ويذكران ما يروونه ضرورة للكاتب وان كان المولى أميل الى الإيجاز من ابن قتيبة .

الاختلاف :

(١) ابن قتيبة يباشر فكرته دون ذكر أسانيد على الإطلاق ، أما المولى فرغم أنه لم يكثر منها كعادته إلا أنه ذكر منها الشيء اليسير فى مواطن مختلفة من كتابه .

(٢) يورد المولى بعض الروايات فى موضوعات شتى ، ولا يكاد ينتمز لاحداهما على الأخرى بل يتركها على حالها .

أما ابن قتيبة فإنه يذكر ما يراه صحيحا كل الصحة ويؤكد به بأدلة الشئ يعتمد عليها من آيات وشعر .

أى أن شخصية ابن قتيبة فى كتابه أوضح من شخصية المولى فى كتابه .

نتائج الدراسة

ليس من اليسر ولامن السهولة بمكان البحث عن أسر ثلاث ، ذات عراقة فى التاريخ أدبيا ، وسياسيا ، واجتماعيا . فقد كلفنى الدرس جهدا جهيدا ، ووقتا طويلا ، وأناة ، وتدقيقا ، وتمحيما ، حتى استطعت بعد لآى بفضل من الله أن أخرج بهذا الشكل الذى أَرْضأنى وأطمعنى فى رضاء أساتذتى عنه ان شاء الله .

وفى الختام ظفرت ببعض النتائج التى لفتت نظرى خلال الاستقراء والدرس ، ورأيت اثباتها .

أولا :

كان من ثمرة دراسة العلائق بين كل أسرة وأخرى نتائج غاية فى الأهمية فقد أثبتت الدراسة قوة الصلات أدبيا بين كل أسرة وأخرى ، فال سهل أفادوا كثيرا من طريقة البرامكة فى الكتابة ، وآل مول أفادوا من البرامكة حيناً ، ومن آل سهل حيناً آخر ، هذا الامتزاج الحاصل بين الأسر ، والتعاون الأدبى بينهم ورث خصائص متحدة ، فقل أن تجد لأسرة خصائص تميزها عن غيرها ، إلا ما قد يجلبه الاستعداد الأدبى الخاص ، والموهبة لكاتب بعينه ، كجعفر البرمكى من البرامكة الذى شهر بالايجاز ، وعمرو بن مسعدة تلميذ جعفر من آل مول الذى اشتهر بالايجاز أيضا ، بالإضافة الى شهرته بالتعريض ، وحسن تمرقه ، ولباقته فى كتاباته ، حتى أضى التعريض أبرز سمات الرجل ، وإبراهيم المولى الذى كثرت تحميداته على مذهب أستاذه مبتدع هذه الطريقة (عبد الحميد الكاتب) فهذه سمات

خاصة تثبت لأصحابها ، أما السمات العامة لكتاباتهم فهي متقاربة أو متشابهة لقوة الصلات بينهم كما أشرت مع اتحادهم فى الأمل ، واتفاقهم فى الثقافة والديانة .

وأظهرت دراسة الصلات أيضا معرفة أستاذ عمرو بن مسعدة لآلى وجدت صاحب "أمراء البيان" قد دأهته الحيرة فى معرفة أستاذ عمرو بن مسعدة ، ولعله لم يعتبر الصلات السابقة ، ولو فعل ذلك لأدرك بجلاء أن أستاذه جعفر بن يحيى البرمكى دون عناء ، أو مشقة .

ثانيا :

قال النقاد قديما ، الأسلوب هو الرجل ، وأرى هذه المقولة مجسدة فى أدب هؤلاء الفرس ، فلباقتهم ، وذوقهم ، وحسن تصرفهم ، فى معاملة الخلفاء والأمراء انعكس أثرها على مآثورهم الفنى فى الكتابة ، فبدأنا نرى ضربا من النشر غير مألوف من قبل ، وأبرز من مثل هذا التيار الفنى الجديد عمرو بن مسعدة . الذى اشتهر بتعريفاته فى مكاتبة المأمون وكانت لروعتها ، وأدبها الجم تجد صدى طيبا فى نفس الخليفة وتجاوبا سريعا ، وقد أوردت كثيرا من تعريفاته هذه فى مكانها من البحث .

ثالثا :

اختلف النقاد والأدباء قديما وحديثا حول قضية اللفظ والمعنى ، فمنهم من أخذ بالمعنى ومنهم من أسره اللفظ ، أما طريقة هذه الأسر فى كتاباتهم فكان يأخذ منها وسطا بين بين ، فأولوا كلا الناحيتين جل اهتمامهم ، فرأينا الاحتراف بالمعنى مقرونا بجمال الأداء سمة نشرهم الفنى .

أتت الأولى من سعة اطلاعهم وتبحرهم فى الثقافات ، وأخص الثقافة الاسلامية ممثلة فى القرآن الكريم ، والأحاديث المطهرة ، والمأثور العربى عامة ، اضافة الى ثقافتهم الفارسية .

أما الثانية فانها تحاكى ذوقهم الفارسى .

رابعاً :

الايجاز سمة عربية قديمة ، تبنّاها أفراد هذه الأسر ، وأكثروا مذهباً حتى لكأنها سمة من سماتهم المبتكرة . بل انهم أخذوا يدعمون غيرهم من الكتاب اليها .

خامساً :

ليس من شك فى أن النثر الفنى أخذ فى الارتقاء والتطور بفضل جهود هذه الأسر . ودليل على ذلك أنهم تربعوا على إمارة النثر ، فكتبوا للخلفاء والأمراء حتى أفضى بهم ذلك الى تسنم المجد السياسى فى هذه الحقبة ، فكانوا يمثلون القوة الادبية والسياسية فى العصر العباسى .

سادساً :

لم ينس أفراد هذه الأسر أصولهم الفارسية ، وانتماءاتهم العرقية ، واحساسهم بشرف النسب ، وأصالة المعنن ، وهم مع ذلك يعيشون كالخدم للخلافة الاسلامية فكانت أطماعهم ترى ضرورة إعادة الأمجاد الكسروية الفائرة ، من هنا برزت سطوتهم على مقدرات الخلافة العربية الاسلامية فى العصر العباسى ، فأصبح الحكم الفعلى لهم دون الخليفة ، كما حدث للرشيد مع البرامكة ، وللمأمون مع ابن سهل ، مما نتج عنه وقوف الخلفاء بكل قوة وصلابة فى وجه هذه الأطماع ،

وما طاعة الرشيد بالبرامكة الا بعد احساسه بنفوذهم ، وغلبة أمرهم على أمره ، فكان من أمرهم ما سبق توضيحه ، وعلى شاكلته صنع المأمون مع ابن سهل فقتله بعد أن جاوز حده ، وبيان خطره ، وهكذا اصطدمت كل أحلام الفرس وأطماعهم بقوة الخلافة التى كانت تعيش فى أزهى عصورها ، وفى عنفوان شبابها .

سابعاً :

داخل البرامكة وآل سهل العرب ، ونهلوا من شقاقتهم ، وتخلقوا من أخلاقهم بما أدرك فضله وأثره من حولهم ، وكان من بين ماتخلقوا به الكرم احساساً بأن هذه السجية سبيل لامتلاك قلوب الناس ، والتأثير عليهم ، حتى أصبح السخاء من البرامكة كالظل من الانسان ، تذكر المصادر التاريخية والأدبية قمماً أقرب للخيال منها للواقع تحكى سخاءهم ، ولعل أنفسهم كانت تنطوى على أهداف سياسية فى إعادة الأمجاد الكسروية كما أشرت أنفساً ، ويكون البذل والعطاء وسيلة لتقريب الغاية ، فلا بد لهم من أشياع ولكى يتحقق ذلك فالسخاء أقرب الطرق الى استمالة الأنفس وتقريب الغايات .

هذا السخاء استدعى الشعراء من كل حدب ، وجلب أعنتهم فمدحوا البرامكة وآل سهل وأسهبوا فى ذلك حتى يمكن للمتتبع لتلك المدائح التى لهجت بها ألسنة الشعراء أن يكون منها دواوين ضخمة دون مبالغة فى ذلك ، أو تهويل ، فكأن ما قاله الشعراء فيهم من جميل المحاسن ، وطيب الصفات يعد وسيلة دعائية لهم .

وأخيرا :

من العجيب أن يظل أثر البرامكة على معاصريهم الأدباء موصولا حتى بعد أن قضوا نحسهم ، فنكسبتهم مدت المكتبة الأدبية بقصائد باكية تذوب معها النفس ألما وحسرة ، رغم أن الرشيد حرم على الشعراء رشاءهم .

وليس من شك في أن البرامكة وآل سهل كانتا من الأسر الموجهة لمعاصريهم الأدباء ، لما تمتعتا به من مكانة مرموقة في ظل الخلافة العباسية سياسيا وأدبيا .

كما أثبتت الدراسة أن عمرو بن مسعدة نال حظوة عظيمة عند المأمون مما حدا ببعض المؤرخين إلى أن يعدوه ضمن وزراء المأمون ، والحق أنه لم يثل الوزارة وإن شارفها .

ثبت المصادر والمراجع

- * الاتجاه الاخلاقي فى النقد العربى حتى نهاية القرن السابع ، للدكتور محمد بن مريسي الحارثى ، مطبوعات نادى مكة الثقافى الادبى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- * احكام صنعة الكلام فى فنون النثر ومذاهبه فى المشرق والاندلس ، لآبى الوزارتين ، آبى القاسم ، محمد بن عبد الغفور الكلاعى .
- * اخبار آبى تمام ، تأليف آبى بكر محمد بن يحيى المولى ، تحقيق خليل محمود عساكر ، ومحمد عبده غرام ، ونظير الاسلام الهندى ، المكتبة التجارية - بيروت .
- * أدب الكتاب ، لآبى بكر ، محمد بن يحيى المولى ، تصحيح محمد بهجة الاثرى ، والسيد محمود شكرى الالوسى ، دار الباز للطباعة والنشر .
- * أدب الكاتب ، تمنيى آبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفى الدينورى (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المطبوعات العربية ، بيروت - لبنان .
- * الآليات الادبية فى النثر العربى القديم ، من عصر على بن آبى طالب الى عصر ابن خلدون ، للدكتور كمال اليازجى ، الطبعة الاولى ، دار الجيل - لبنان ١٩٨٦م .
- * الاشباه والنظائر فى النحو ، لآبى الفضل عبد الرحمن ابن الكمال جلال الدين السيوطى (٨٤٩ - ٩١١هـ) ، راجعه د. فايز ترحينى ، الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، دار الكتاب العربى .

* أعتاب الكتاب ، تصنيف أبي عبد الله ، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاة ، المعروف بابن الأبار (ت ٦٥٨هـ) حققه د. صالح الأشرف ، طبعة أولى ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م ، مطبوعات مجمع اللغة بدمشق .

* الاعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، تأليف خير الدين الزركلي دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، الطبعة السادسة ١٩٨٤م .

* اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ، للاتليدي ، الطبعة الثالثة ١٣٧٤هـ .

* الاغانى ، تصنيف أبي الفرج الاصبهاني ، على بن الحسين (٩٧٦/٣٥٦م) ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، دار احياء التراث العربى .

* الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، لأبى محمد ، عبد الله ابن محمد بن السيد البطليوسى (٤٤٤ - ٥٢١هـ) ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، ود. حامد عبد المجيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م .

* آل وهب من الأسر الأدبية فى العصر العباسى ، للدكتور يونس أحمد السامرائى ، الطبعة الاولى ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٧٩م .

* الاصلانى ، لأبى على ، اسماعيل بن القاسم القالى البغدادي ، دار الكتاب العربى ، بيروت - لبنان .

* الاصلانى فى المشكلات القرآنية والحكم والاحاديث النبوية ، للإمام أبى القاسم عبد الرحمن بن القاسم الزجاج دار الكتاب العربى ، بيروت - لبنان .

- * الامامة والسياسة ، للامام الفقيه ، أبى محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق د. طه محمد الزينى ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .
- * بلاغة الكتاب فى العصر العباسى ، تأليف د. محمد نبيه حجاب ، الطبعة الثانية ١٩٨٦م .
- * بهجة المجالس وأئس المجالس وشذذ الذاهن والهاجس ، للامام أبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (٣٦٨ - ٤٦٣هـ) ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
- * البيان والتبيين ، لأبى عثمان ، عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، دار الفكر .
- * بين الخلفاء والخطباء ، للدكتور صلاح الدين المنجد الطبعة الثانية ، دار الكتب الجديدة ، لبنان .
- * تاريخ الادب العربى ، تأليف الدكتور عمر فروخ ، الطبعة الاولى ١٩٨٢م ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- * تاريخ بغداد ، أو مدينة السلام ، منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ ، للحافظ أبى بكر ، أحمد بن على الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
- * تاريخ البيهقى ، لأبى الفضل البيهقى ، ترجمه الى العربية يحيى الخشاب ، وصادق نشأت ، دار النهضة العربية ١٩٨٢م ، بيروت - لبنان .
- * تاريخ الخلفاء ، تأليف الامام جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

* تاريخ الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، لابی جعفر ،
محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ - ٣١٠هـ) تحقيق محمد أبو الفضل
ابراهيم ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف .

* تاريخ اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن
وهب بن واضح ، الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى ، دار
صادر ، بيروت .

* تطور الاساليب النثرية فى الادب العربى ، تأليف
أنيس المقدسى ، الطبعة السابعة ١٩٨٢م ، دار العلم
للملايين .

* جمهرة رسائل العرب فى عمور العربية الزاهرة ،
تأليف أحمد زكى صفوت ، المكتبة العلمية ، بيروت - لبنان .
* جواهر الادب فى أدبيات وانشاء لغة العرب ، تأليف
أحمد الهاشمى ، الطبعة التاسعة والعشرون ١٩٨٣م ، دار
الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .

* الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، آدم
متز ، تعريب محمد عبد الوهاب أبو ريده ، دار الكتاب
العربى .

* الحيوان ، لابی عثمان ، عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠ -
٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون ، دار احياء التراث العربى
الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ .

* خاص الخاص ، لابی منصور ، عبد الملوك محمد بن
اسماعيل الشعلى (ت ٤٣٠هـ) عنى بتصحيحه الشيخ محمود
السكرى ، الطبعة الاولى ١٨٠٩م القاهرة .

- * دائرة المعارف الاسلامية ، يصدرها باللغة العربية
أحمد الشنتناوى ، و ابراهيم زكى خورشيد ، وعبد الحميد يونس
دار الفكر .
- * الديارات ، لأبى الحسن ، على بن محمد المعروف
بالشابشتى (ت ٣٨٨هـ) ، تحقيق كوركيس عواد ، الطبعة
الثانية ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م ، مطبعة المعارف - بغداد .
- * ديوان بشار بن برد ، شرح محمد الطاهر عاشور ،
طبعة محمد شوقى ١٣٧٦هـ .
- * ديوان دعبل بن على الخزاعى ، جمعه وحققه الدكتور
محمد يوسف نجم ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ١٩٦٢م .
- * ديوان أبى العتاهية ، تحقيق الدكتور شكرى فيصل ،
طبعة ١٣٨٤هـ .
- * ديوان على بن جبلة العكوك ، جمع وتحقيق زكى
العنانى ، مطابع دار السلام ١٩٧١م .
- * ديوان أبى نواس ، طبعة بيروت سنة ١٣٨٢هـ .
- * ذيل الأمالى ، لأبى على القالى ، دار الكتاب العربى
بيروت - لبنان .
- * ذيل ديوان مسلم بن الوليد ، تحقيق الدكتور سامى
الدهان ، دار المعارف بدمر .
- * الرسائل الفنية فى العمر الاسلامى حتى نهاية العمر
الاموى ، تصنيف غانم جواد رضا ، نثر عن جامعة بغداد ١٩٧٥م .
- * روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، للحافظ أبى حاتم ،
محمد بن حيان البستى ، تعليق وتمحيص مصطفى السقا .

- * زهر الآداب وثمر الآلباب ، لأبى اسحاق ، ابراهيم بن على الحصرى القيروانى (ت ٤٥٣هـ) شرح الدكتور زكى مبارك ، الطبعة الرابعة ، دار الجيل .
- * سمط النجوم العوالى فى أنباء الاوائل والتوالى ، لعبد الملك بن حسين المكى ، المكتبة السلفية .
- * سفن الترمذى ، لأبى عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (ت ٢٧٠هـ) مطبوعة مع تحفة الاحوذى ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- * سفن النساءى ، لأبى عبد الرحمن ، أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ) ، ترقيم عبد الفتاح أبو غدة ، دار البشائر الاسلامية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- * سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- * شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلى ، دار الافاق الجديدة ، بيروت .
- * الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف .
- * صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، تأليف أحمد بن على القلقشندى (ت ٨٢١هـ) شرح محمد حسين شمس الدين ، دار الفكر للطباعة والنشر .
- * صحيح البخارى ، للإمام الحافظ أبى عبد الله ، محمد ابن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ) ، مطبوع مع شرحه فتح البارى ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان .

- * صحيح مسلم ، للإمام الحافظ أبى الحسن ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) مطبوع مع شرحه للثووي ، دار احياء التراث العربى ، بيروت - لبنان .
- * الصناعتين ، الكتابة والشعر ، لأبى هلال ، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى (ت ٣٩٥هـ) تحقيق الدكتور مفيد قميحة ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
- * طبقات الشعراء ، لابن المعتز ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف المصرية .
- * الظرف والظرفاء ، لأبى الطيب ، محمد بن أحمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء ، تحقيق الدكتور فهمى سعد ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، عالم الكتب .
- * عصر المأمون ، للرفاعى ، الطبعة الثالثة ، دار الكتب المصرية ١٣٤٦هـ .
- * العقد الفريد ، تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى (ت ٣٢٨هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
- * العمدة ، لابن رشيح القيروانى ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .
- * عيون الاخبار ، تأليف أبى محمد ، عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦هـ) ، شرحه وعلق عليه الدكتور مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

- * الفخرى فى الآداب السلطانية والسدول الاسلامية ،
تأليف محمد بن على بن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقا ،
دار صادر بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .
- * الفرع بعد الشدة ، للقاضى أبى على المحسن بن على
التنوخى (ت ٣٨٤هـ) ، تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر بيروت
١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
- * الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، تأليف الدكتور
شوقى فيف ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر .
- * فن المقامات بين المشرق والمغرب ، للدكتور يوسف
نور عوض ، دار القلم ، بيروت - لبنان .
- * الفهرست ، لابن النديم ، مطبوعات دار الفكر ١٣٩٣هـ
- * فوات الوفيات ، تصنيف محمد بن شاكرا الكتبى
(ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ،
بيروت .
- * قصص العرب ، تأليف محمد أحمد المولى ، وعلى محمد
البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الرابعة
١٣٨١هـ/١٩٦٢م ، دار احياء التراث العربى .
- * قوانين الوزارة ، للامام أبى الحسن المساورى
(ت ٤٥٠هـ) تحقيق ودراسة الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد ،
والدكتور محمد سليمان داود ، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م
مؤسسة شباب الجامعة .
- * القيم الخلقية فى الخطابة العربية من الجاهلية
حتى بداية القرن الثالث ، تأليف الدكتور سعيد حسين منصور
الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب .

- * الكامل ، للإمام أبى العباس ، محمد بن يزيد المبرد
(٢١٠ - ٢٨٥هـ) ، حققه محمد أحمد الدالى ، الطبعة الاولى
١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- * الكامل فى التاريخ ، للعلامة عز الدين أبى الحسن ،
على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ،
المعروف بابن الاثير ، دار مادر ، بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- * الكتابة الفنية فى مشرق الدولة الاسلامية فى القرن
الثالث الهجرى ، للدكتور حسنى ناعسة ، الطبعة الاولى
١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان .
- * لباب الاداب ، تأليف الامير أسامة بن منقذ (٤٤٨ -
٥٨٤هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الكتب السلفية ١٤٠٧هـ /
١٩٨٧م ، منشورة عن الطبعة الاولى سنة ١٣٥٤هـ .
- * لطائف اللطف ، لأبى منصور عيسى الملك بن محمد
النيسابورى الثعالبى (ت ٤٢٩هـ) تحقيق الدكتور عمر الاسعد ،
الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، دار المسيرة ، بيروت .
- * الممثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، لفياء
الدين بسن الاثير ، تعليق الدكتور أحمد الحوفى ، والدكتور
بدوى طبانه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ،
القاهرة .
- * مجالس العلماء ، لأبى القاسم ، عبد الرحمن بن
اسحاق الزجاجى ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، مكتبة الخانجى للطباعة والنشر .
- * مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة
الراشدة ، جمعها محمد حميد الدين ، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ -
١٩٨٣م ، دار النفائس ، بيروت .

- * المحاسن والاضداد ، تأليف أبي عثمان ، عمرو بن بحر الجاحظ البصري (ت ٢٥٥هـ) ، راجعه الدكتور عاصم عيتاني ، دار احياء العلوم بيروت ، الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- * المحاسن والمساوىء ، للشيخ ابراهيم بن محمد البيهقي ، دار صادر ، بيروت - لبنان ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .
- * محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء البلغاء ، للراغب الاصبهاني ، هذبه ابراهيم زيدان ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، دار الجيل - بيروت .
- * مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تصنيف المؤرخ الجليل أبي الحسن ، علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت لبنان .
- * المستطرف في كل فن مستظرف ، للامام العالم شهاب الدين بن محمد الابشيهي ، حققه عبد الله أنيس الطباع ، دار القلم ، بيروت - لبنان .
- * مسند أحمد ، لأبي عبد الله ، أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) ، وبهامشه كنز العمال ، المكتب الاسلامي ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- * المعارف ، لابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) حققه الدكتور ثروت عكاشة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف .
- * معالم الحضارة الاسلامية للدكتور مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة ١٩٨٧م .
- * معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، دار الفكر .

* معجم البلدان ، للشيخ الامام شهاب الدين ، أبى عبد الله ، ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ، دار صادر ، بيروت .

* معجم الشعراء ، للمرزبانى .

* المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، وضعه محمد فؤاد عبيد الباقي ، الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، دار الحديث ، القاهرة .

* مفتاح السعادة ومفتاح السيادة فى موضوعات العلوم تأليف أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده ، الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

* مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٩٨١م ، دار القلم ، بيروت - لبنان .

* ملامح التجديد فى النشر الاندلسى خلال القرن الخامس للدكتور مصطفى محمد أحمد على السيوفى ، الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، عالم الكتب .

* منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبى الحسن ، حازم القرطاجنى (ت ١٢٨٥هـ) تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، الطبعة الثانية ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ١٩٨١م .

* نشر الدر ، للوزير الكاتب مضمون بن الحسين الآبى (ت ٤٢١هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م .

* النشر الفنى وأثر الجاحظ فيه ، تأليف الدكتور عبيد الحكيم بلبع ، الطبعة الثالثة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ، مطبعة الاستقلال الكبرى .

* النشر الفنى فى القرن الرابع ، للدكتور زكى مبارك دار الجيل ، بيروت .

- * النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، تصنيف جمال الدين أبى المحاسن ، يوسف بن تغرى الاتابكى ، الطبعة الاولى ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م .
- * النحو والصرف فى مناظرات العلماء ومحاوراتهم حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، عرض ونقد الدكتور محمد آدم الزاكي ١٩٨٤م ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة .
- * نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، للقاضى على المحسن بن على التنوخى ، (ت ٣٨٤هـ) تحقيق عبود الشالجي ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
- * نفح الطيب ، للمقرئ ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٨هـ .
- * نقد النثر ، لآبى الفرّج قدّامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- * الوزراء والكتاب ، لآبى عبد الله ، محمد بن عبدوس الجهشياري (ت ٣٣١هـ) تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلى ، الطبعة الاولى ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م مطبعة البابى الحلبي وأولاده ، القاهرة .
- * وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، لآبى العباس شمس الدين ، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

فهرس الموضوعات

المفحة

المقدمة	١ - ط
التمهيد : ثقافة الكاتب	١٨-١

الباب الاول

١٥١-١٩

البرامكة

الفصل الاول : تعريف بالاسرة	٤٧-٢٠
(أ) أرومتهم	٢٢-٢١
(ب) عميد أسرة البرامكة	٣١-٢٣
(ج) اتمالهم بالدولة العباسية	٣٣-٣٢
(د) مكانتهم السياسية	٣٧-٣٤
(هـ) مكانتهم الادبية	٣٩-٣٨
(و) تأثيرهم على أدباء عصرهم	٤٧-٤٠
الفصل الثاني : البرامكة وأدباء العصر	١٥١-٤٨
(أ) البرامكة فى نظر معاصريهم الشعراء	٨٨-٤٩
١ - مدحا	٦٧-٥٠
٢ - قدحا	٧٤-٦٨
٣ - رشاء	٨٨-٧٥
(ب) آراء معاصريهم من الكتاب وغيرهم فى :	١١١-٨٩
١ - بلاغتهم	٩٦-٩١
٢ - تسامحهم	١٠٠-٩٧
٣ - سخاؤهم	١١١-١٠١

المفحة

١٥١-١١٢	(ج) نشرهم ، وسماته الفنية
	أ - توجيهات البرامكة وارشاداتهم
١١٨-١١٤	لعماريهم من الكتاب
	ب - نشرهم وفنونه ، وسماته
١٣٧-١١٩	١ - الرسائل
١٤٢-١٣٨	٢ - التوقيعات
١٤٩-١٤٣	٣ - الحكم والاقوال
١٥١-١٥٠	نتائج الباب

الباب الثاني

٢٤١-١٥٢

آل سهل

١٧٢-١٥٣	<u>الفصل الاول</u> : تعريف بالاسرة
١٥٦-١٥٤	(١) العلائق بين آل سهل والبرامكة
١٥٨-١٥٧	(٢) آل سهل قبل اسلامهم
١٦٠-١٥٩	(٣) أول اتصال بين آل سهل والخلفاء
١٦٦-١٦١	(٤) مشاهير آل سهل في الكتابة
١٧٢-١٦٧	(٥) آل سهل بعد اسلامهم (زمن المأمون)
١٧٠-١٦٧	(أ) مكانتهم السياسية
١٧٢-١٧١	(ب) مكانتهم الادبية
٢٠١-١٧٣	<u>الفصل الثاني</u> : آل سهل في منظار أدباء العصر ..
١٩٨-١٧٤	(أ) آل سهل والشعراء
١٩٢-١٧٤	١ - ما قيل فيهم مدحا

المفحة

١٩٥-١٩٣	٢ - ماقيل فيهم قدحا
١٩٨-١٩٦	٣ - ماقيل فيهم رشاء
٢٠١-١٩٩	(ب) السهلون والكتاب
٢٤١-٢٠٢	<u>الفصل الثالث</u> : نشرهم الفنى ، وسماته
٢٢٤-٢٠٥	(١) الرسائل
٢٣٢-٢٢٥	(٢) التوقيعات
٢٤١-٢٣٣	(٣) الاقوال والحكم
٢٤١	نتائج الباب

الباب الثالث

٣٥٢-٢٤٢

آل صول

٢٧٠-٢٤٣	<u>الفصل الاول</u> : تعريف بالاسرة
٢٤٧-٢٤٤	ملاّتهم بالبرامكة وآل سهل
٢٤٨	أرومتهم وبدء اتمالهم بالخلافة العباسية
٢٧٠-٢٤٩	آل صول عند معاصريهم الكتاب
٣١٠-٢٧١	<u>الفصل الثانى</u> : نشرهم الفنى ، وسماته
٢٧٣	فنون النشر عند الصوليين
٣٠٥-٢٧٥	الرسائل الاخوانية
٣٠٩-٣٠٦	التوقيعات
٣١٠	الاقوال
	<u>الفصل الثالث</u> : بين كتابى "أدب الكاتب"
٣٥٢-٣١١	و"أدب الكتاب"

صفحة	
٣١٥-٣١٢	توطئة
٣٣٤-٣١٦	"أدب الكاتب" لابن قتيبة
٣١٧-٣١٦	ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)
٣٢٩-٣١٧	المحتوى
٣٣٠-٣٢٩	المنهج الذى اتبعه ابن قتيبة
٣٣٤-٣٣٠	أمداء "أدب الكاتب"
٣٤٨-٣٣٥	"أدب الكاتب" للمولى
٣٤٥-٣٣٥	محتوى الكتاب
٣٤٨-٣٤٥	طريقة عرض المادة "المنهج"
٣٥٢-٣٤٩	الموازنة
٣٥٧-٣٥٣	نتائج الدراسة
٣٦٩-٣٥٨	ثبت المصادر والمراجع